فلسطين في الأسر الصهيوني

دراسة تاريخية في نشأة الديانة اليهودية وعلاقتها
بتاريخ فلسطين القديم

عبد الغني سلامه

مكتبة كلّ شيء 2016

info@kul-shee.com www.kul-shee.com

تدقيق لغوي: الشاعر فراس حج محمد

تصميم ومونتاج: شربل إلياس

الطبعة الأولى 2016

* حقوق الطبع والنَّشر محفوظة للناشر.
يُمنع طبع، أو تصوير، أو نقل أيّ مادَّة من الكتاب، دون موافقة خَطيَّة مسبقة من الناشر.

ISBN 978-965-7652-99-2

فلسطين في الأسر الصهيوني

دراسة تاريخية في نشأة الديانة اليهودية

وعلاقتها بتاريخ فلسطين القديم

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــــــــداء

إلى الشعب الفلسطيني العظيم، الذي أبدع وجوده الإنساني والحضاري فوق هذه الأرض، واجترح باقتدار معجزة الصمود والبقاء في وجه الغزاة والطامعين، ومنَحَ للأرض هويتها، وصان عروبتها على مر العصور.

إلى شهداء فلسطين الأكرمين، الذين جبلوا بدمائهم الزكية سهول وهضاب الوطن، دفاعا عن حلمنا المقدس، وقلقنا المشروع.

إلى روح الزعيم الخالد «ياسر عرفات» .. الذي صنع بكوفيته أسطورة الانبعاث الفلسطيني من بين ركام النكبة، وصاغ ملحمة الفداء، وسط حطام الهزيمة، وصنع تاريخ فلسطين المعاصر، مستلهما في هذا الإنجاز عبق التاريخ، وأصالة الأمة، وروح التضحية.

إلى شهداء الأمة العربية، نقدم هذا العمل المتواضع ، عسى أن ينفع أجيالنا القادمة.

والله ولي التوفيق،

عبد الغني سلامه – رام الله

الفــهــرس

قبل التقديم ..	17
التاريخ كخلفية للصراع	21
ثلاثة نماذج لقراءة التاريخ اليهودي	35
تاريخ فلسطين في الإعلام الصهيوني والعربي	
دور الإعلام الصهيوني في تعميم الرواية التوراتية	40
دور الإعلام الفلسطيني في تقديم الرواية التاريخية	46
الفصل الأول: الأسطورة التوراتية، وتاريخ ما قبل اليهودية	51
أولاً: عــصر الآبـــــاء	57
النقد النصي والتاريخي لسفر التكوين:	59
ثانياً: العــبودية في مصــر، والخــروج منها	71
النقد النصي والتاريخي لقصة العبودية والخروج	73
المــوســويــون	79
ثالثاً: عصر القضاة، ويوشع، والفلستينيون	84
يشوع واقتحام كنعان	87
رابعا: مملكة إسرائيل الموحــدة	91
النقد النصي والتاريخي لسفر صموئيل	93
الفصل الثاني: إرهاصات نشأة الديانة اليهودية	99

إسرائيل التاريخـية 100
مملكتي إسرائيل ويهوذا 104
السـبي البابلي وبداية التاريخ اليهودي 109
الديانة اليهودية 115
التوراة واللغة العبرية 119
الفصل الثالث: تعـاقب الفـاتحـين وتـوالي الغـزاة 127
الحـقْبة الفارسـية 129
الحـقبة اليونانيـة 131
الحـقبة الرومـانية 135
الفتح العربي الإسلامي 145
عوامل تراجع الوجود اليهودي 149
وترسيخ الوجود العربي في فلسطين 149
سمات التوطن العربي في فلسطين 151
الفصل الرابع: اليهـودية والصهـيونـية 153
يهـود العـالـم، والزمن اليهودي المفقود 155
المسـألة اليهـودية 161
نشـأة الحـركة الصهيـونية 163
دولة إسرائيل – المشروع الاستيطاني الصهيوني 169
إشكالية الهوية في إسرائيل 173
القـومية اليهـودية 181

طبيعة وسمات الكيان الإسرائيلي 185
الأساطير المؤسسة للأيديولوجية الصهيونية 193
خـــلاصـــة 207
المصادر 211

كلمة شكر، وتنويه

الكتابة في الموضوع التاريخي مسألة في غاية الصعوبة والتعقيد والخطورة، خاصة لمن كان يبحث عن الحقيقة المجردة، ويسعى للوصول إليها بأدوات وأساليب علمية. وتاريخ فلسطين القديم يُعد من أعقد المسائل وأكثرها تشابكا؛ لما طاله من تشويه وتحريف على أيدي الحركة الصهيونية قديما وحديثا، وبسبب تداخل الدين والأسطورة بالتاريخ وبالسياسة.. ولهذه الأسباب وغيرها، لم يكن من السهل أبدا الخوض في تاريخ فلسطين وتاريخ الديانة اليهودية وعلاقتهما ببعضهما البعض؛ إلا أن أهمية الموضوع الذي طالما شكل لي مصدر قلق وتوتر، وتوقٍ لمعرفة الحقيقة التاريخية - التي لم تطغَ على حُبي لفلسطين - قد دفعني لأن أقرأ كل ما تيسر لي من مراجع وكتب تحدثت عن هذا الموضوع. وبعد أن استخلصتُ منها الفكرة التي جاءت معاكسة تماما لما كنت أظنه الحقيقة التاريخية؛ رغِبْتُ بأن ألخّصها وأبسّطُها قدر المستطاع، ليتسنّ للجيل الطالع أن يتعرف على تاريخه الحقيقي مجردا من كل تشويه، وأن يقرأه بدون أحكام مسبقة، ليكون إيمانه بعدالة قضيته مبنيا على أسس راسخة، ولتكون محبته لشعبه وعشقه لوطنه منزهة من كل عنصرية، وليكون نضاله ضد أعدائه لدوافع وطنية، برؤية إنسانية حضارية، خالية من كافة أشكال التطرف والغلو ومحاولات الإقصاء.

ولا أدّعي أنني مؤرخ توصل للمعرفة بفأسه وتنقيباته؛ بل إنني مجرد قارئ للتاريخ، وباحثٌ عن الحقيقة، وقد اقتبستُ من المراجع التاريخية ما أوصلني لبعضٍ مما كنت أبحث عنه، وقد أشرت لهذه المراجع في هوامش كل صفحة، وفي قائمة المصادر في نهاية الكتاب، بأمانةٍ علمية، وبالأسلوب المهني الذي أردت من خلاله أن أحصل على احترام كل من يقرأ هذا البحث، حتى لو اختلف معي في أي نقطة، أو أي استنتاج، وتبقى الحقيقة نسبية مهما كانت درجة إيماننا بصحتها. والمؤكد فقط هو درجة عشقنا لتراب هذا الوطن، الذي خبر سنابك خيل الغزاة،

وعُجن بدماء الشهداء، وتخضّب بدموع أبنائه وعرق بُناته.

ويسرني أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير للصديق الروائي، أستاذ التاريخ الدكتور أحمد رفيق عوض على تفضله بمراجعة الكتاب، وتصويب بعض المعلومات، وتقديم بعض المقترحات والآراء القيّمة... والشكر الموصول للصديق الأديب والشاعر الأستاذ فراس حج محمد، على قيامه بالتدقيق اللغوي، وإبدائه بعض الملاحظات والآراء المهمة... والشكر الدائم لأبنائي يزن ووائل وياسمين، الذين أخذت الكثير من وقتهم الثمين لإنجاز هذا العمل، ولزوجتي الحبيبة خلود على صبرها، ودعمها، ومقترحاتها الملهمة..

ونسأل الله أن نكون قد وُفقنا بالوصول إلى ما نصبو إليه.

استهلال

في آب 1969 اقتحم سائح أسترالي متصهين يدعى «مايكل روهن» باحة المسجد الأقصى وأضرم فيه النار، وبعد أن ألقت الشرطة الإسرائيلية القبض عليه، ادعت أنه مجنون، ثم رحّلته إلى أستراليا؛ حيث ما زال يعيش هناك حتى الآن، وليس عليه أي أثر للجنون، سوى جنونه بخرافات التاريخ. وفي نيسان 1982 قام متطرف صهيوني يدعى «هاري غولدمان»، بإطلاق النار بشكل عشوائي على جموع المصلين في قبة الصخرة، فقتل وجرح العشرات، وأيضا ادعت الشرطة الإسرائيلية أنه مجنون. وفي تشرين أول 1990 قاد المتطرف «غرشون سلمون» مجموعة متطرفين من أمناء جبل الهيكل، واعتدوا على المصلين في المسجد الأقصى، بمساعدة جنود إسرائيليين، فقُتل على الفور 21 فلسطينيا.

وفي شباط 1994 اقتحم مستوطن يهودي يدعى «باروخ جولدشتاين» الحرم الإبراهيمي في الخليل، وفتَحَ نيران رشاشه على المصلين وهم ساجدون في صلاة الفجر، فقتل منهم العشرات، وبعد ذلك بعدة سنوات فتَحَ مستوطن يهودي آخر نيران رشاشه بشكل عشوائي على المارين في أحد أسواق مدينة الخليل، فقتل وجرح العشرات، وعند اعتقاله برّر جريمته: بأن أباه «إبراهيم» كان قد اشترى الخليل من سكانها ببضعة شواقل قبل نحو أربعة آلاف سنة !! وطبعا لو سألنا «باروخ» – وهو طبيب عاش في أمريكا – عن دوافعه لارتكاب المذبحة، لأجاب دون تردد بأن أباه «إبراهيم» قد بنى هذا المعبد، وأوصى به خصيصا له، وعليه أن يتخلص من هؤلاء الدخلاء والغرباء الذين يتعبدون فيه بكل وقاحة!!

وليست هذه سوى أمثلة لحالات لا حصر لها من أشكال الصراع على التاريخ، والادعاء بملكيته، وهي أن دلت على شيء، فهي أولا تدل إلى أي مستوى ينغمس فيه هؤلاء بتفاصيل التاريخ، فيصبحون أسرى له، وإلى أي مدى ممكن أن يلغوا عقولهم – وهذا ينطبق على طرفي الصراع – فيتورطون بجرائم فظيعة تبدأ من

تدنيس القبور ونبشها، إلى ارتكاب المذابح، أو تفجير الأماكن العامة، حيث من المؤكد وجود أطفال وأناس أبرياء لا دخل لهم بالصراع.

والعيش في كهوف التاريخ المظلمة، بهذه القراءة الانتقائية المغلقة، سينتج عنه عقليات متعصبة عنصرية، وسيولد الكراهية، وسيؤدي حتما إلى إلغاء الحاضر، والحكم بالإعدام على المستقبل، لأن هذه القراءة الماضوية والنظرة النرجسية للتاريخ، إنما تنطلق من رؤية دينية طائفية، تريد أن تحتكر الله والتاريخ والأرض لصالحها، ومن أجل ذلك، ستوظف كل النصوص والأيديولوجيات لمصلحتها فقط، وطبعا بعد أن تضفي عليه هالات من القداسة. أي بعبارة واحدة: ستجعل من أطماعها الدنيوية حروبا دينية، لأنها أضمن وسيلة لتحويل البشر إلى حطب ووقود لهذه الحروب.

فلسطين في الأسر الصهيوني

دراسة تاريخية

«على أرض الرسالات السماوية إلى البشر، على أرض فلسطين: وُلد الشعب العربي الفلسطيني، نما وتطور وأبدع وجوده الإنساني والوطني، عبر علاقة عضوية لا انفصام فيها ولا انقطاع، بين الشعب والأرض والتاريخ، بالثبات الملحمي في المكان والزمان صاغ شعبُ فلسطين هويته الوطنية، وارتقى بصموده في الدفاع عنها إلى مستوى المعجزة، فعلى الرغم مما أثاره سحر هذه الأرض القديمة، وموقعها الحيوي على حدود التشابك بين القوى والحضارات، من مطامح ومطامع وغزوات، كانت تؤدي إلى حرمان شعبها من إمكانية تحقيق استقلاله السياسي، إلا أن ديمومة التصاق الشعب بالأرض هي التي منحت الأرض هويتها»[1]

1 وثيقة الاستقلال، م . ت . ف، 1988-11-15 / المجلس الوطني الفلسطيني، د 18، الجزائر، وكان الشاعر الكبير محمود درويش أحد الذين صاغوها.

قبل التقديم ..

كان الإله «بعــل» يأتي كل صباح، قبيل خيوط الشمس، فيهمس للندى أن ينثر رذاذه والقطرات، لتلامس خد الزرع الأخضر على امتداد الروابي والسفوح، ليسقيه سحراً وحباً، فيتفجر المكان جمالاً عبقرياً بزاهي الألوان وبشذى الرياحين، ويحيل الأرضَ إلى خصب ونماء ومواسم حصاد. وكان شعب كنعان يمشط حقول الحنطة في موطنها الأول، ويسقيها من ماء عروقه، ويروي الأقحوان والحنّون، ويصبغه بالأحمر القاني .. فـيبقيه ربيعاً دائماً؛ ليرتبط باسمه على طول الدهر في أول اقتران بين هذه الأرض المباركة مع أول شعب يستقر فوق روابيها والسهول .. اقتران لا انفصام فيه ولا انقطاع؛ فكنعان هو أول من حرث الأرض، وقطف الثمار، وخزن الكرمة في جرار الخمر المقدس، وابتكر أول البدايات، وترك بصماته تحدد معالم النهايات، ومنح المدن أسماءها وهويتها وطقوسها الخالدة، وصاغ ملحمته على ترابه الوطني الذي ما تخلى عنه يوماً، ولا بخل عليه بالعرق والدماء.

فالكنعانيون[1] إذن، هم أول من سكن فلسطين، وبنوا فيها مدناً عديدة – من ضمنها أريحا التي تعتبر أول حاضرة عمرانية للإنسان الحديث – كما أنهم مع الفينيقيين أول من اخترع الأبجدية التي منها تولدت اللغات الأخرى، وبفضلها انتقلت البشرية إلى مرحلة التأريخ والكتابة والتدوين. ولم يكن اشتغالهم بالزراعة دلالة الاستقرار فحسب، بل كان تعبيراً عن مدى ارتباطهم بالأرض، ونسْج علاقة العشق والانتماء لها؛ ولتمنحها ملامحها الكنعانية العربية وإلى الأبد.

وكلمة كنعان أو كنعانيون كلمة حورية تعني الصبغ القرمزي، وتشير إلى قبائل

1 الموسوعة الفلسطينية، رَ الكنعانيون، الجزء الثالث، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط1، دمشق 1984.

سامية يقال أنهم من نسل كنعان بن حام بن نوح، وفي الواقع أنهم نزحوا من الجزيرة العربية في النصف الأول من الألف الثالث ق.م، هم والعموريين الذين يتشابهون إلى حد كبير، والاختلاف اللغوي بينهما هو في اللهجة، ويرتبط تاريخ الكنعانيين بالتاريخ المصري، حيث ضمت مصر أرض كنعان زمن الأسرة الثانية عشر (2000~ 1786 ق.م) ومرة ثانية في زمن الأسرة الثامنة عشر والتاسعة عشر، وهم أول من اكتشف النحاس وصنعوا البرونز وبنوا السفن واشتغلوا بالزراعة والتجارة، وبرعوا في البناء، وهم أول من اخترع حروف الكتابة، ديانتهم خصبة تعددية، ومن أشهر آلهتهم إيل، بعل، هدد، تأثروا كثيرا بالحضارة المصرية والبابلية، ومن أهم مدنهم أريحا، بيسان، مجدو، عقرون، يبوس. [1]

إذن، وبينما كانت فلسطين تمثل مناطق جذب والجزيرة العربية مناطق طرد، بدأت آنذاك أفواج المهاجرين تندفع نحو الشمال ضمن ما سمي لاحقاً بِ «الهجرات العربية السامية» وذلك في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، فاستقر الأراميون والعمونيون في بادية الشام والفنيقيون على ساحل سوريا الغربي،[2] والكنعانيون في الأرض المنخفضة «فلسطين»، ومنهم انحدر اليبوسيون الذين بنوا بيت المقدس، وقد أسموها آنذاك أورشالم[3]، وكانت حينها حضارتا مصر والعراق أولى الحضارات الإنسانية ورائدتهما في طور الفتوة والبدايات، تتجاذبان النفوذ على المنطقة، فاحتلت فلسطين، ومنذ ذلك الوقت، مكانتها المرموقة ومقامها العالي.

فكانت فلسطين، بفضل موقعها الحيوي مهبطاً للرسالات السماوية وملتقى للحضارات، وهمزة وصل بين قارات العالم القديم، ومحطة للقوافل، ومسرحا للأحداث... على رحاها تجري المعارك، وفوق أراضيها يتقرر مصير المنطقة، ومنها يعبر الغزاة إلى المناطق المجاورة. من يحكمها يحكم المنطقة بأسرها، ويرسم ملامح الحقبة التاريخية، ومن يخرج منها يحال إلى أرشيف التاريخ، وبذلك توالت الغزوات وتعاقب الفاتحون، وكان شعب فلسطين في كل مرة

1 عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، 1999. ط1 . الجزء الرابع، ص 104.
2 نجيب الأحمد، فلسطين تاريخا ونضالا، دار الجليل للطباعة والنشر، عمان، ط1، 1985.
3 محمد أديب العامري، عروبة فلسطين في التاريخ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط1ـ 1972.

يقاوم الغزاة ويلفظ الاحتلالات، ويُبقي على وجه فلسطين نقيا من كل شائبة.. عربيا أصيلاً.

وفي القرن الثالث عشر قبل المسيح قدِم إلى المنطقة «الفلسطيون»[1] قادمين من بحر «إيجة» بسبب ظروف مناخية أدت إلى انهيار الزراعة، باحثين عن موطن ومستقر، فوجدوا الملاذ على ساحل فلسطين، وسكنوا في خمس مدن رئيسة؛ و»الفلستيون»، وهم من شعوب البحر، مصطلح يطلق على القبائل التي استوطنت شاطئ فلسطين بدءا من العام 1194 ق.م، وقد جاء ذكرهم في عدد من المصادر المصرية، حيث اسموهم «بلست» وكذلك في المصادر الأشورية، حيث أسموهم «بلستو»، وكان المؤرخ «هيرودوت»، الذي يعد أبو المؤرخين، هو من أطلق تسمية «فلستيا» على المنطقة التي سكنها الفلستيون.[2]

ولأنهم لم يكونوا غزاة أو مجرد عابرين؛لم يلبثوا أن اندمجوا مع أهل البلاد الكنعانيين وبدون حروب، بل بكل سهولة ويسر، وضمن فترة وجيزة، فتكلموا لغة واحدة، وعبدوا نفس الإله، ومارسوا نفس الطقوس والعادات، ومنحوا فلسطين اسمها، وعليها نموا وتطوروا وأبدعوا وجودهم الإنساني والحضاري، وحاكوا نسيج الأرض والتاريخ، وتواصل وجودهم في كل الحقب والأزمان اللاحقة.. رسموا حدودها بدمائهم، وصاغوا تراثها بزنودهم، وجبلوا التراب بالعرق والدموع، وحموها من اللصوص وقطاع الطرق.[3]

وتُجمع الديانات السماوية على أن فلسطين أرض مباركة مقدسة، ورَدَها جميع الأنبياء والرسل، يدعون إلى التوحيد والمساواة والعدل، ويحثّون على مكارم الأخلاق، ويحملون رسالة السلام إلى بني البشر، وأولهم إبراهيم الخليل، الذي كان قدومه إلى فلسطين في نفس السياق، يحمل معنىً دينياً وروحياً وحسب، فهو «أبو الأنبياء وصاحب الديانة الحنيفية السمحة».

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) قرآن كريم

1 الموسوعة الفلسطينية ج 3 ر الفلستيون. مصدر سبق ذكره.
2 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة د. سحر الهنيدي ، عالم المعرفة، 1999، ص 15.
3 أحمد صدقي الدجاني، مجلة شؤون فلسطينية، مركز الأبحاث والدراسات الفلسطينية ، بيروت، العدد 76 .

التاريخ كخلفية للصراع

تقــديم:

(إنّ الّذينَ آمَنوُا وَالّذينَ هَادُوا وَالصّابِئونَ وَالنّصَارى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالحِاً فَلا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنوُنْ). [1]

دأبت الحركة الصهيونية، ومنذ نشأتها على تصوير الصراع العربي الصهيوني على أنه صراع ديني محض، مستندةً في حربها المعلنة على الأمة العربية بشكل عام وعلى الشعب الفلسطيني بشكل خاص على إدعاءات دينية تاريخية معينة، وضَعَتْها ضمن قوالب دينية غيبية، تجد ما يدعمها في نصوص التوراة وتفسيراتها المغلوطة، وهي بهذا الطرح تحقق جملة من الفوائد دفعة واحدة: فهي أولا تصور الصراع بحيث يفهمه العالم على أنه صراع ديني طائفي، كغيره من الصراعات الطائفية الإثنية التي تحدث في مختلف أنحاء العالم، والتي عادة ما تنتهي بتقاسم الأرض وتثبيت حدود سياسية بين الطوائف المتنازعة، ومن ناحية ثانية فإن المشروع الصهيوني سيتوقع أن يجد الدعم من العالم الغربي المسيحي، فضلا على أنه سيدخل العالم في متاهة الجدل الديني والتاريخي، بحيث يضيف مزيدا من الغموض والأكاذيب على حيثيات الرواية، وبالتالي ستزعزع ثقة العالم بعدالة القضية الفلسطينية، إذ أن العالم المتحضر بات يرفض فكرة الحرب الدينية وينبذها – على الأقل على المستوى العلني – وبالتالي ستبدو إسرائيل بمظهر الضحية المغلوب على أمرها، أي دولة الأقلية اليهودية التي يتربص بها العالم الإسلامي، ويريد أن يلقيها في البحر، وبالطبع سيعيد الإعلام الصهيوني للأذهان قصة الهولوكوست والمحرقة ومذابح النازية، وسيبتز العالم ليحصل على المزيد من الدعم والتأييد.

وتماشيا مع محاولتها زج الدين في الصراع، وتوظيفه سياسيا، وانطلاقا من ذات الخرافة الدينية؛ تسعى إسرائيل لتثبيت ما تسميه يهودية الدولة، وتريد

---

1 المائدة 69

انتزاع اعتراف عالمي بإسرائيل كدولة يهودية.. وإضافة لما سبق ذكره، فإنها من خلال «يهودية الدولة»، وتثبيت «الرواية التوراتية»، ستجد المبررات الدينية والسياسية للتخلص من العرب الفلسطينيين المقيمين في «إسرائيل»، ومن ثم ستلغي كل مطالبة بحق العودة، وستقضي على مشاريع الحلول السياسية المقترحة التي تنادي بدولة المواطنة، وثنائية القومية، والتعايش، لصالح تكريس حل عنصري وحيد. حتى أن طرح «يهودية الدولة» يجعل من الصهيونية القديمة مجرد يهودية شعبوية.

وفي المقابل سنجد أن بعض الأحزاب الإسلاموية تتلاقى مع هذا الطرح بشكل أو بآخر، وذلك انطلاقا من رؤيتها الأيديولوجية للصراع، فقد كانت فكرة الحرب الدينية واضحة في خطابها الإعلامي، وهي أساسا مقتبسة من أفكار بعض المفكرين والمنظرين الإسلامويين على اختلاف مشاربهم الفكرية وانتماءاتهم الطائفية؛ إذ يعتبر هؤلاء المنظّرون أن الصراع العربي الصهيوني هو صراع ديني بين المسلمين واليهود... ويعتبرون أيضاً أن الوجود الصهيوني على أرض فلسطين هو تجسيد لأحلام التوراة ومخططات كُهّانها منذ ألفي وخمسمائة عام.

وربما يؤدي إضفاء البعد الديني على الصراع إلى تثبيت الرواية الصهيونية بشأن تاريخ اليهود وعلاقتهم المزعومة بفلسطين، وسيلغي البعد الإمبريالي للكيان الصهيوني، وَسَيُمَوِّه على حقيقة وطبيعة هذا الكيان وعلاقته بالمشروع الإمبريالي العالمي؛ مما يعني تقويض الأركان الحقيقية التي يقوم عليها الصراع، وتفريغه من محتواه السياسي، وتعطيل لكافة أدوات العمل العسكري والسياسي والدبلوماسي التي لا تنسجم مع هذه الرؤية، وهو أيضاً تهديد للوحدة الوطنية وتفتيت للنسيج الاجتماعي؛ لأنه طرحٌ يستثني المسيحيين، وأحيانا أخرى يضعهم في صف اليهود، ويصنّف المجتمع بين مسلم وكافر، ويثير فيه النزعة الطائفية / المذهبية، كما أن هذا الطرح يرفض التفريق بين اليهودية والصهيونية، ويرفض اعتبار القضية الفلسطينية قضية وطنية أو قومية.

كما أن وضع الغرب كله في سلة واحدة سيؤدي إلى زيادة عدد الأعداء، وتكتيل العالم ضد الفلسطينيين، وبالتالي ستقل فرصهم في بناء تحالفات دولية. في

حين أن عدم التمييز بين اليهودية والصهيونية سيؤدي إلى الفصل بين المشروع الإمبريالي المعادي للعرب وبين إسرائيل كقاعدة ارتكازية لهذا المشروع.[1]

وهذا لا يعني بحال من الأحوال استثناء العالم الإسلامي من الصراع، أو أن المسلمين غير مطالَبين بالانخراط بشكل مباشر أو غير مباشر فيه؛ ذلك لأن القضية الفلسطينية بالإضافة لكونها قضية وطنية، هي أيضا قضية إسلامية، ولأن المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين تعني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ ولأن تحرير فلسطين واجب وطني وديني وقومي وإنساني؛ وبالتالي على المسلمين مَدِّ يَدَ العونِ للفلسطينيين في معركتهم العادلة، ومن جهة ثانية من حق الفلسطينيين ومن واجبهم استنهاض المشاعر الدينية وروح التضحية، وحث المسلمين وكل أحرار العالم على الكفاح ضد الصهيونية، بصفتها حركة عنصرية معادية للإنسانية، وتنتهك حقوق الإنسان، وترتكب جريمة ضد شعب آخر، وتعتدي على المقدسات الدينية.2

من وحي هذا الفهم، يمكننا الجزم بأن جبهة التاريخ تُعد أشد الجبهات خطورة وأكثرها سخونة من بين جبهات الصراع العربي الصهيوني، وقد أدركت الحركة الصهيونية هذه الحقيقة منذ أن كانت مجرد حلم يعشّش في رؤوس مؤسّسيها أواخر القرن التاسع عشر، وأدركت أن الصراع حول الماضي إنما هو صراع من أجل الهيمنة والسيطرة على الحاضر؛ وبالتالي فإن إعادة قراءة التاريخ ليست مجرد إعادة بناء نزيهة للماضي، أو عبارة عن جدال أكاديمي بين مثقفين حول مفاهيم تاريخية معينة، بل هي عملية توظيف للتاريخ لخدمة الأهداف السياسية التي تسعى لتحقيقها، لأنه وكما جرت العادة لدى كل الغزاة؛ فإن التاريخ هو ما يكتبه المنتصرون والأقوياء وحسب، ولكن هذه المرة لم يكن مجرد توظيف للتاريخ فحسب، بل ابــتداع تاريخ جديد، كلما اقتضت الحاجة.

ومن منطلق إدراك الحركة الصهيونية لخطورة علم الآثار والتنقيبات الأركيولوجية على المنهج التوراتي الأسطوري؛ فقد جرت المحاولات للالتفاف حول هذا العلم وتطويعه لدعم وجهات النظر اليهودية، من خلال السيطرة على مراكز الأبحاث

1 عبد الغني سلامه، مجلة فلسطينيات، مركز القدس للإعلام والاتصالات، العدد الخامس، شتاء 2008، ص 61.
2 الميثاق الوطني الفلسطيني – منظمة التحرير الفلسطينية.

والدراسات في الغرب، والسيطرة على مراكز الإعلام وصنع القرار، وتشويه سمعه أي باحث يتوصل لحقائق تاريخية لا تروق لهم، والاستغلال البشع لكذبة «معاداة السامية»، كما فعلت على سبيل المثال مع البروفيسور «توماس طومسون» عالم الآثار في جامعة ماركويت الأمريكية؛ حيث طُرد هذا العالم من الجامعة عام 1992 بسبب آرائه المعارضة للتوراتيين التقليديين[1]، حين أوضح في كتابه «التاريخ المبكر للشعب الإسرائيلي من الكتابة والتنقيبات الأثرية» أن مجمل التاريخ اليهودي يستند إلى قصص من صنع الخيال، وكذلك ما حدث مع المفكر الفرنسي «روجيه جارودي» مؤلف كتاب «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» حيث حوكم بتهمة النيل من الجنس اليهودي عام 1995، كما تمكنت الدوائر الصهيونية في فرنسا من استصدار قانون «جيسو» عام 1990 والذي يعتبر أن إعادة النظر في تاريخ اليهود جريمة ضد الإنسانية! [2]

وقد أدرك المشروع الإمبريالي الاستيطاني الإسرائيلي ومنذ البدايات الأولى أهمية البعد التاريخي لإنجاح هذا المشروع، فتضمنت المادة 21 من صك الانتداب البريطاني إصدار «قانون الآثار»، وما أن استلم المندوب السامي «هربرت صموئيل» (اليهودي الصهيوني) مهامه في فلسطين حتى شرع بتوفير التسهيلات اللازمة لعمليات التنقيب، التي ظن أنها ستدعم مزاعم الحركة الصهيونية، وتجد ما يشير إلى صلة ما واستمرارية تاريخية بين مملكة إسرائيل القديمة إبان مطلع العصر الحديدي وبين دولة إسرائيل الحديثة، وكذلك فقد سارعت إسرائيل وخلال شهرين من تأسيسها إلى إنشاء دائرة الآثار الإسرائيلية بهدف فرض الرقابة على عمليات التنقيب.[3]

وبعد حرب حزيران 1967، صار بإمكان المنقبين الإسرائيليين البحث في الأرض المحتلة، وفي مقدمتها القدس، وقد امتزجت في البداية فرحة الجنود المنتصرين في الحرب مع فرحة الساعين للحفر والتنقيب فيها، فراح المنقبون بلهفة كبيرة يركضون وراء حلمهم الجميل بالعثور على أدلة تاريخية تسند روايتهم، وقد

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سبق ذكره، ص 11 .
2 روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دار الغد العربي، القاهرة، 1996 ص6
3 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع ، عمان 1998 ط1، ص 8.

شعروا أن فرصتهم الذهبية قد حانت، وأنه بات في مقدورهم أن يلحموا الشعب الإسرائيلي القديم بوطنه التاريخي، وأن يبرهنوا على صدقية مزاعمهم في تدعيم حلقات روايتهم عن تاريخهم القديم، غير أن هذه الفرحة لم تحصل أبداً، وحماسهم بدأ يفتر شيئا فشيئا كلما تقدموا بالبحث، حتى أصيبوا بخيبة أمل كبيرة.[1]

وقد تطلّبت التغطية على هذا الفشل، تجاهُلهم المعطيات التاريخية التي توصلوا إليها، بالإضافة إلى مواصلتهم تقديم قراءة سياسية / أيديولوجية للتاريخ. وحتى يتمكنوا من ذلك، كان لا بد لهم من مصادرة تاريخ الطرف الآخر، أي بجملة واحدة «تزييف الحقائق التاريخية، وإعادة كتابة التاريخ وفق الرؤية الصهيونية»، وهذا ما تولاه فريق من المنقبين وعلماء التاريخ، وهم يمثلون العلماء التوراتيين الذين يستندون فقط إلى التوارة، ويتعاملون معها كمصدر تاريخي، وبالتالي سيعمدون إلى تحليل البيانات الأركيولوجية بما يتناسب مع الأحكام المسبقة التي يريدونها، أي ليّ ذراع الحقيقة بأدوات علمية زائفة، ومن هنا فقد اختلق هؤلاء الباحثون التوراتيون كيانا يدعى «إسرائيل القديمة»، وصوروها على أنها كانت إمبراطورية، في حين أنها لم تكن أكثر من ضرب من الخيال، تجد له دوافع سياسية واضحة في الوقت الحاضر.[2]

والأخذ بآراء مثل هؤلاء الباحثين دون روية وتمحيص هو تسليم بظلامية التاريخ ودكتاتورية الأفكار الغيبية، التي عادة ما تطمس الحقائق وتثقل العقل بالنقل، بل وتلغيه، وتجعله عاجزا عن التفكير وتفسير ديناميكية الأشياء، فالتناقض في تسلسل الأحداث، ووجود كثير من الشخوص التوراتية جعل الكثيرين يتخبطون في مغالطات وتبريرات تخرجهم عن إطار البحث العلمي، وتزج بهم في دائرة التبرير الضيقة، وبالتالي سيدورون حول الحقيقة بدلا من رؤيتها، وسيختبئون وراء تسعة وثلاثين سفراً من «الكتاب المقدس»، حتى لا يروا أمامهم إلا الوهم والخرافات.[3]

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة سعيد عياش، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، رام الله ط1، 2010. ص 156.

2 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سبق ذكره، ص 9.

3 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 90 .

ومع صعود الحركات القومية بعد الثورة الصناعية في أوروبا وبداية العصر الكولونيالي الإستعماري، ومحاولة القوى المهيمنة فرض تصورها الخاص بها للنظام العالمي الجديد، حاولت كل حركة من هذه الحركات أن تجد لنفسها التبرير والتأييد لإعادة كتابة التاريخ وفق رؤيتها الخاصة، وبالشكل الذي يُكسبها الشرعية ويدعم مزاعمها، ولعـل أكبر كذبتين عرفتهما الإنسانية - ليس في هذا السياق فحسب؛ بل عبر تاريخها الطويل - كانتا وليس من قبيل الصدفة على أيدي أحبار اليهود وغلاة الحركة الصهيونية، ويتعـلقان بالطبع بما سيعرف لاحقاً بالمسألة اليهودية، وبالتاريخ اليهودي نفسه.

كانت المرة الأولى عندما ابتدع الأحبار العائدون من السبي البابلي قصة أصول اليهود، ووحدة الشعب اليهودي، وربطها بشخصيات اعتبارية «مثل النبي إبراهيم ويعقوب وموسى وغيرهما» ومن ثم إدماج هذه القصة في سياق التاريخ القديم لمنطقة الشرق الأدنى. أما المرة الثانية فكانت عندما اختلق دعاة الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر ما سمي حينها «بالمسألة اليهودية واضطهاد اليهود» بحيث يكون الحل متمثلاً بالعودة إلى « أرض الميعاد « كمقدمة لخلق الكيان الإسرائيلي لاحقاً.

ومن اللافت للنظر أنه في المرتين صَدَّقَ العالم تلك الكذبتين، بل وإن أول من صدق هذه القصة وروّجَ لها أولئك الذين يُصنفون بأنهم أكثر الناس تشددا وتطرفا في عداء اليهود، ولا يكفّون عن الصراخ بأنهم سيلقون بهم في البحر، وعن بكرة أبيهم !

ليس هذا وحسب؛ فالمناهج الدراسية العربية أيضا تربي الأجيال الطالعة على فهم التاريخ اليهودي كما تصوره خرافات التوراة قبل ألفين وخمسمائة سنة، وكما تشتهي قلوب غلاة الحركة الصهيونية: على أنه تاريخ متصل لشعب متميز يحمل خصائص معينة، ويجد مبرراته في كل حقبة من حقب تاريخ هذه المنطقة وروابط مع أحداثها وشخوصها ومدنها، وبالتالي فهو يضرب جذوره عميقا في تراب هذا الوطن. وهذه المناهج لم تأت من فراغ، ولم يكتبها لنا أحبار اليهود، بل كتبها مؤرخون عرب ومسلمون، فَهِمُوا تاريخ المنطقة استنادا للرواية الدينية

التي تناقلتها الأجيال كقصة مؤكدة لا تحتاج إثبات، ولا تعوزها مراجعة.

ومن أجل ديمومة هذه القصة وحتى لا يأتي من يشكّك بها، فقد حرصت الحركة الصهيونية على إحاطتها بجدار إيماني سميك، يأخذ السمات الغيبية، ويستمد قوته من الكتب المقدسة، ويحارب بكل ضراوة كل محاولات اختراق هذا الجدار، أو إخضاع هذا التاريخ للدراسات النقدية العلمية.

وهكذا مع مرور الزمن، وغياب البديل العقلي والموضوعي تمكنت الرؤية الصهيونية للتاريخ من فرض نفسها على الأوساط الأكاديمية، وهيمنت على معظم الدراسات والنظريات التاريخية، حتى غدت وللأسف من صُلب الخطاب الديني (الإسلامي والمسيحي)، وليس من قبيل المبالغة القول بأن الخطاب الديني قد شكل لها الغلاف الصلب، الذي وفر على الدوام الحماية الكافية لهذه القصة من التهاوى والانهيار أمام حقائق العلم، فدخول المفاهيم اليهودية في متن النصوص المقدسة، وفي صُلب البنى الإيمانية للديانات الأخرى غير اليهودية أصبح الخط القتالي الأمامي لجبهة القتال اليهودية. وهكذا صار رجال الدين (مسلمين ومسيحيين) هم المدافعين بحماس عن اليهودية، حتى وإن تم ذلك عن غير قصد، وبصورة غير مباشرة - فالنتيجة واحدة - وكما أصبح عمل الباحثين مجرد ناقلين لنصوص توراتية يشوبها الكثير من الظنون والمبالغات، ويفرضونها على المناهج التعليمية.[1]

هذا الغلاف الديني/ الغيبي الذي أحاطت به الحركة الصهيونية روايتها التاريخية - بالرغم من وَهْـنِهِ وزيـفه - إلا أنه كان ضرورياً، بل كان شرطا أساسيا لا يمكننا تصور نجاح هذا المشروع بدونه، فهو يوفر له قوة دفع، ويشكّل مثلاً أعلى للقيم المجتمعية الإسرائيلية تربى عليها الأجيال الجديدة بشكل خاص، ويضفي هالة من القداسة على هذه الرواية.

أي أن هذه المزاعم الدينية ضرورية بالنسبة للحركة الصهيونية لتكون بمثابة خلفية تاريخية للمشروع الصهيوني، وهاديا ومرشدا وناظما لعلاقاته الاجتماعية والسياسية بين أفراد هذا الكيان، ومن خلاله يرى المجتمع الإسرائيلي الحالي

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع، عمان 1998 ط 1 ص 8 + ص 26.

صورته في الماضي السحيق، ويُعبرِّ عن امتداده وتواصله التاريخي، وبالتالي فهــو رابط يجمع بين شتات اليهود في العالم، ودافعا ومبررا للهجرة إلى ما أســموها «أرض الميعاد»، ومسوّغا تاريخيا لاحتلال أرض الغير، وحُجّةً يرفعها السياسيون لإقناع الرأي العام العالمي، وأداةً تستخدم في المحافل الدولية كلما اقتضت الحاجة.

ومن الجدير بالذكر أن الرؤية الصهيونية كانت في بداياتها رؤية بروتستانتية استعمارية، رأت أن عودة اليهود إلى فلسطين جزء من رؤيتهم الكلية والحرفية للكتاب المقدس، فالدراسات التوراتية التي بدأت منذ القرن الثامن عشر بدأها بروتستانت، وكذلك أعمال التنقيب والمستوطنات الأولى في فلسطين أقامها بروتستانت ألمان. وتبدو الصهيونية هنا كما لو أنها مجرد أداة، أو واجهة. بمعنى أن النخب الحاكمة في أوروبا استغلت المسألة اليهودية، بإعادة مركزة اليهود في التاريخ، واستغلالهم وتوظيفهم استعماريا، وفي هذا البُعد صار حل المسألة اليهودية جزءا من ضريبة علمنة أوروبا بأكملها، وجزءأ من حل أزمات أوروبا بتصديرها اليهود إلى الشرق.

ومع صعود قوى اليمين المسيحي وازدياد تطرفها وتقربها أكثر من الدوائر الصهيونية، برزت حاجة المؤرخين التوراتيين في البحث عن إسرائيل القديمة، وتقديمها كمنبع للحضارة الغربية، وكان حضور اللاهوت المسيحي اليميني واضحا في مجال بحثه عن جذور خصوصيته في المجتمع الذي أنتج التوراة العبرية، وقد تعزز هذا الاتجاه أكثر مع تأسيس دولة إسرائيل الحديثة، مما ولد حاجتها في البحث عن هويتها الوطنية في الماضي السحيق[1]. ومؤخرا، مع صعود المحافظين الجدد من اليمين المسيحي سدة الرئاسة الأمريكية من مدرسة بوش – تشيني – رامسفيلد والتي هي امتداد لمدرسة ريغان، فقد تعززت روابط إضافية غير تلك السياسية الاقتصادية الأمنية التقليدية التي طالما ربطت إسرائيل بأمريكا.

ومن هنا يتضح أن الدوافع السياسية هي التي لعبت دورا حاسما في إعادة

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة د. سحر الهنيدي ، عالم المعرفة، 1999، ص 194.

بناء الماضي المتخيل لإسرائيل القديمة، وهذا يدل على تورط الدراسات التوراتية اللاهوتية في هذه العملية منذ بدايتها، وهي التي اختلقت جغرافيتها الخاصة ورؤيتها الخاصة، وذلك في سياق محاولتها بناء رواية معينة للماضي، هذه الرواية بالطبع متأثرة بالعامل السياسي الذي حدد دوافعها بدايةً، وشكلت بالتالي نظرة المؤرخ للماضي والحاضر.[1]

ومن الطبيعي أن هذه المزاعم تعني نفي الطرف الآخر (الفلسطينيون) ومصادرة حقهم بالوجود، بل وإنكار وجودهم، وفي الحالات التي تضطر إلى الاعتراف بالفلسطينيين، أو التعامل معهم؛ فهم مجرد سكان محليين، كان يتم وصفهم بأنهم غير جديرين بالحياة، أو أنهم بدائيون ومتخلفون ومتعطشون للدماء .. وبالتالي يجب ألّا تؤخذ مطالبهم على محمل الجد .[2]

وإذا كانت هذه الخرافات والأوهام قد أنطلت على الكثيرين ولمدة طويلة؛ حين كان المؤرخون يستمدون معلوماتهم من قصص التوراة، التي كان تدوينها لا يعتمد المنهج العلمي في التدقيق والتمحيص وتقصّي الحقائق - كما هو شأن علم التاريخ الحديث - بل اعتمد الأخبار المنقولة والقصص المتداولة والمشاهدات الشخصية العابرة، التي تتداخل فيها الأهواء الشخصية للمؤلفين والرواة؛ فإن التنقيبات الاركيولوجية التي افتتحتها حملة «نابليون» وما نتج عنها من فك رموز الكتابات الشرقية القديمة، قد نقلتنا مباشرة إلى العصور الموغلة في القدم، لنفهم التاريخ كما هو بالضبط[3]، ولتمدنا بحقائق واضحة تتمتع بدرجة عالية من المصداقية والموضوعية، ولتتضح تلك الصورة الغامضة والمشوهة التي طالما دأبت الحركة الصهيونية على ترسيخها في الذاكرة البشرية وللأبد، وإحاطتها بهالة من القدسية والسحر، ليصعب على العالم فهم الحقيقة التاريخية المجردة عن تاريخ بني إسرائيل.

والتاريخ لا يُفهم بالعقلية الغيبية التي لا تعرف سوى حفظ النصوص وترديدها، ونقل الأخبار والمرويات وتوريثها من جيل إلى آخر، دون أن تكلف نفسها عناء

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سبق ذكره، من المقدمة.
2 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سبق ذكره، من المقدمة.
3 فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق 1993 ط 2 . من المقدمة.

التفكير الجدي بها، بل هو تدوين أمين لحركة المجتمعات والشعوب في صراعها وتصالحها، ونموها وتطورها، وانعكاس تناقضاتها الموضوعية والتفاعلات التي تعصف بها، ونضوج عواملها الذاتية التي تنقلها من مرحلة إلى أخرى. ولم تكن عملية التأريخ في يوم من الأيام عبارة عن سرد حكاية بطل أسطوري معين، أو مجرد إسقاطات فكرية جاهزة وفقا لأحكام مسبقة.

وقد توهم هؤلاء الصهاينة أنه بمجرد رسم الخرائط وإطلاق الأسماء التوراتية على الأرض، وإعادة رسم جغرافية الكتاب المقدس المليء بأسماء مواقع ومدن تبين أنها لم تكن موجودة في يوم من الأيام، يعطيهم ذلك الحق بملكيتها، ونرى اليوم بوضوح كيف أن الإسرائيليين يحاولون إعطاء شرعية لاحتلالهم قرى ومدن فلسطينية وذلك عن طريق تسمية المستوطنات والمدن الإسرائيلية بأسماء توراتية، في محاولة بائسة لإثبات أن لهم حقا تاريخيا بها، والحقيقة أن هذه الأسماء هي أصلا أسماء فلسطينية كنعانية كانت سائدة قبل وأثناء وبعد الوجود الإسرائيلي في فلسطين القديمة.[1]

والآن بعد أكثر من قرن ونصف من بدء عمليات التنقيب والجمع والتحليل التي بذلها علماء كبار في علوم التاريخ والآثار واللغات القديمة، وبشكل خاص في تفسير الوثائق التاريخية التي دونتها تلك الشعوب التي صنعت أحداث وتاريخ المنطقة، تكون قد تكونت لدينا صورة واضحة عن تاريخ المنطقة التي يدعي اليهود أن لهم أصولاً فيها. وبدأت تتهاوى شيئا فشيئا تلك الإدعاءات الكاذبة عن وحدة الشعب اليهودي، وأصوله، وتاريخه المتسلسل، ونقاء عرقه، وحقوقه الدينية والقومية ...

وسيتضح لنا عبر هذه الدراسة بصورة جلية أن الديانة اليهودية التوراتية قد نشأت إبان السبي البابلي وليس في زمن موسى، وأن تاريخ هذه الطائفة بدأ للمرة الأولى في التاريخ فقط بعد عودة المسبيين من بابل في زمن «كورش الفارسي»، وليس قبل ذلك بأي حال، وأن قصة وجود بني إسرائيل على أرض مصر 430 سنة ما هي إلا أخيولة تجاهلتها حتى التوراة نفسها، ولم تفلح بسرد

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سبق ذكره، من المقدمة.

حكاية واحدة صحيحة عنها، وأن أسطورة الخروج لم تجد أي سند تاريخي مادي يدعمها من خارج التوراة، وأن المملكة الموحدة لسليمان وداوود لم تكن موجودة في يوم من الأيام على أرض القدس (ربما كانت موجودة في مكان وزمان آخر)، وأن جميع الأنبياء والشخصيات التاريخية بدءًا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وسليمان وداوود وحتى موسى نفسه ليس لهم أي علاقة بالتاريخ اليهودي، بل أن مملكتي يهوذا وإسرائيل لم تشكلا يوما قوة سياسية يعتد بها، ولم تقدّما إسهاما حضاريا يمكن وصفه بالإسهام الإسرائيلي المتميز بخصائص واضحة، بل كان وجودهما طيلة تاريخهما القصير كجزء من التاريخ الكنعاني، وقد انتهتا تماما، وصارتا إرثا ومُلكا للذاكرة الإنسانية جمعاء، وذلك بعد تدميرهما وسبي سكانهما تباعا، على يد «سرجون الثاني» الأشوري و»نبوخذ نصر» البابلي في النصف الأول من القــرن الخامس قبل الميلاد.

فالوجود السياسي للإسرائيليين على أرض كنعان لم يزد عن كونه خيطا رفيعا في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني والممتد، وهو لم يدم أكثر من بضعة قرون قليلة، في حين أن تاريخ كنعان يضرب في مطالع التاريخ إبان الألف الرابع قبل الميلاد، ومأثرة الإسرائيليين الثقافية الوحيدة كانت هي التوراة، التي بدأ أحبار اليهود بتحريرها نقلا عن وثائق متفرقة وروايات متناقلة، بدأوا بها في فترة السبي البابلي وأنهــوا عملهم بعد العودة من السبي بأمر من الحاكم الفارسي نفسه، ولأغراض سياسية استعمارية، وهذه المأثرة الوحيدة هي في الواقع ظاهرة ثقافية لا يمكن فهمها ودراستها إلا في السياق العام للحضارة الكنعانية إجمالاً، واعتبارها إنجازا من إنجازاتها تم على يد فئة لم تكن أكثر من فئة وجدت على هامش الحضارة الكنعانية بالمعنى الثقافي والعرقي.[1]

واللغة العبرية ذاتها لم تكن سوى لهجة آرامية أدخلت إليها مفردات من اللغات الأخرى، ولم تصبح لغة مكتوبة أو محكية إلا في فترة المكابيين في القرن الثاني ق.م، ولم يعثر على أي نص عبري قبل هذا التاريخ (وثائق قمران)، وقد جرى تطويرها في القرن الرابع ق.م، ولم تصبح لغة كاملة إلا بعد القرن السادس

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة د. سحر الهنيدي، مصدر سبق ذكره، ص 7 .

الميلادي، وقد ظلت لغة دينية حكرا على رجال الدين، وتستعمل في الصلوات والطقوس الدينية فقط، حتى جرى إنعاشها وبعث الحياة فيها من جديد في القرن العشرين.

إذاً، فقد نشأت اليهودية حين جاء الفرس على أنقاض الدولة البابلية وأعادوا المسبيين إلى «أورشالم»، وبنوا لهم معبداً، وجعلوا منهم أداة ورأس حربة لحراسة حدود الإمبراطورية الفارسية، وتنفيذ سياستها بأدوات محلية وظفت نفسها كليا لخدمة الحاكم الجديد، إلى درجة أن التوراة اعتبرت «كورش الفارسي» هو المسيح المنتظر. ولما قضى اليونان على الدولة الفارسية أصبح هؤلاء فيلقا متقدما في الجيش اليوناني، بل إن المكابيين الذين يفتخر بهم اليهود على أساس أنهم أنشأوا دولة يهودية في القرن الثاني قبل الميلاد لم يكونوا سوى ممثلين لليونان ثم للرومان في فلسطين.

وللوصول إلى الحقيقة التاريخية لا بد لنا أنْ نتناول تاريخ فلسطين القديم كموضوع مستقل وقائم بذاته ومتحرر من قبضة الدراسات التوراتية، وليس كخلفية لتاريخ هذه الفئة، التي لم تمثل أكثر من لحظة عابرة من التاريخ الطويل لفلسطين القديمة، والتي مر عليها عشرات من الأقوام والشعوب والغزاة والطامعين، كان لبعضهم آثارا أكثر وضوحا وأهمية من آثار الوجود الإسرائيلي، أي بعبارة أخرى ليس من العدالة ولا من الموضوعية استمرار النهج التوراتي / الغربي في قراءة تاريخ هذه المنطقة، واستمرار تلك الدراسات التي أسكتت التاريخ الفلسطيني القديم، ومنعته من التعبير عن نفسه، بل وشوهته وصادرته.

وكتابة التاريخ الفلسطيني من منظار علمي موضوعي ستؤدي إلى تقويض دعامة أساسية من دعائم الصهيونية، وهي إدعاء امتلاك التاريخ القديم، وتفنيد مزاعمها وادعاءاتها الباطلة بحق احتلال الغير، وهي أيضا تعني إعادة الاعتبار لجزء مهم وأساسي من التاريخ العربي القديم.[1]

كما أن رد الاعتبار للتاريخ الفلسطيني من شأنه أن يقوض الركائز الأساسية التي تقوم عليها الدعاية الصهيونية، وبالتالي ستحرمها من استغلال البعد التاريخي

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سبق ذكره، من المقدمة.

/ الديني «عكازتا المشروع الصهيوني» التي لولاهما لبقي المشروع الصهيوني يزحف على بطنه[1]، فضلاً على أن وضوح رؤية التاريخ الفلسطيني ستؤدي إلى إنشاء أرضية صلبة تبنى عليها الحقائق التاريخية، لتكون منصّة انطلاق للمطالبة بالحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني؛ فمن دون فهمنا لتاريخنا، ومن دون إيماننا بعدالة قضيتنا لن نتمكن من إيصال رسالتنا للعالم، ولن ننتصر في معركتنا الحضارية، على الرغم من نزاهتها وعدالة مطالبها. وقديما قيل: «من يتقن فهم التاريخ، يتقن صناعة المستقبل».

ومن الجدير بالذكر أن هذه القراءة التاريخية لا تعني بالضرورة نفي التاريخ اليهودي، ومصادرة حق أيٍ كان بإتباع هذه الديانة، ولا يجب أن تكون كذلك، إذ إنها ليست مجرد رؤية طائفية ضيقة، ولا هي فلسفة فقهية/مذهبية، ولم يكن الهدف منها بأي حال وضع مقارنة من أي نوع بين الديانات السماوية، ولا تعني أيضاً مصادرة الحق الطبيعي لأيٍ كان بالحق بالعيش بحرية وكرامة، بل هي محاولة لتصحيح الفهم الخاطيء للتاريخ، الذي ارتكزت عليه الحركة الصهيونية في إقامة دعاويها، وتفنيدا لكل مزاعمها بإيجاد الصلة التاريخية بين دولة إسرائيل الحالية وبين التاريخ القديم للمنطقة، وبين التجمع البشري الذي يحكم إسرائيل وبين المؤمنين الذي اتبعوا الأنبياء من إبراهيم إلى موسى ومن بعده، لتتضح الصورة ونعلن بكل ثقة بأن التجمع البشري الذي يسكن ويحكم ويشكل دولة إسرائيل حاليا لا صلة له بما عرف تاريخيا بالموسويين، وإن كل ادعاءاتهم بالحق التاريخي إنما هي باطلة، وهُمْ مجرد أداة استعمارية وُجدت ونمت على هامش المشروع الإمبريالي / الكولونيالي العالمي ليكون رأس حربة له، وموقعا متقدما يحمي مصالحه، وينفذ سياساته، ويؤدي دوره الوظيفي كما رسم له بالضبط، وقد تم تغليف هذا المشروع بمزاعم دينية / تاريخية واهـية.

وأخيرا، تجدر الإشارة إلى أن إعادة قراءة التاريخ وتصويبه، بالإضافة إلى أنها مهمة تاريخية علمية تتطلب أقصى درجات المهنية والموضوعية، فإنها أيضا مهمة وطنية تسعى إلى تثبيت الحق التاريخي للشعب الفلسطيني في وطنه، وإعادة

1 كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سبق ذكره، من المقدمة.

الاعتبار لتاريخه المظلوم والمغيّب. ومع ذلك لا نتوقع أنه بمجرد تثبيت هذا الحق، أو كشف حجم الزيف والكذب في الرواية الإسرائيلية فإن دولة إسرائيل ستنهار؛ حيث إن إسرائيل - بعد أن استقرت وصارت من أقوى دول المنطقة – صار بإمكانها أن تقلل من اعتمادها على الشرعيات التاريخية والدينية، وأن تستند في حقها في الوجود إلى قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، والذي يعد بمثابة شهادة ميلاد هذا الكيان.

ومن ناحية سياسية فإن المعادلات الإقليمية والدولية التي بموجبها قامت إسرائيل ما زالت قائمة ومتحكمة، وما زالت إسرائيل مطلوبة دوليا وتتلقى كل أشكال الدعم، لأنها تمارس دورها الوظيفي كما هو مرسوم لها تماما. ومن ناحية قانونية، فإنها محمية بموجب القانون الدولي (بصرف النظر عن مدى عدالة هذا القانون)، ومن الصعب نزع الشرعية عنها طالما أن موازين القوى الدولية ما زالت تهيمن عليها الإمبريالية العالمية، وطالما أن العرب عاجزون عن لعب دور دولي فاعل ومؤثر.

ومع ذلك يتوجب علينا مواصلة النضال حتى النهاية؛ لأننا ومن منطلق وعينا بحقوقنا الطبيعية والتاريخية، وقناعتنا بزيف وبطلان المزاعم الصهيونية فإننا نرى نهاية هذا المشروع وانهياره الحتمي، تماما كما انهارت كل التجمعات المصطنعة والدول الكرتونية في التاريخ، لأنه ببساطة في النهاية لا يصح إلا الصحيح.

ثلاثة نماذج لقراءة التاريخ اليهودي

كل من حاول قراءة تاريخ اليهود القديم في المنطقة، سيجد نفسه أمام ثلاثة نماذج على الأقل تناولت الموضوع؛ الأول الذي يتبنى الرواية التوراتية، إما بحذافيرها، أو مع تعديلات هناك وهناك، بأسلوب السرد الملحمي الممتزج بالأسطورة، الذي يضع اليهود في صدارة المشهد التاريخي، وفي متنه، كما لو أن تاريخ المنطقة هو تاريخ اليهود واليهودية، جاعلاً ما حوله من أحداث ووقائع على الهامش، مع إبراز المأساة والتراجيديا اليهودية على نحو يثير مشاعر التعاطف معها، ويجعل من الآخرين أشرارا تناوبوا على اضطهاد اليهود، ولم يكفّوا عن محاولات طردهم ونفيهم من الجغرافيا الخاصة بهم..

ومن البديهي أن أصحاب هذه القراءة «التاريخية» هم اليهود أنفسهم، ومن اشتغل على إنجاح المشروع الصهيوني من غير اليهود، أو من وقع في شَرَك هذه القراءة.. وبتحليل معمق لهذه القراءة سنجد أنها قراءة أيديولوجية ذات أهداف سياسية، جعلت من التاريخ اليهودي أمرا لا علاقة له بالتاريخ الإنساني الدنيوي، ولا تنطبق عليه القوانين الطبيعية التي حكمت مسار تواريخ الشعوب الأخرى؛ حيث يبدأ التاريخ اليهودي بتأسيس شعب مختار بتدخل مباشر من الرب، يصل حد هبوطه إلى الأرض وتسليمه للأب المؤسس (إبراهيم) أرضا موعودة (فلسطين)، ونلاحظ هنا أن هذا الإله ترك شؤون الكون وتفرغ كليا لمتابعة شؤون هذا الشعب، وكأنه لا يوجد شعب آخر على كوكب الأرض سواهم (أي بني إسرائيل).. والمشكلة أن هذا الشعب لا يقابل المعروف بالمعروف، بل يتنكر للإله، وهذا الإله سيصبر عليهم مرة تلو مرة، ويمدهم بالمعجزات، وبحشد من الأنبياء (الذين يقتلوهم)، وينقذهم كل مرة من الويلات التي تحل بهم، رغم معاصيهم، بل ويفضّلهم على العالمين..

في الرواية التوراتية تبدأ الحكاية وتنتهي كل مرة على هذا النحو: منفى ثم عودة، المنفى يكون مصير اليهود، أما العودة فهي فعلهم الواعي.. من العبودية في مصر، ثم التغلغل في أرض كنعان والاستيلاء عليها، وتأسيس المملكة العبرانية، ثم التهجير الأشوري، والبابلي، وتليه العودة من بابل، ثم تأسيس الدولة الحشمونية، ثم هدم الهيكل على يد تيطوس، وشتات اليهود، ثم الإبادة الجماعية في العصر الحديث.. وأخيرا عودة اليهود إلى وطنهم التاريخي فلسطين..

وهنا يتم تصوير التاريخ اليهودي على أنه تاريخ متصل، لشعب مميز، تاريخ مليء بالمأساة والمعاناة والصبر والمثابرة على العودة والتعلق بالأرض..

النموذج الثاني؛ قراءة تاريخية تنفي الرواية التوراتية، وتنسفها من أساسها، مستندة في ذلك على الأحافير والأدلة العلمية والبراهين المنطقية، وهذه القراءة تطورت بشكل نوعي بدءاً من ثمانينات القرن العشرين، مع تطور أدوات البحث والتحليل، ومع الاكتشافات الأثرية التي كانت في كل مرة تفند جزءأ من الرواية التوراتية، حتى أتت عليها كلها، خاصة بعد خيبة أمل علماء الآثار «التوراتيون» الذين عجزوا عن اكتشاف حجر واحد يسند روايتهم.. ومن أبرز العلماء الذين تبنوا هذا المنهج العلمي كيث وايتلام، توماس طومسون، نيل إشر سيلبرمان، آلت، ميندنهل، ماكسويل ميللر، فرانكلن، غوتوالد، روجيه جارودي. ومن المؤرخين اليهود: ميخائيل هرسيغور، شلومو ساند، إسرائيل شاحاك، إسرائيل فنكلشتاين، موريس سترون، سيغمون فرويد، ومن المؤرخين والباحثين العرب: فراس السواح، جودت السعد، د. أحمد سوسة، سيد القمني، يوسف زيدان، د. إبراهيم الشريقي.. وغيرهم.

وما يؤخذ على هذا المنهج، أن بعض المؤرخين سعوا لإخراج اليهود كليا من التاريخ، وبالغوا في إنكار وجودهم، أو تصوروه مجرد نتوء في خط مستقيم ممتد، كما لو أنه لحظة طارئة خارجة عن السياق..

النموذج الثالث، سعى لنقل الجغرافيا اليهودية كاملة إلى منطقة أخرى، أي نقل التاريخ اليهودي بشخوصه ومدنه وقراه وأحداثه من فلسطين إلى الجزيرة

العربية، والزعم بأن اليهود لم يطأوا أرض فلسطين في تلك الأحقاب التاريخية القديمة، وإنما كان وجودهم في الجزيرة العرب، وتحديدا في جنوبها، مستندين في ذلك على عمليات نحت لغوي، ومقارنات بين أسماء المواقع التي وردت في التوراة وأسماء مناطق مشابهة في جزيرة العرب.. وأبرز من تناول هذا الموضوع كمال الصليبي وفاضل الربيعي.

في حين يتخذ المؤرخ والمفكر «عبد الوهاب المسيري» موقفا مغايرا، فهو في موسوعته المهمة يسرد أجزاء الرواية التوراتية كما هي، حتى أنه لا يعلق عليها في بعض الأحيان، لكنه لا يتبناها بالكامل، ولا ينفيها.. وفي أحداث معينة تجده يتبنى الحادثة، لكنه يقلل من أهميتها، مثلا حادثة الخروج من مصر، والتي نفاها كثير من المؤرخين يقول عنها: «وهذا التاريخ المقدس ليس له علاقة كبيرة بالتاريخ الحقيقي؛ فحادثة الخروج هذه لم تمثل حدثا يثير الاهتمام لدى المصريين، ولذا لم يأت لها ذكر في الآثار الفرعونية». (المسيري، جزء 4، ص 138)

وأيضا قصة قلعة المسادا، التي تبرزها الرواية التوراتية كمثال على الاستبسال ورفض الاستسلام، يقول عنها: «وقد أثارت قصة مسادا شكوكا كثيرة، حتى أن بعض علماء الآثار (ومنهم يهود) أكدوا أنها قصة خرافية،ـ أو أسطورة ملفقة، إذ لا يمكن البرهنة تاريخيا على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند إليها هذه القصة، والمصدر الوحيد للقصة هو «يوسيفوس»، وهو كاتب لا يعتد به كمؤرخ». (المسيري، جزء 4، ص 228)

لكنّ «المسيري» قام بثلاثة أمور في غاية الأهمية، الأول: نزع القداسة عن تاريخ اليهودية، والثاني: نزع سمة التميز والتفوق لليهود، والثالث: التمييز بين تاريخ اليهودية من جهة وتاريخ الجماعات اليهودية من جهة ثانية، وهذا بحد ذاته خلخلة للرواية التوراتية والفلسفة الصهيونية التي ترتكز على وحدة الأصل اليهودي، ووحدة التاريخ والمصير والمستقبل. قام بها المسيري ببراعة المؤرخ والأكاديمي، ونزاهة الباحث عن الحقيقة دون نزعات رغائبية، أو أحكام مسبقة.

في هذا السياق، كتب «المسيري»: «والحديث عن «التاريخ اليهودي»، أو «الأدب

اليهودي»، أو «الشخصية اليهودية»، يفترض أن العنصر الأساسي الذي يحرك اليهودي ويشكّل شخصيته هو أساسا إيمانه بالدين اليهودي، وانتمائه للتراث اليهودي.. وهذا منافٍ للحقيقة، وفيه تقليل من إنسانية اليهودي؛ فاليهودي مثل أي إنسان آخر، ظاهرة مركبة تحركه عناصر متشابكة، وليس مجرد عنصر واحد».[1]

وللتأكيد على أن تاريخ اليهودية لا يتطابق مع تاريخ الجماعات اليهودية، يضيف: «تاريخ الهند ليس تاريخ الهندوسية، وتاريخ الصين لي تاريخ الكونفوشيوسية، وتاريخ المسيحية، دينا وفلسفة وفكر، لا يتطابق وتاريخ المسيحيين، بحيث يكونان شيئا واحدا، وكذلك فإن تاريخ اليهودية يختلف عن التجارب التاريخية التي خاضتها الجماعات اليهودية في أماكن عديدة من العالم.. ولو أن الباحث جعل التاريخ اليهودي مرجعيته لعجز تماما عن تفسير الكثير من عناصر التفاوت وعدم التجانس في هذا التاريخ، مثلا اختلاف تأثر يهود بريطانيا بالثورة الصناعية، وعدم تأثر يهود أثيوبيا بها حتى الآن».[2]

ويتحدث «المسيري» عن (الماضي اليهودي) واصفا إياه: «تعبير يفترض أن لأعضاء الجماعات اليهودية ماضيا واحدا مستقلا، فإن لم يكن لهم حاضرا موحدا مستقلا، فهذا نتيجة لحادثة هدم الهيكل وشتاتهم. والمشروع الصهيوني محاولة لأن يكون لليهود مستقبل موحد. ولكن الدراسة المتأنية تبين أن أعضاء الجماعات اليهودية ليس لهم ماض موحد؛ فماضيهم في بولندا، أي تجربتهم التاريخية وموروثهم الحضاري والديني في بولندا، يختلف عن جماعة الفلاشاه، وتجربة هذين الفريقين تختلف عن تجربة اليهود في الولايات المتحدة. وليس لأعضاء الجماعات اليهودية حاضرا واحدا؛ فلكل جماعة يهودية مشكلاتها ونصيبها المختلف من الأفراح والأتراح. وتدل المؤشرات كافة على أن هذه الجماعات لن يكون لها مستقبل واحد؛ فيهود الولايات المتحدة (أكبر تجمع يهودي في العالم) يعتبرون أمريكا وطنهم القومي. وبرغم تعاطف أعداد كبيرة منهم مع إسرائيل والصهيونية، فإنهم لا ينوون الهجرة إليها، شأنهم في هذا شأن يهود أستراليا ونيوزلندا. أما يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا، على سبيل المثال، فهم

1 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، ط1، 1999، الجزء الرابع، ص 19.
2 نفس المصدر السابق، ص 17.

يواجهون مشاكل في بلادهم قد تضطرهم إلى الهجرة، ولكنهم لا يهاجرون إلى إسرائيل. بينما لا يمانع يهود الفلاشاه في الهجرة إلى إسرائيل إذ يراودهم حلم الحراك الاجتماعي. ويدل كل هذا على أن لكل جماعة يهودية مستقبلا مستقلا».

ويتابع «المسيري»: «ومع هذا، تصر الكتابات الصهيونية على تأكيد وجود ماضي ومستقبل ومصير يهودي واحد منفصل عن ماضي ومستقبل ومصير المجتمعات التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية. ولدعم هذا الرأي، تؤكد الكتابات الصهيونية أهمية النظر إلى الهجمات التي تحدث ضد اليهود، كالإبادة النازية ليهود أوروبا، بإعتبارها جزءاً من ماضٍ مشترك، ونمط متكرر لا يمكن الخروج منه إلا بالحركة المشتركة في المستقبل».[1]

ويؤكد «المسيري» أن القرآن الكريم لا يفترض استمرارية تاريخية ليهود العالم؛ لذا وردت المصطلحات غير المترادفة التي تتحدث عن اليهود، ليعبر كل مصطلح عن وضع زماني ومكاني مختلف، فالقرآن يميز بوضوح بين اليهود الذين عاشوا في الجزيرة العربية في فترة البعثة المحمدية من جهة وبين بني إسرائيل من جهة أخرى، فمصطلح بني إسرائيل جاء مخصصا للحديث عن يهود عصر موسى. (المسيري، جزء4، ص 28).

ونظرا لاختلاف الظروف الموضوعية التي اختبرتها كل جماعة يهودية، فقد نشأت توجهات يهودية مختلفة بشأن مستقبلهم ومصيرهم.. بل كان لذلك أبلغ الأثر في التكوين النفسي والاجتماعي والنتاج الثقافي لتلك الجماعات، بحيث ظهر تباين شديد الوضوح بين تلك الجماعات، مثلا اليهود في ألمانيا بسبب تاثرهم بالتطور الحضاري والعلمي هناك ظهر بينهم «أينشتاين»، لكن يهود اليمن والحبشة ظلوا بنفس مستوى التخلف السائد هناك، ولم تبرز بينهم حالات مميزة ومتفوقة.. ما ينفي عن اليهود صفة التميز والتفوق العرقي.

في سياق هذا البحث، سنحاول تقديم قراءة تاريخية موضوعية لليهود واليهودية، بمنهج نقدي، يتابع تسلسل الأحداث، مع التعليق عليها، ومقارنتها بما جاء في الرواية التوراتية.

---

1 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. ص 24.

تاريخ فلسطين في الإعلام الصهيوني والعربي

دور الإعلام الصهيوني في تعميم الرواية التوراتية

يمثل الإعلام – عادة – السلطة الرابعة في أي دولة طبيعية، ويتخذ مكانة بارزة في هيكل بناء الدول الحديثة، وقد أصبحت وسائل الإعلام بما لديها من تأثير بالغ الأهمية على حياة الناس عنصراً أساسياً وحاسماً في التعبير عن الخيارات الداخلية والخارجية للدول والمجتمعات؛ وبفضل القدرات الهائلة التي يمتلكها الإعلام في تحويل وتغيير وتثبيت الآراء والمواقف والقناعات، وصناعة الرأي العام؛ أصبح الأخذ بناصية فنون وتقنيات الإعلام أمراً ملحّاً تضعه الدول في مقدمة أولوياتها، وأصبح مستوى نجاح الدول يُقاس بمدى اهتمامها بإعلامها وقدرتها على تحديثه. وقد تعاظم دور الإعلام أكثر، وخاصة في العصر الحديث، الذي اكتسب ملامحه من تـنوع وتطور تقنيات الاتصال والإعلام، مما مكّن الإعلام من تسجيل حضوره الطاغي والمؤثر بأقصى حدود الفاعلية داخل المجتمعات وخارجها، سواء كان تأثيرا سلبيا أم إيجابيا. ومن المتوقع أنه في زمن الصراعات، أو في القضايا التي تأخذ أبعادا دولية وشعبية (مثل قضية الصراع العربي الصهيوني)، أن تزداد أهمية الإعلام، وأن يصبح أحد أهم اللاعبين على الساحة.

لذلك فإن الإعلام في (إسرائيل) شيء مختلف تماماً عن باقي دول العالم، وله دور وظيفي إضافي؛ حيث أنه يُستخدَم أداةً عسكرية، لا تقل أهمية عن أي سلاح آخر يستخدمه الجيش الإسرائيلي في حربه العدوانية على الشعب الفلسطيني والأمة العربية. ومن الجدير بالذكر أن الإعلام الإسرائيلي ما هو إلا جزء محدود من الإعلام الصهيوني، الذي يمثِّل شبكة إعلامية واسعةَ الأطراف في محيط

الإعلام الغربي.

وقد شكّل الإعلام حجر الزاوية في الإستراتيجية الصهيونية منذ نشأتها، ولعب دورا بالغ الأهمية في الترويج للفكرة الصهيونية، وخدمة أطماعها وأهدافها في فلسطين؛ ما كان له أثرا كبيرا وحاسما في تعميم الرواية الصهيونية، وكسب التأييد العالمي. وبعد قيام دولة إسرائيل أخذ الإعلام الصهيوني بعداً آخر؛ حيث اندمج بشكل كامل ومطلق بالسياسة الخارجية الإسرائيلية، التي كان هدفها الرئيسي تثبيت الكيان الصهيوني في مواجهة العرب، وتكريسه حقيقة واقعة.

وقد انتهج الإعلام الصهيوني أساليب متنوعة ومختلفة لمخاطبة العالم؛ فخاطب الناس حسب مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وحسب توجهاتهم السياسية والعقائدية، مركّزا جهوده - منذ نشأته - على مراكز الثقـل السياسية العالمية، بدءاً من أوروبا، ثم بعد ذلك الولايات المتحدة. مستخدما وسائل كثيرة ومتشعبة، ومتداخلة مع بعضها البعض، ولكن جميعها تفي بالغرض المطلوب، سواء كان ذلك بالابتزاز أم بالاستعطاف، أم بالمناورة.

وبما أن المشروع الصهيوني ارتبط منذ بدايته بالمشاريع الاستعمارية الدولية في الوطن العربي، وتبلورت ملامحه الوظيفية في إطار السياسات الإمبريالية في المنطقة؛ لذلك فإن الصراع في أرض فلسطين لم يكن صراعا فلسطينيّا إسرائيليا وحسب، بل كان ذا أبعاد إقليمية ودولية. وطالما هو كذلك فمن الطبيعي أن تسعى الحركة الصهيونية لربط نفسها بالدول الكبرى، وأن تحرص على المحافظة على علاقات خاصة ومتميزة بهذه الدول، وأن ينصبَّ اهتمام إعلامها على التأثير على الرأي العام في تلك البلدان، ليجعل من الرأي العام رافداً وداعمـاً لسياسة الدول المؤيدة للأهداف الصهيونية. وأن تعمل في نفس الوقت على فرض انتشارها وهيمنتها على وسائل الإعلام العالمية.

وكما ربطت نفسها بالدول الأوروبية في البدايات، لم تتأخر الصهيونية بعد ظهور أمريكا على الساحة كقوة عظمى بالتوجه صوبها، واقتحام ميدانها؛ فتمكنت من السيطرة شبه الكاملة على وسائل الدعاية والإعلام هناك، بما تملكه

من نفوذ مالي وسياسي، وأصبحت الدعاية الصهيونية صاحبة اليد العليا في الغرب الأميركي، من والت ديزني إلى هوليوود؛ حيث ازدهرت الرواية اليهودية، بفعل الصحافة والتلفزيون والسينما، ومراكز الأبحاث ودور النشر والتوزيع، التي كانت جميعها تخضع لسيطرة منظمات صهيونية. كما استحوذ النفوذ الصهيوني على الهيئات التي تمنح الجوائزَ الأوروبيةَ والعالمية، فقام بممارسةِ الضغوط عليها لمنح جوائزها لمؤيديها، وفي الحالات التي كان يفشل في مسعاه، كان يقوم بافتعال ضجة من الدعاية المضادة.

وقد وصل حد السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام الغربية في أوروبا وروسيا والولايات المتحدة، أن أي صوت يناهض الصهيونية يكون مصيره التشهير، كما حدث مع المفكر الفرنسي المسلم «روجيه غارودي»، والعالم الأمريكي «توماس طومسون»، وغيرهما الكثير. وهناك الكثير من الصحف والمجلات الكبرى أذعنت صاغرةً لنفوذ الصهيونية، وأصبح رؤساؤها والقائمون عليها هم أنفسهم أبواقا للصهيونية، بعد أن كانوا معارضين لها. وقد استغلت الصهيونية في حربها الدوغمائية هذه الشعار التضليلي الشهير «معاداة السامية». حتى أن الفاتيكان نفسه لم يَسْلم من حملات الدعاية المضادة، من أجل انتزاع اعتراف رسمي بأخطاء الكنيسة بشأن المحارق النازية، بالإضافة إلى المحاولات الخاصة بإبعاد الفاتيكان عن المشاركة في مفاوضات الوضع النهائي للقدس، والمفارقة العجيبة هي أن الفاتيكان الذي كان قديما يوزِّع صكوك الغفران، أصبح - بفضل الدعاية الصهيونية- يطلب الغفران.[1] فمثلا البابا بولس الخامس (1964) برّأ اليهود من دم المسيح.

وفي بحثها عن ضمانات إضافية إلى جانب الاعتراف الدولي بها والدعم المباشر الذي تتلقاه، وجدت إسرائيل ضالتها بضرورة خلق إحساس لدى الرأي العام الغربي بأن أمن مصالحه وتقدمه يرتبطان إلى حد كبير ببقاء الكيان الصهيوني والمحافظة عليه، ولذلك تمثلت أهداف الإعلام الصهيوني بتحشيد الرأي العام في الغرب خلف الرواية الإسرائيلية، وزرع القناعة في الوعي الغربي بأهمية

1 د. محمد علي حوات، الإعلام الصهيوني وأساليبه الدعائية، وأساليبه الدعائية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2006.

وجود إسرائيل على أنها تمثل «واحة للديمقراطية» في «صحراء التخلف العربي»، وأهميتها في الدفاع عن الحضارة والمصالح الغربية، وتشويه صورة العرب وصورة الفلسطينيين، وقلب الحقائق وتزييفها، بحيث يتحول الجلاد إلى ضحية، والإيحاء للعالم باستمرار عداء العرب لإسرائيل، وأن الدول العربية تريد إبادة الشعب اليهودي وإزالة إسرائيل من الوجود.[1]

وعملية تأليب الرأي العام العالمي ضد العرب والفلسطينيين، وتشويه صورتهم، وتزييف حقيقة عدالة قضيتهم، هي سياسة تتم صياغتها بعناية فائقة من قبل الإعلام الإسرائيلي، الذي يقوم عليه ساسة ورجال مخابرات وأكاديميون وعلماء نفس ومتخصصون بالحرب النفسية، ليخدم جملة من الأهداف الإستراتيجية، أهمها إضفاء الشرعية على الممارسات الحربية واستخدامها القوة المفرطة ضد المدنيين، بذريعة الدفاع عن النفس ضد الأخطار التي تزعم أنها تتهددها. ولم يكن التأليب ضد الفلسطينيين موجها نحو الغرب فقط، بل كان أيضا – وبدرجة كبيرة – موجها للداخل الإسرائيلي؛ فقد دأب الإعلام الصهيوني على تلقين الذهن اليهودي بعقدتي الخوف من العرب وادعاء التفوق التكنولوجي والقيمي عليهم، وتحويل عقدة الخوف من العرب إلى أسطورة تهدف إلى تنمية الشعور بالحقد والكراهية ضد كل ما هو عربي.[2]

ومؤخرا، ونتيجة لاهتزاز صورة الكيان الصهيوني في أكثر من مكان في العالم، بسبب ممارساته القاسية ضد المدنيين، وبسبب تعنت الحكومة اليمينية وإخفاقها في تحقيق أي تقدم في المسيرة السلمية، رأت الحكومة الإسرائيلية ضرورة إعادة ترميم تلك الصورة بمساعدة وسائل الإعلام الغربية، بتقديم المسوغات اللازمة لتبرير ما تقوم به من ممارسات لمواجهة العنف الفلسطيني كما تسميه، فقامت الحكومة الإسرائيلية بتوجيه دعوات لكبار للمشاهير والفنانين والصحفيين الذين لهم حضور قوي في بلدانهم على نفقتها ضمن برنامج تم إعداده مسبقاً، وتعمل على إعادة صياغة نظرتهم للأمور وفقاً لمنظارها، وترتب لهم لقاءات مع

1 حسين قبلاوي، الإعلام في الإستراتيجية الصهيونية، صحيفة البعث السورية، 2003/3/8، المركز الفلسطيني للإعلام.
2 حسين قبلاوي، الإعلام في الإستراتيجية الصهيونية، مصدر سبق ذكره.

عائلات القتلى الإسرائيليين الذين سقطوا في العمليات التفجيرية، لممارسة نوع من الضغط والتأثير المعنوي عليهم، ومن ثم عكسه من خلالهم على الجمهور في بلدانهم، دون أن تأخذ رؤية الجانب الآخر من الصراع بعين الاعتبار.

والنجاح الكبير الذي أصابه الإعلام الصهيوني بشكل عام يُعد دليلا واضحا على فعالية أساليبه، وعلى أن المنظمة الصهيونية هي من الحركات القليلة في هذا العالم التي أحسنت استخدام سلاح الإعلام، بل وبرعت فيه، وسخّرته لكي يصبح أداة قوية بيدها، تؤثر من خلاله وبواسطته على العالم.

ولم يكن الإعلام الصهيوني موجها للعالم الخارجي وحسب، بل كان مركزا وعلى نفس القدر من الأهمية نحو «الداخل اليهودي»، وقد أدركت المنظمة الصهيونية مدى أهمية تأييد ومشاركة يهود العالم في مشروعها، بل واعتبرت أن عزوفهم عن ذلك سيوجه ضربة قاتلة لهذا المشروع في مهده؛ لذلك أعطت هذا الجانب ما يستحقه من اهتمام، وقد عرفت الدعاية الصهيونية كيف تخاطب اليهود في الشتات؛ وإقناعهم بأن المنظمة الصهيونية تمثلهم، وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين، بوصفها ملاذهم الأخير، وأنها تجسد الوطن القومي لجميع اليهود في العالم، رغم أن معظم الجاليات اليهودية لم تكن تتعرض حينها لأي تهديد. كما عملت أيضا بأسلوب بارع وذكي على إقناع الشعوب والدول التي عاشوا فيها بعدالة مطالب الصهيونية في إقامة وطن قومي لليهود فوق أرض فلسطين، وإقناعهم بالرواية اليهودية لتاريخ المنطقة.

ومن الجدير بالذكر أن «نابليون» كان أول من حاول استخدام وسائل الدعاية الإعلامية لإيقاظ الوعي الأسطوري عند اليهود، بإحياء ما يسمى «حق العودة إلى أرض الأجداد»، من خلال ورقته اليهودية التي تحث يهود الشتات على العودة إلى فلسطين عندما وصل بجيوشه إلى أسوار عكا، بعد استيلائه على القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر، وكان هذا لخدمة أهدافه الاستعمارية التوسعية.

وفيما بعد بدأت الكتب، تلعب دورا مهما في إيقاظ ما يُسمى بالوعي اليهودي، والقومية اليهودية، ولفْت أنظار اليهود (خاصة في روسيا وأوروبا) بأهمية قيام دولة تجمعهم، خاصة بسبب الظروف الصعبة التي يعيشونها؛ منها على سبيل المثال كتاب (روما والقدس) لمؤلفه «تسيفي هرش» (1862)، وكتاب (التحرر

الذاتي) لِـ«ليوبينسكر» (1890)، و كتاب (الدولة اليهودية) لِـ«ثيودور هرتزل» (1895). وهي كتب تؤصل للإنعزال والعزلة وتؤكد على صعوبة اندماج يهود العالم، وتدعوهم إلى الهجرة إلى فلسطين واحتلالها؛ وتنادي بفلسطين وطنًا قوميًّا ليهود العالم، وتحرض اليهود على إيجاد حلٍّ للخروج من حالة الاضطهاد والجيتو التي يعيشونها في أوروبا.[1]

1 د. محمد علي حوات، الإعلام الصهيوني وأساليبه الدعائية، مصدر سبق ذكره.

دور الإعلام الفلسطيني

في تقديم الرواية التاريخية

في مقابل الإعلام الصهيوني، يثور السؤال المهم: هل قام الإعلام الفلسطيني والعربي بواجبه كما ينبغي، في الرد على الرواية الإسرائيلية وتفنيدها، وبتوضيح أبعاد القضية الفلسطينية، وإقناع العالم بعدالتها وبمشروعية مطالبها؟ في الحقيقة تصعب الإجابة بكلمة واحدة (نعم، أو لا)؛ ذلك لأن للموضوع أبعادا وتعقيدات أكثر مما تبدو عليه الصورة بشكلها المبسط.

بداية، لا بد من التوضيح بأن الإعلام الصهيوني كان قد بدأ معركته في وقت مبكر جدا من تاريخ الصراع؛ لا بل أنه بدأ بنفس المسار والتوقيت الذي بدأت فيه الدوائر الصهيونية والاستعمارية الأخرى بالعمل. في حين أن الإعلام الفلسطيني ظهر بشكل قوي ومؤثر لأول مرة بعد انطلاقة الثورة الفلسطينية، أي أنه متأخر زمنيا بفترة ليست قليلة عن الإعلام الصهيوني، بينما الإعلام العربي الرسمي وإن كان موجودا بأشكال عديدة منذ بدايات الصراع، إلا أنه ظل محكوما بمحددات معينة كانت تكبله وتمنعه من إيصال صوته للعالم، أو من نقل الرسالة الصحيحة بالشكل والتوقيت الصحيحين.

والإعلام العربي (وحتى الفلسطيني) لم يكن على شاكلة الإعلام الصهيوني موحدا ومنسجما ومعبرا عن تيار فكري وسياسي واحد؛ بل جاء بتركيبة متنوعة وأحيانا متناقضة، تعكس التنوع والاختلاف والتعدد في الساحة العربية فكريا وسياسيا وأيديولوجيا. وبسبب هذا التنوع كانت تصل للعالم رسائل متناقضة ومتضاربة، أو مشوشة على أحسن تقدير.

وأخطر ما في الموضوع أن بعض المدارس الإعلامية العربية كانت تلتقي وتتناغم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مع الأطروحات الصهيونية؛ وكان هذا واضحا

في نقل الرواية الدينية لتاريخ فلسطين وتاريخ اليهود تماما كما هو في الرواية التوراتية الإسرائيلية، الأمر الذي منح هذه الرواية مزيدا من نقاط القوة، وأخَّـــرَ سقوطها ردحا من الزمن، فنجد مثلا أن المناهج الدراسية لتاريخ فلسطين القديم تتطابق مع الرواية التوراتية من حيث أصول اليهود التاريخية، وعلاقاتهم بالأنبياء خاصة إبراهيم وإسحاق ويوسف وموسى وداوود وسليمان، وقصة المملكة الموحدة، ونقاء الجنس اليهودي، وعلاقتهم بفلسطين، وطرد الرومان لهم، وعلاقتهم بدولتي إسرائيل ويهوذا .. إلخ.

وهذه النقاط ليست موجودة فقط في المناهج الدراسية، بل هي في صلب الخطاب الإعلامي لجماعات الإسلام السياسي، وهي مترسخة بشكل غريب في أذهان الكثير من الإعلاميين والكتّاب والمثقفين، وقلّما تجد مثقفا أو إعلاميا لديه فكرة واضحة عن تاريخ المنطقة القديم، دون أن يكون متأثرا بالروايات الإسرائيلية !!

النقطة الثانية التي يلتقي فيها الإعلام الصهيوني مع بعض وسائل الإعلام العربية، هي تفسير أسس وركائز الصراع العربي الصهيوني؛ فنكاد نرى اتفاقا بين الطرفين على تصوير الصراع بأنه صراع ديني. فكما يخدم هذا الطرح الإستراتيجية الصهيونية ويقدم لها الأدوات والتسهيلات التي لم تكن تحلم بها، نجد أن بعض حركات الإسلام السياسي تتفق تماما بأيديولوجيتها وخطابها الإعلامي مع هذا الطرح. وهذا بالطبع، لا ينفي أن المرجعية الدينية للصراع، وبغض النظر عن مدى علميتها، هي أحد أهم مرجعيات الصراع العربي الصهيوني.

ما عدا ذلك (تقريبا) نجد أن الإعلام العربي بذل ما بوسعه لفضح الممارسات الإسرائيلية، ولتدعيم وجهة النظر الفلسطينية، وتحريض الجماهير العربية لنصرة الحق الفلسطيني، أو لتوعيته بالقضية وبأبعادها. وإن كان هناك بعض التقصير، أو نقل الصورة بشكل غير صحيح، وأحيانا نقلها مشوهة، كانت تضر أكثر مما تفيد. ومع ذلك لا يسعنا إلا أن نسلّم بصدق النوايا وإخلاصها، واجتهادها أنها تعمل ما تراه صائبا.

وفي هذا الفصل يصعب إجراء تحليل موسع ودقيق لواقع الإعلام العربي والفلسطيني بشأن الصراع العربي الصهيوني والبعد التاريخي للصراع، ذلك لأن تحليل من هذا النوع يتطلب دراسات متخصصة، وهذا قد يبعدنا عن موضوعنا، ولكن مع ذلك لا بأس من إلقاء نظرة سريعة وخاطفة على الإعلام الفلسطيني، ورصد بعض النقاط المتعلقة بالجوانب التاريخية للصراع.

في بدايات القرن العشرين كان الشكل الأهم والأبرز - وربما الوحيد - لوسائل الإعلام هو الصحف والمجلات، وقد ظهرت أول صحيفة عربية في فلسطين عام 1921، خلال الأيام الأولى للانتداب البريطاني، وكانت تدعى «لسان العرب»، وقد جاءت عقب صدور حوالي 30 نشرة صحفية (غير يومية) ظهرت خلال الأيام الأخيرة من العهد التركي.

وخلال سنوات الأربعينيات من القرن الماضي ظهرت ثلاث صحف يومية، وعشر صحف أسبوعية، وخمس مجلات دورية، كانت جل تركيزها إبراز الحق الفلسطيني، ومناهضة المخططات الصهيونية. ومنذ أواخر الستينات، ظهرت ثلاث صحف فلسطينية أخرى، كان أولها صحيفة «القدس»، إلى جانب صحيفتي «الشعب» و»الفجر».[1]

وقد واجه الإعلام الفلسطيني عموما في فترة الاحتلال الإسرائيلي صعوبات وتحديات جمة؛ من أبرزها الرقابة الإسرائيلية الصارمة المعيقة للكتابة وللإنتاج والتوزيع وحتى لقراءة الصحف، وحتى أنها كثيرا ما كانت تلجأ لاستغلال إعلانات النعي وبرقيات العزاء للتعبير عن مواقف سياسية تحريضية معينة، رغم أنها ظلت بصورة عامة أقل عنفا وأكثر تحفظا من الصحافة الفلسطينية في المنفى. ومع ذلك كانت توصف بأنها «محامي سياسي» للقضية الفلسطينية، حيث انعكست فيها المواقف والاتجاهات السياسية سواء في تعليقاتها أو في مواد أخبارها، أو في مقالاتها وإعلاناتها حتى في الكلمات المتقاطعة.[2] كما يمكن التعرف إلى محورها السياسي المؤيد للنضال الوطني، والداعم لمنظمة التحرير

1 دوف شيناور، داني روبنشتاين، الصحافة الفلسطينية تحت الاحتلال، ترجمة كمال أبو سماحة، منشورات دار الكرمل – صامد، ط1، عمان 1988. ص 10 – 12.

2 دوف شيناور، داني روبنشتاين، الصحافة الفلسطينية تحت الاحتلال، مصدر سبق ذكره. ص 8.

الفلسطينية، والمنسجم مع مواقفها السياسية وتوجهاتها النضالية.

بعد تأسيس السلطة الفلسطينية، صدرت إلى جانب صحيفة القدس، كل من صحيفتي الأيام والحياة الجديدة، بالإضافة إلى افتتاح إذاعة صوت فلسطين الرسمية، وتلفزيون فلسطين. فضلا عن انطلاقة عشرات محطات الإذاعة والتلفزيون الخاصة، وعشرات الصحف والنشرات والمجلات الدورية. ويمكن القول إن الإعلام الفلسطيني في عهد السلطة الوطنية اكتسب انطلاقة جديدة مختلفة لها سماتها وخصائصها. وصار يتضمن تعبيرات وتحليلات واضحة ومباشرة عن الموقف الفلسطيني من الصراع، وما يتفرع عنه من قضايا عديدة ومختلفة، وإلى حد كبير دون خوف من مقص الرقيب، أو من ردة الفعل الإسرائيلية؛ لا بل إن الإعلام الفلسطيني أصبح تحريضيا، لدرجة أن سلطات الاحتلال قامت بتفجير مقرات الإذاعة والتلفزيون التابعة للسلطة الفلسطينية، ومصادرة معداتها أكثر من مرة. وأيضا مداهمة الكثير من المحطات الإذاعية والتلفزيونية الخاصة. فضلا عن ممارساتها القمعية ضد الصحافيين.

إلا أن إجراء مقارنة بين الإعلام الفلسطيني والإعلام الصهيوني مسألة غير عادلة؛ نظرا للفروقات الهائلة في الإمكانيات وحجم الانتشار وقوة التأثير. ومع ذلك يمكن المجازفة بالقول بأن الإعلام الفلسطيني نجح إلى حد كبير (نسبيا) بنقل الرسالة الفلسطينية للعالم، ونجح بإحداث نقلات نوعية في الوعي الوطني، ونجح في تحريض الجماهير على النضال من أجل حريتها واستقلالها الوطني. وهناك نجاحات فردية عديدة سجّلها إعلاميون وكتّاب ومثقفون فلسطينيون، تمكنوا من اختراق الساحة الدولية، وكسر الاحتكار الإسرائيلي للفضاء الإعلامي العالمي.

لكن نقل معاناة الفلسطينيين، وإيصال صوتهم للعالم، والتأثير على الرأي العام العالمي، وكسب التأييد الدولي، وفضح الممارسات الإسرائيلية.. وغير ذلك لم يكن نتيجة جهد الإعلام الفلسطيني أو العربي، ولا بسبب حيادية ومهنية الإعلام الغربي، إنما جاء بسبب القوة الأخلاقية التي تتمتع بها القضية الفلسطينية، ووضوح عدالتها ومشروعية مطالبها، ونتيجة الصمود الفلسطيني والتضحيات

الغالية التي قدمها الشعب الفلسطيني من ناحية، وبسبب التعنت الإسرائيلي والممارسات الوحشية من ناحية ثانية، وهي التي كانت بحد ذاتها تفضح الوجه الحقيقي للحركة الصهيونية.

كما لعبت المحطات الفضائية العربية، خاصة الوثائقية والإخبارية، دورا مهما في تدعيم الرواية الفلسطينية، وكشفت الكثير من حقائق الصراع، وقامت بتغطية الأحداث على نحو يظهر الوجه الحقيقي لإسرائيل، إضافة إلى تسليط الضوء من خلال برامج وثائقية على خلفيات الصراع التاريخية، وإن كانت هذه البرامج لم ترقَ إلى المستوى المطلوب.

أما كشف زيف الرواية التوراتية وتفنيدها، فقد جاء ثمرة جهود مضنية قام بها علماء آثار وعلماء أنثربيولوجيا ومتخصصون بدراسة تاريخ المنطقة على مدى عقود طويلة، وكان للإعلام العربي والغربي على حد سواء دورا في إظهار هذه الحقائق.

ولكن مما يؤسف له أن بعض مراكز الأبحاث العربية (والعالمية أيضا) وكثيرا من الكتب والمطبوعات التي تناولت تاريخ فلسطين القديم، ما زالت متأثرة بشكل أو بآخر بالرواية التوراتية، على الرغم أن البعثات العلمية قد فندتها وأسقطتها حجرا حجرا، وسطرا سطرا. وقد آن الأوان للمؤرخين أن يعيدوا الاعتبار للتاريخ الفلسطيني، لأنه التاريخ الحقيقي لكل ما جرى على أرض فلسطين طوال آلاف السنين الماضية.

الفصل الأول

الأسطورة التوراتية، وتاريخ ما قبل اليهودية

الفصل الأول: الأسطورة التوراتية

(فَوَيْلٌ لِلّذينَ يَكْتُبونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولونَ هَذا مِنْ عِنْدِ اللهْ لِيَشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْديهِمْ وَويلٌ لَهُمْ مِمّا يَكْسِبونْ).[1]

الخلفية التاريخية للتوراة:

سيظهر لنا فيما بعد، وفي سياق هذه الدراسة أن التوراة (العهد القديم والتلمود) كانت قد كُتبت، أو بعبارة أدق أُلّفَتْ على يد مجموعة من الكهنة في بابل في النصف الأخير من الألف الأولى قبل الميلاد، وتحديدا بعد السبي البابلي، وهؤلاء الكهنة هم الذين سيؤسسون لديانة جديدة كليا، ستُعرف لاحقاً بالديانة اليهودية – نسبة للإله يهوه - وسيتصدى النص التوراتي لسرد أحداث كانت قد حدثت قبل فترة طويلة جدا من تدوين هذا النص، وستتناول هذه التوراة قصة أصول إسرائيل، من خلال سرد حكاية عائلة تهيم على وجهها انطلاقا من مدينة «أور» على الفرات الأدنى، لتشكل الجذور التاريخية لبني إسرائيل، ومن ثم تحاول هذه التوراة الربط ما بين هذه العائلة وبين مملكة إسرائيل، التي ستظهر للوجود لأول مرة في التاريخ في القرن السابع قبل الميلاد، وستسعى لتأسيس «الشعب اليهودي» وأسطورة الشعب المختار، وأرض الميعاد، وتوليف رابط ما مع كل الشخصيات الاعتبارية في التاريخ القديم من أنبياء وأبطال شعبيين وحكماء.

في الثقافات الأخرى، كان من الممكن أن تتوقف الأسطورة عند نقطة توضيح كيفية ظهور الشعب بشكل استثنائي وإعجازي وحسب، لكن التوراة كان ما

1 البقرة 79

يزال أمامها مهمة سرد تاريخ حافل بالبطولات والانتصارات، والنكسات غير المتوقعة، والمعاناة الجماعية، وصولا لإنشاء إمبراطورية عظيمة، ثم انهيارها وتشتت شعبها. والفرق الآخر بين نمط الرواية التوراتية وباقي الروايات الأسطورية للشعوب والثقافات الأخرى في الملاحم الدينية، هو أن الإله كان إذا هُزم أمام جيش آخر، تنتهي طائفته، وتُختم الرواية؛ أما إله الإسرائيليين فهو لا يقبل الهزيمة، حيث نراه تجلى بقوة وعظمة أكثر بعد خراب الهيكل، بل إن هزائم الإسرائيليين كانت حيلة من الإله حين أراد أن يعاقب اليهود على خطاياهم بأن سخر الشعوب الأخرى لهذا الغرض.[1]

وسيتضح لنا على ضوء المعلومات الجديدة المتوفرة خلال الربع الأخير من القرن العشرين أن تاريخ إسرائيل التوراتية ما هو إلا أخيولة أدبية تجد دوافعها وسياقاتها ومناخاتها الاجتماعية والنفسية ضمن نفس الحقبة والبيئة التي أُنتجت فيها[2]، وأن التراث الذي استمدت منه المصادر الوثائقية كان في الأصل مرويات شفوية، ومجموعات من القصص التي تألفت من الحكايا الشعبية والأساطير والملاحم، وهذه الحكايات وإن كان في بعضها ما له علاقة بالتاريخ، فإن أكثرها تنتمي إلى عالم الخيال[3]، وهذه الأساطير هي خلاصة عدة ثقافات جُمعت بشكل غير متجانس، مما يدل على تنوع مصادرها واختلاف مبدعيها، وتمايز بيئاتها الجغرافية والاجتماعية، وهي تعبر عن صورة التفكير لدى شعوب وادي الرافدين والهلال الخصيب في ذلك الزمن.[4]

وقد حاول محررو التوراة توظيف هذه الأساطير في قالب شبه تاريخي لخلق ماضٍ متخيل لما أطلقت عليه تسمية شعب إسرائيل. المفكر المصري «يوسف زيدان» يؤكد تأثر محرري التوراة بالأفكار والأساطير الشعبية التي كانت سائدة في عصرهم؛ فيقول: «إن فكرة النبوة في أساسها عبرانية الروح والمنشأ، جلبها اليهود إلى نصّهم المقدس، استنادا إلى موروث شعبي شفاهي سابق على تدوين

1 إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع، ط2، 2006، دمشق. ص 34-33.
2 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 7.
3 توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح سوداح، بيسان للنشر، بيروت 1995، ص 12.
4 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع، عمان 1998 ط 1 ص 23.

التوراة، وامتدادا لما كان معروفا في تلك الحقبة (فترة الأسر البابلي) حيث انتشرت من قبلهم أفكار مماثلة عن أنبياء الفرس القدماء مثل زرادشت، ولكن اليهود توسعوا في الأمر، وجعلوا النبوة على هيئة سلسلة متوارثة تربطها صلة الدم، فمن إبراهيم إلى إسحق إلى يعقوب إلى يوسف تأسست النبوة اليهودية على صلة القرابة، وفي الزمن اليهودي المتأخر صارت النبوة حكرا على الرجال من ذوي الأصول اليهودية فقط، ولا سبيل لظهورها في غيرهم من الأمم».[1]

وبالتالي، فإن التوراة من حيث شكلها ومضمونها ودافع كتابتها تنتمي إلى جنس كتابي يمكن وصفه بالجمع التراثي الذي لا علاقة له بالجمع التاريخي، والمصدر الأساسي للنص التوراتي هو الحكايا الشعبية والملاحم وقصص البطولة المتداولة، فضلا عمّا تحويه المسلات والمدونات الأثرية السومرية والبابلية والكنعانية والمصرية والشرائع القديمة، وهي التي جرى التقاطها وإعادة صياغتها، بما يخدم رؤية أيديولوجية محددة تتماشى مع مصلحة محرري هذا النص.

والتوراة لا ترى من أحداث العالم المحيط بها إلا ما يتعلق بيهوذا ومجالها الضيق، وأخبار ملوكها وقصصهم، وعلاقات الرضا والغضب بينها وبين إلهها، الذي هو أيضا لم يكن مهتما إلا بهذه الفئة القليلة التي رفضته عبر تاريخها، وقد ترك هموم الكون بأسره وتفرغ لبني إسرائيل! ومع هذا فقد ينضوي هذا الشكل الأخيولي الأدبي على بعض الأحداث التاريخية التي حدثت بالفعل، أو التعرض لبعض الشخصيات الحقيقية، ولكن لا هذه الأحداث ولا تلك الشخصيات لها علاقة بما يسمى بالتاريخ اليهودي، وإن فكرة التواصل التاريخي اليهودي وتسلسل الأحداث لا تغدو كونها أسطورة. أي أن التوراة لم تكن تاريخا تحول إلى خيال؛ بل خيالاً جرى تحويله إلى تاريخ.

وللتأكيد على أن التوراة التي يعتمدها اليهود حاليا لم تدون في زمن «موسى»، بل كُتبت على مراحل، وفي أماكن متفرقة، وبعد موسى بقرون عديدة، كتب «سيد القمني» عن هذا الموضوع:

«جاء في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس الصادرة في عام 1960، ما

1 يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، ط3، 2009، القاهرة. ص 88.

نصه: «ما من عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف حتى على وضع النص، لأن ذلك النص كتبه عديدون من بعده، في العصور التالية». والتوراة نفسها تؤكد لمن يبحث فيها عن شواهد تنفي أي صلة لموسى بما جاء فيها؛ فمثلا وردت عبارة (ولم يظهر نبي مثل موسى – تثنية 34:10) وهذا نص يشير إلى أن كاتبه يعلم بوجود أنبياء بعد موسى. وهناك آية تتحدث عن وفاة موسى (ومات هناك عبد الله موسى في أرض مؤاب – تثنية 34:5) وبالطبع يستحيل أن يصف موسى موته ومكان دفنه. وهناك أسماء لمواضع جغرافية في فلسطين يستحيل أن يعرفها موسى الذي لم تطأ قدميه أرض فلسطين، بل أن أسماءً لبعض المواقع لم تكن موجود زمنه، إنما ظهرت بعدة بعدة قرون مثل دان ويائير (القضاة 10:14). وهناك خطأ فادح في قصة يوسف، حيث جاءت تسمية «أرض العبريين» (تكوين 40:15)، وهي تسمية لم تكن معروفة ذلك الزمن، بل كانت تسمى أرض الكنعانيين، أو أرض الفلسطينيين باعتراف التوراة نفسها. وفي سفر التكوين وردت عبارة (قبل أن يملك ملكٌ من أبناء إسرائيل – تكوين 36:31)، وهي جملة لا يكتبها إلا شخص عاش بعد موسى بقرون، أي في زمن مملكة إسرائيل.

وعلى مثل تلك الأخطاء الواضحة اعتمد كثير من المؤرخين في تأكيدهم على أن التوراة كتبت بعد موسى بزمن طويل؛ مثلا «توماس هوبز» (1588~ 1679م)، نفى أي علاقة بين موسى والتوراة. و«باروخ أسبينوزا» (1632~ 1677م) قال أن عزرا هو الذي كتب العهد القديم من سفر التكوين حتى سفر الملوك الثاني، وذلك في القرن الخامس ق.م. وأيضاً «جاك أوستراك» (1684~1766م) الذي اكتشف روايتين متناقضتين في سفر التكوين».[1]

ومن خلال هذه الدراسة سيتضح لنا أن جميع المحاولات التوفيقية للربط ما بين النصوص التوراتية وبين حقائق التاريخ دخلت مرحلة الانهيار والتي ما زالت متواصلة حتى اليوم[2]. وأن المعلومات الأركيولوجية الجديدة تدحض نظريات وجود إسرائيل القديمة، وتؤسس لأرضية صلبة تمكننا من وضع حد واضح

1 سيد القمني، إسرائيل التاريخ، التوراة، التضليل، دار قباء، ط1، القاهرة، 1998. ص 27~ 30.
2 توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح سوداح، بيسان للنشر، بيروت 1995.

فيما بين إسرائيل التاريخية وبين إسرائيل التي تصورها لنا التوراة، أي استقلال الصورة التاريخية عن الصورة التوراتية استقلالاً يدفع العديد من المؤرخين الجدد إلى وضع الرواية التوراتية بكاملها على الرف.[1]

ومع ذلك، سوف نعتمد على التوراة نفسها في عرض رواية التاريخ الإسرائيلي، ومن المفيد هنا أن نذكر بأن القسم الأول من التوراة يتكون من الأسفار الخمسة: التكوين، الخروج، اللاويين، العدد وأخيرا التثنية[2]، ثم سنتتبع القصة التوراتية وفق التحقيب الزمني المستمد من التوراة نفسها، والذي يقسم القصة إلى العــصور التالية:[3]

1. عصر الآباء
2. العبودية في مصر والخروج منها
3. اقتحام كنعان وعصر القضاة
4. المملكة الموحدة ثم انقسامها .

ثم سنقدم النقد النصي والتاريخي للرواية اليهودية كما وردت في أسفار التوراة، حتى لو لم يرد نص الأسفار نفسها في هذا الكتاب، إلا أننا أوردنا مقتطفات مختصرة منها بالقدر الذي يفيدنا في تبيان الحقيقة التاريخية. ومن الجدير بالذكر أن القراءة النقدية لهذه الأسفار مأخوذة من كتابي الباحث السوري فراس السواح: «آرام دمشق وإسرائيل»، و «الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم».

ثم سنحاول إلقاء الضوء على المرحلة التي نشأت فيها الديانة اليهودية ودراسة البيئة التي أنتجتها، وبعد ذلك ستبرز أهمية توضيح الفرق بين مصطلحات حاولت الدعاية الصهيونية الخلط فيما بينها لتعبر عن شيء واحد، ولتشويش الصورة، وتكريس حالة الغموض والالتباس التي طبعت نظريات التأريخ اليهودي، هذه المصطلحات هي: 1. العبرانيون. 2. الإسرائيليون. 3. الموسويون 4. اليهود.

---

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل،.من المقدمة.
2 إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، مصدر سبق ذكره، ص 29.
3 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل،.مصدر سبق ذكره، ص 28.

أولاً: عصر الآبـــاء

(يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجّونَ في إِبْراهيمَ وَما أُنْزِلَتْ التّوراة وَالإِنْجيل إلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونْ[1])

(مَا كانَ إِبْراهيمُ يَهُودِياً وَلا نَصْرانياً ولِكنْ كانَ حَنيفاً مُسْـلِماً وَما كانَ مِنَ المُشْـرِكينْ[2])

إبراهيم الخليل

يتفق الكثير من المؤرخين على أن إبراهيم الخليل وُلد في العام (1850 ق. م)[3] في «أور» جنوب العراق من قبيلة عربية سامية زمن الملك نمرود الجبار في عهد سلالة بابل الأولى (السلالة الأمورية)، وقد مكث في أهله يدعوهم إلى ديانة التوحيد، حتى حاربوه وأجبروه على الرحيل، فما كان منه إلا أن هاجر من بلده إلى «حَـرّان» بأقصى شمال الشـام عام (1805 ق.م) ومن ثم إلى فلسـطين، حيث اسـتقر به المقام ما بين الخلـيل وبئر السـبع بعـد مـروره بشـكيم (نابلس) وأورشالم (القدس).

ويقول المؤرخون التوراتيون أن إبراهيم كان له زوجتان: الأولى «سارة» التي حملت في أواخر عمرها بإسحاق، والثانية جاريتها المصرية «هاجر» التي أنجبت له إسماعيل عام (1794 ق.م)، ولكن السياسة الأيديولوجية للكتاب المقدس تستبعد «إسماعيل» من التركة المقدسة، حيث تشير الرواية أن «سارة» طلبت منه أن يرحل مع زوجته الجديدة وابنه إلى أم القرى (مكة المكرمة)، حيث أسكنهم

1 آل عمران 65
2 آل عمران 67
3 أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للإعلان والنشر.ط6، 1984، دمشق، ص 480.

هناك، أما سارة «زوجته الأولى» فقد أنجبت له الولد «الحر» إسحق عام (1780 ق.م) والذي بدوره تـزوج من ابنة خالته «رفـقة» التي أنجبت له «العـيس» أو «عيسو» حسب التوراة، و «يعـقوب» عام (1750 ق.م). ومرة أخرى تتم الغربلة، فيُستبعد «العيس» ذو السلف الأدومي البعيد، ويبقى «يعقوب» وحده في المصفاة.

يعقوب[1]

ويتابع المؤرخون التوراتيون القصة: يحمل يعقوب في شبابه اسم «إسرائيل»[2] (لتحميله مهمة تأسيس بني إسرائيل)، ثم يتزوج يعقوب من ابنة خالته «رفقة»، ويهاجر معها إلى حران في أقصى شمال الشام، وهناك أنجبت له أحد عشر ولدا، أما الثاني عشر «بنيامين» فقد وُلد بعد عودة العائلة إلى فلسطين، ليعيشوا معاً أحداث قصة يوسف بتفاصيلها المعروفة، والتي في سياقها حدث القحط الكبير والمجاعة، التي دفعت بيعقوب وذريته (الأسباط الاثنا عشر) للهجرة إلى مصر، حيث كان ابنهم «يوسف» يتولى منصبا رفيعا في الدولة، وكان أولاد يعقـوب وأزواجهم وبنـيهم يقدرون بنحو سبعين شـخصاً،[3] تمت هجرتهم في العـام (1656 ق.م) زمن حكم الهكسوس، وهناك صارت حياتهم ومقامهم واستقرارهم الذي دام أربعة قرون.[4]

---

1 الموسوعة الفلسطينية ج 1 رَ: إبراهيم النبي، رَ يعقوب .
2 سيد القمني، النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة. ص 81.
3 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع، عمان 1998 ط 1 ص 44 .
4 العرب واليهود في التاريخ د. أحمد سوسة، مصدر سبق ذكره.

النقد النصي والتاريخي لسفر التكوين

عن هذا السِّفر، يقول «فراس السواح»: «يتميز هذا السِّفر أكثر من غيره بطابع الجمع التراثي البدائي المختلف كليا عن عملية التأريخ، وأن ما يرويه من قصص لا يمكن تصنيفها ضمن الأخبار التاريخية بأي معيار، لا شكلا ولا مضموناً، فما هي إلا عملية جمع قصص متعددة النشأة والأصول تم ربطها بصورة غير محكمة، أبقت على استقلالية واضحة لكل منها، وعلى تناقض بين أحداثها، من دون توفر عنصري التحقق والتدقيق، اللذين يميزان جنس الكتابة التاريخية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة». [1]*

ويضيف «السواح»: «ومع أن الرأي السائد ينظر إلى عصر البرونز الوسيط (1950 ~ 1550 ق.م) كمسرح لأحداث عصر الآباء، إلا أن النص التوراتي لا يزودنا بأي مفاتيح لحل رموز تلك الحقبة التاريخية، فهذا النص يختزل التاريخ بمسائل عائلية قبلية بحتة معلقة في الفضاء، لا تمت للواقع التاريخي بصلة، ولا نجد فيها تقاطعات مع شخصيات ذلك العصر، أو صدى لأحداث كبرى معروفة،كانت قد حدثت في تلك الحقبة». [2]

وتشكل حقبة الآباء حلقة بالغة الأهمية في الرواية التوراتية، ذلك لأسباب تتعلق بالعراقة الإثنية. وقد سعى كَتَبَةُ التوراة بكل جهدهم إلى إيجاد صلة ما بين من تم سبيهم إلى بابل من رعايا مملكة إسرائيل، وبين النبي «إبراهيم» وبنيه «إسحاق ويعقوب» بغية ربط هؤلاء مع تلك الشخصيات التاريخية، والالتفاف على حقيقة أصولهم المتعددة والمجهولة، ومن تثبيت أسطورة أرض الميعاد على لسانهم. على الرغم من ألف وثلاثمائة عام تفصل فيما بينهم؛ فعصر الآباء – حتى باعتراف التوراة – هو حقبة تاريخية مستقلة ومنفصلة عن تلك الحقبة

---

1 * للمزيد من التفاصيل والأمثلة راجع آرام دمشق وإسرائيل ، فراس السواح صفحة 38 ~ 52

2 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 46.

التي ظهر فيها النبي موسى، وبينهما أكثر من خمسة قرون من الزمان.

وقد شهدت هذه الحقبة مرحلة صعود وأفول نجم الهكسوس (1788 ~ 1573 ق.م) وهم مجموعات من القبائل الأمورية غزت مصر وحكمتها زهاء القرنين،»[1] وتعني كلمة الهكسوس «الملوك الرعاة» أو «الأمراء البدو». وحسب «المسيري» هم جماعة من الآسيوين، خليط من العموريين والكنعانيين والحوريين، حكموا مصر بعد سقوط المملكة الوسطى (1675 ~ 1570 ق.م) وقد اتحدت مصر وفلسطين وسوريا تحت حكمهم.[2] وكانت قاعدة انطلاقهم من سوريا وفلسطين، حيث انتهزوا فرصة الضعف الذي دبَّ في المملكة الوسطى المصرية، بسبب النزاع الداخلي بين النبلاء والأمراء، فغزوا البلاد وتمكنوا من بسط نفوذهم على مصر السفلى والدلتا وبناء عاصمة جديدة، حتى تمكن القائد المصري «أحموس» من طردهم وتحرير البلاد منهم في العام 1573 ق.م.[3]

وإذ تصادفت هجرة إبراهيم (من أور، أو من حاران) إلى فلسطين، ودخوله مصر، ومن ثم هجرة أبناء يعقوب فيما بعد إلى مصر، واستقرارهم فيها مع فترة حكم الهكسوس، فإن هذا لا يعني بالضرورة أنهم من الهكسوس، وما ذلك إلا محاولة لدى الباحثين التوراتيين لإيجاد موطيء قدم للإسرائيليين في التاريخ القديم، وبالذات في «عصر الآباء».

والتوراة في سردها لأحداث عصر الآباء تقع في تناقضات عديدة: فمثلا تقول في سفر التكوين «وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياما كثيرة»، بينما لم تحمل أرض كنعان اسم فلسطين إلا بعد عصر إبراهيم بنحو سبعة قرون. كما تذكر التوراة اسم أحد ملوك الفلسطينيين قبل أن يوجدوا فعلياً بنحو 800 سنة. والمغالطات الأخرى التي تقع فيها التوراة حول تلك المرحلة هي ما تتعلق بمجمل التواريخ التي ذكَرَتْها والتي لا تتفق مع التواريخ الحقيقة لأحداث ذلك العصر، وعدم ذكرها أي شيء يتعلق بتاريخ هذه الطائفة مدة أربعة قرون ونيف![4]

---

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع، عمان ط1 1998 ص 44
2 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جزء4، ص 86.
3 أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص 168.
4 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي نفس المصدر، ص 25 ~ 55

وهذا ما يؤكده «شلومو ساند»، حين يقول: «الكثير من الأسماء المذكورة في سِفر التكوين هي أسماء ظهرت في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، ما يعني أن كَتبة هذا السّفر عرفوا مملكتي آشور وبابل اللتين أقيمتا بعد زمن طويل جدا من عصر الآباء، حيث رغب مؤلفو التوراة المتأخرون في توكيد الأصل المختلف لآبائهم المتخيَّلين، لأن النَّسب الرفيع بالنسبة لهؤلاء المؤلفين ضروري ومهم أكثر من السيادة على البلاد، لذلك جاء الأب السامي للشعب اليهودي (إبراهيم) حسبما كُتب من أرض مولده، أي في أور الكلدانيين».[1]

وأيضا، في أواخر الستينات من القرن الماضي، اصطدم عالم الآثار «مازار»، وهو أحد مؤسسي علم الآثار القومي بمسألة أرقته إلى حد كبير، ففي قصص عصر الآباء، ذُكِر الفلسطينيون والآراميون، وقد دلت المخطوطات والمكتشفات الأثرية أن الفلسطينيين لم يظهروا في المنطقة قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وكذلك الآراميون – الذين احتلوا في سفر التكوين دورا مهما – فقد ظهروا بعد القرن الحادي عشر قبل الميلاد.[2]

والمسألة المركزية في هذا السّفر المخصص للحديث عن عصر الآباء والتي ما زالت تثير جدلا كبيرا هي قصة «إبراهيم»، ومن المعروف أن التوراة تعتبر إبراهيم أب العبرانيين، ومؤسس بني إسرائيل، وأن اليهود تحدروا من صلبه خلفاً عن سلف، وتستند عليه بشكل كبير في محاولتها لتثبيت أسطور أرض الميعاد، حيث تؤكد أن إبراهيم بفضل صداقته مع الرب تمكن من انتزاع وعد منه لمنح ذريته الأرض الموعودة (فلسطين).

وبالرغم من الحضور المكثف لإبراهيم في الديانات السماوية الثلاث (الإسلام والمسيحية واليهودية) إلا أن حيثيات قصته غير مثبتة علميا؛ يقول المفكر المصري «سيد القمني»: «فيما يتعلق بإبراهيم نجد أن الأديان الثلاثة في جانب، وعلم التاريخ في جانب آخر، حيث نجد هذا العلم لا يعلم من وثائقه الأركيولوجية والآثارية شيئا البتة عن النبي إبراهيم، وقد أدى ذلك ببعض الباحثين إلى حسبانه شخصية أسطورية لا تمت لعلم التاريخ بصلة». ويضيف «القمني»: «بخصوص

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره ، ص 158.
2 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره ، ص 157.

إبراهيم، يربط عدد من الباحثين بين قصته وبين أسطورة باسم (براما) عُرفت في إيران والهند قبل ظهور العبرانيين، وأن العبرانيون تبنوا هذه الأسطورة وحولوها إلى قصة إنسانية، واعتبروه جدهم البعيد، تأسيسا على منهج التدين القديم القائم على تقديس الأسلاف».[1]

ومن قبل «القمني» بكثير شكَّكَ عميد الأدب العربي «طه حسين» بقصة إبراهيم، حيث يقول في كتابه «في الشعر الجاهلي»، الذي أثار زوبعة في حينه: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى».[2]

وإذا كان من الصعب إنكار وجود «إبراهيم» تاريخيا، إلا أنه بالإمكان إعادة النظر في قصة أصوله، وخط مساره في رحلته نحو فلسطين، وعلاقته بفلسطين ومصر والجزيرة؛ وبصرف النظر عن مدى دقة المعلومات التي تناولت أصول إبراهيم وتابعت رحلته الطويلة وصولا إلى فلسطين، فإنه من المؤكد أن قدومِهِ إلى فلسطين لم يُحْدِث تغييراً تاريخياً حاسماً، أو تأثيرا مركزيا على مجريات الأحداث، إذ أنه كان ضيفاً وعابر سبيل؛ هارباً من اضطهاد قومه في العراق بعد أن رفضوا دعوته، أو مرتحلا لأسباب أخرى، ولم يكن فاتحاً ولا محتلاً ولا حاملاً لأية رسالة قومية أو سياسية، وقد رحب به الملك اليبوسي «أدوني صادق» وباركه كضيف، بعد أن دفع له عُشر ما يملك.

ولو تتبعنا مسار حركة إبراهيم كما ترسمها التوراة لكانت استحالة كاملة اعتبارها هجرة قبائلية؛ حيث إن المناطق التي مر بها مثل «ماري» عاصمة الأموريين، و«حاران» و«تدمر» وغيرها من المناطق التي يسيطر عليها الهكسوس، ثم إلى كنعان ومصر؛ وبما أن هذه الدول كانت في أوج عنفوانها وقوتها فإن اقتحام قبيلة لها لا يمكن أن يمر دون حروب؛ وبالتالي توثيق هذه الحروب. ونظرا

1 سيد القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، مكتبة مدبولي الصغير، ط1، 1996، القاهرة. ص 17-16. أنظر أيضا أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 493.

2 طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار الكتاب المصرية، ط1، 1926، القاهرة. ص 26.

لعدم وجود أية وثائق تتحدث عن تلك الحروب يمكن القول إنها لم تكن أكثر من «تشرد أسرة» في أحسن تقدير، فإبراهيم بالكاد استطاع أن يجد مكانا يدفن فيه زوجته، وفي ذلك دلالة على هامشيته في المنطقة آنذاك .[1]

المفكر «عبد الوهاب المسيري» ذكر في موسوعته عن إبراهيم قائلاً: «يقال أن موطنه الأصلي مدينة حاران في مملكة ميتاني الحورانية شمال الأناضول، ويقال أنه من أور الكلدانية، علما بأن أور لم تكن كلدانية في أيام إبراهيم، ومع أن التوراة تبرزه كمؤسس لعصر الآباء، إلا أنه لا توجد مصادر تاريخية تسند الرواية التوراتية، وحسب مؤرخين من الصعب إطلاق مصطلح «فترة، أو عصر» على تلك الحقبة الزمنية، حيث إن هذه الفترة تبدأ في عالم شبه أسطوري، وفي مكان غير محدد، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الآباء ليسوا أشخاصا محددين، فهم رموز لفترات مختلفة في تطور القبائل العبرانية». [2]

الباحث «سيد القمني» يعيد ترتيب وبناء هذه القصة على نحو مختلف، وهو بداية لا يوافق على أن مولد إبراهيم كان في «أور» الكلدانيين في جنوب العراق، فيقول: «تقول التوراة إن هؤلاء المرتحلين خرجوا من أور الكلدانيين، دون أن توضح سببا عقديا أو خلافا سياسيا لخروجهم من هذا المكان الحضاري العريق، فقط تذكر التوراة أن هدف المرتحلين كان أرض كنعان التي تصفها بأرض العسل واللبن، مما يشير إلى أن هدف الرحلة كان الوصول إلى أرض أكثر خيرا وفيئاً». مع العلم أن أور كانت في تلك الأزمنة مدينة مزدهرة عامرة، بل إن «شلومو ساند» يشبهها بباريس اليوم، وقد ظلت كذلك لمئات السنين، دون أن يصيبها خراب أو ضعف. فما الذي يدفع بعائلة أن تهجرها وتهيم على وجهها إلى منطقة كانت حينها صحراء؟!

القرآن الكريم يشير إلى أن إبراهيم خالف قومه، وحطم أصنامهم، مما دفع بالملك النمرود إلى حرقه، ولكن العناية الإلهية نجته. ومن هنا نفهم أن الخلاف العقائدي أو الهروب من الاضطهاد كان الدافع وراء الهجرة. وفي هذا الصدد يشير «القمني» إلى وجود تناقض بين التوراة والقرآن، ليس حول اسم والد

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع، عمان ط1 1998 ص 44 .
2 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جزء4، ص 130.

إبراهيم (آزر حسب القرآن، وتارح حسب التوراة)، بل أيضا حول دافع الهجرة، فبينما يؤكد القرآن أن إبراهيم خالف أباه وهجره، تؤكد التوراة أن إبراهيم هاجر مع أبيه وعائلته كلها، والغريب أن ابن كثير وهو مؤرخ إسلامي يؤكد أن والد إبراهيم كان قائد رحلة الخروج، وأنه لم يكن على خلاف مع ابنه طوال الرحلة.[1]

وبالعودة إلى مسار رحلة إبراهيم انطلاقا من موطنه الأصلي- وهو حسب التوراة أور الكلدانيين أقصى جنوب العراق - وهنا يتساءل «القمني»: لماذا سلكت العائلة الطريق الطويل والشاق نحو حاران، وهي الواقعة في أقصى شمال المنطقة وخارج حدودها، وبالتحديد داخل المنطقة الأرمنية التركية القديمة ؟ ولماذا لم تسلك الطريق المباشر نحو الغرب ؟ وهو طريق أقصر بكثير ! الإجابة حسب القمني يجدها من التوراة نفسها، التي أشارت صراحة إلى حاران بأنها: «أرضك وعشيرتك وبيت أبيك»، وبما أن أور الكلدانيين (موطن إبراهيم الافتراضي)، كانت حاضرة الدولة الكلدانية التي قامت بين عامي (625 ~ 538 ق.م)، بينما إبراهيم يعود إلى زمن أقدم بكثير - يحدده المؤرخون في القرن الثامن عشر ق.م – ما يعني أن هناك قرابة ألف عام بين الزمانين.

لحل هذه التناقضات يقترح «القمني» أن «أور» الواردة في التوراة لا تقع في العراق أبدا، بل تقع بالتحديد في شمال المنطقة التركية الأرمنية، وبالتالي لا يكون غريبا إذا ما أراد التوجه نحو فلسطين أن يتجه جنوبا بشكل مباشر نحوها، ويدعم ذلك الرأي بأن «حاران» التي مر بها كمحطة للتوقف تقع على الطريق تماما، مما يضع القصة في إطار منطقي.[2]

وحسب «القمني»، يتضح أن العشيرة الإبراهيمية وفدت إلى المنطقة من جنوب أرمينيا (بلاد الحوريين)، وليس من العراق. وما يؤكد أصول إبراهيم الغريبة عن المنطقة أن التوراة وصفته بأنه آرامي، وأقر التراث الإسلامي أن أصوله ليست عربية تماما، وأنه ليس من أبناء الجنس العربي (من نسله تنحدر العرب المستعربة)، وأن لسانه لم يكن عربيا، وقال ابن هشام في السيرة أن لسانه كان سيريانيا. وبعد أن استقر لفترة في أرض كنعان، توجه - بدافع القحط - جنوبا

1 سيد القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، مصدر سبق ذكره. ص 27.
2 سيد القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، مصدر سبق ذكره. ص 53.

إلى مصر أرض الخير، وهناك ارتبط ببعض أهلها وصاهرهم، ثم واصل مسيرته جنوبا إلى الجزيرة العربية واليمن.[1]

ومن ناحية ثانية يؤكد «القمني» أنه بالبحث في سجلات ووثائق الحضارات العراقية المتتابعة، لم يكن هناك وجود لملك اسمه النمرود، (باستثناء ما جاء في التراث الإسلامي المتأخر، المتأثر بالروايات الدينية)، ومن الملاحظ أن التوراة تورد اسم «نمرود بن كنعان»، وحسب القمني، فإن المؤرخين اللاهوتيين (إسلاميين ويهود) تأثروا على ما يبدو بعادة سبّ الكنعانيين باعتبارهم عبدة أوثان وكفرة، فرأوا من جانبهم أن يكون نمرود الكافر الجبار ابنا لكنعان، طالما قد تم اختياره مصبا للعنات، وهكذا يكون عدو النبي إبراهيم هو نمرود بن كنعان، وهذا ما يعطي مبررا لمصادرة أرض كنعان الكافرة ومنحها للعبرانيين المؤمنين (ذرية إبراهيم). وهنا يتساءل القمني: «كيف يكون ابن كنعان ملكا على العراق؟ بينما يهجر إبراهيم العراق ليلجأ إلى أرض كنعان ؟!»[2]

وربما يكون من أغرب ما تضمنته التوراة في سفر التكوين، تلك الصورة المروعة التي رسمتها لمن يفترض أن تعتبرهم الآباء، الأخيار، المختارون.. ففي قصص التوراة نجد أن هؤلاء الآباء «الأنبياء» لا يتورعون عن الإتيان بأفعال مهولة ومخزية، فمثلا استخدم إبراهيم زوجته سارة للحصول على المال، وقدمها للفرعون ليتزوجها على أنها أخته، أما لوط فقد سكِرَ وزنى بابنتيه وأنجب منهما ولدين، أما موسى فقد قَتل ونهب جيرانه، ويوشع بن نون ارتكب مذابح جماعية دموية، وداوود قَتَلَ الرجالَ ظلماً واستولى على زوجاتهم، وسليمان قَتل أخوته للتفرد بالحكم ..[3]

ويؤكد «المسيري» بأن التوراة لم تصور الآباء كمبدعين من الناحية الدينية، بل إنها أوردت قصصا عنهم تتنافى مع القيم الأخلاقية. [4]

ومن النصوص التوراتية التي أثارت جدلا واسعا مسألة «تدجين الجَمَل» أو عدم

---

1 سيد القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، مصدر سبق ذكره. ص 125.
2 سيد القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، مصدر سبق ذكره. ص 40 – 41.
3 يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، ط3، 2009، القاهرة. ص 61.
4 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جزء4، ص 131.

تدجينه في الحقبة الإبراهيميّة؛ إذ دار كثير من الجدال والنّقاش في أوساط اللاّهوتيّين اليهود والمسيحيّين منذ القرن التّاسع عشر، ولعلّ من أهمّهم «ويليم ألبرايت» و «أوتو إيسفلدت»، وحديثا: مدير معهد الآثار بجامعة تل أبيب «إسرائيل فلنكشتاين» ومدير القسم التّاريخيّ في مركز إينام للآثار العموميّة في بلجيكا «نيل سيلبرمان» اللذان نشرا سنة 2004 كتاب (التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها)، الذي أثار جدلا حول مسألة عدم تاريخيّة الآباء المذكورين في الكتاب المقدّس، لتناقض المعطيات التّاريخيّة مع ما يُذكر عنهم، وخاصّة مسألة غياب تدجين الجمل في عهد إبراهيم المفترض أنّه عاش في القرن 18 ق.م.[1]

الكاتب «نبيل فياض» أثار في مقالته الشكوك حول قصّة النبيّ إبراهيم، وبالذات فيما يخص مسألة عدم وجود الجمل المدجّن في مصر في عهد إبراهيم، وأشار «فياض» إلى أن «النصّ التوراتي يوحي أنّ الجمل كان مدجّناً، بل قيد الاستعمال في ذلك الوقت. لكن بالاعتماد على الأدلّة العلمية، يمكن القول إن الجِمال المدجّنة ببساطة لم تكن معروفة أيام إبراهيم. والنصوص المصريّة من تلك الحقبة لا تذكر شيئاً عنها. بل حتى في ماري، المملكة المجاورة للصحراء، والتي ستبدو الأكثر حاجة لاستخدام الجمال، فإنّ مجموعة وثائقها الضخمة التي هي الآن بين أيدي الأركيولوجيين، وهي لا تذكر الجِمال في ما يفترض أنه كتابات من حقبة معاصرة لأبراهام. بالمقابل، فالواقع يقول إنّ الإشارات إلى الجِمال لم تبدأ في الظهور في النصوص والنقوش المساريّة إلا في القرن الحادي عشر ق.م. وبعد هذا التاريخ راحت الإشارات إلى الجمال تتزايد على نحو ملحوظ. هذا يعني ضمناً أنّ تدجين الجمال بدأ حوالي القرن الثاني عشر ق.م. أو قبله بقرن. إذن، لا يمكن أن تكون هنالك جمال مدجّنة حين كان أبراهام على قيد الحياة؛ ولا بدّ بالتالي أنّ القصص السابقة إضافات متأخّرة على أسطورة أبراهام».[2]

واستنتج «فياض» من هذا التحليل على وجود تخبّط «تاريخي» عند واضعي القصّة التوراتية، جعلهم يخلطون بين زمانيّة إبراهيم وزمانيّة أحداثٍ زعموا معايشته لها، بهدف «الإيحاء» بتاريخيّة تلك الأحداث. مؤكدا أنّ التّحقيب

1 محمد الحاج سالم، تدجين الجمل في عهد إبراهيم، موقع الأوان، 10 حزيران 2009، http://www.alawan.org.
2 نبيل فياض، مصادر القرآن الكريم: قصّة إبراهيم، موقع الأوان 01 آذار 2009، http://www.alawan.org.

التّاريخيّ «المعتمد علميّا يضع حياة إبراهيم والأحداث المنسوبة لعهده في حقبتين تاريخيّتين مختلفتين، أي ضمن زمانيّتين منفصلتين، بل ومتباعدتين، بما لا يمكن معه سوى استنتاج غياب «الحسّ التّاريخيّ» عن النّصوص المقدسّة.[1]

بينما فنّد الكاتب «محمد سالم» أقوال واستنتاجات «فياض»، موضحا أنّه سبق للمؤرّخ الفرنسيّ «دومينيك هنري» أن أشار في كتابه حول «مصر الفرعونيّة» المنشور سنة 1846 إلى انتشار القول بين علماء عصره بعدم وجود أدلّة أركيولوجيّة على تدجين الجمل في مصر، بل وفي إفريقيا بكاملها في أيّام إبراهيم. مشيرا إلى أنّ ذلك ينافي الواقع؛ إذ توجد نقوش من تلك الفترة تمثّل الجِمال على مسلاّت الأقصر، وهي النّقوش التي وثّقها عالم الآثار «مينوتولي» في كتابه «السّياسة والتّجارة عند الشّعوب القديمة». وفي نفس السنّة أي 1846، صرّح ثلاثة من كبار علماء الآثار الفرنسّيين وهم «غاستون بوكور» و «بول آلار» و «جون غيرو» بلا مواربة بعد بسط الأدلّة بـِوجود جِمال في مصر زمن إبراهيم، وأنّ مسألة غياب تماثيل للجمل، لا يثبت عدم معرفة المصريّين له؛ وفي تبريره غياب تماثيل الجَمل عند المصريّين القدامى، يقول:»إنّ عدم وجود تماثيل لهذا الحيوان يعود بخاصّة إلى غياب رمزه عن الكتابة الهيروغليفيّة القديمة، إذ كان المصريّون لا يقبلون تصوير أيّ حيوان في نقوشهم الوطنيّة ما لم يكن مصريّ الأصل. ولهذا، فإنّ الجمل والفيل، وهما حيوانان معروفان في مصر منذ قديم الأزمنة، لم يكونا في عداد الرّموز المعتمدة في الكتابة القديمة، لأنّهما دخيلان على مصر وليسا أصيلين فيها».[2]

بينما يرى «شلومو ساند» أن مسألة ترويض الجمال في عهد الآباء مسألة تثير جدلا، وظلت مشكلة شائكة تضعف من الرواية التوراتية، ويؤكد أن ظهور الجِمال كحيوانات مروضة قد بدأ بالظهور في المنطقة في القرن العاشر قبل الميلاد، أما ظهورها كبهائم لحمل البضائع في التجارة فإنه بدأ في القرن الثامن قبل الميلاد.[3]

---

1 نبيل فياض، مصادر القرآن الكريم: قصّة إبراهيم، موقع الأوان 01 آذار 2009، http://www.alawan.org. .

2 محمد الحاج سالم، تدجين الجمل في عهد إبراهيم، موقع الأوان، 10 حزيران 2009، http://www.alawan.org..

3 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره ، ص 157.

على أية حال، سواء أكان الجمل معروفا ومدجنا في زمن إبراهيم أم أنه لم يكن مدجنا، فإن هذه المسألة لا تقلل من حجم التناقضات التي تزخر بها التوراة.

وفيما يتعلق بما يسمى «بالعبرانيين» فقد درج العديد من المؤرخين على استعمال مصطلح «عبري» أو «عبراني» بغير معناها الذي ورد في المصادر القديمة وخلطها مع كلمة «خابيرو»؛ فقد أُطلق اسم «خابيرو» لأول مرة في التاريخ على المحاربين من نارام – سن عام 2170 ق.م، وهم من ملوك السلالة الأكادية القديمة، مما يدل على أن جذور حركات الخابيرو بدأت في العراق. وأيضا كانت هذه الكلمة تطلق في نحو الألف الثانية قبل الميلاد على طائفة من القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وبادية الشام، وكانت مرادفة «لابن الصحراء» الذي يعبر البوادي، ثم أخذ هذا الاصطلاح يستعمل للدلالة على الأجنبي أو المهاجر البائس الذي ينزح عن موطنه.

والعبرانيون، حسب تعريف «المسيري»، هم «كتلة بشرية يعود أصلها إلى الجزيرة العربية، استقرت في الهلال الخصيب في أوقات متفرقة، وهي كلمة تضم القبائل السامية التي تناسلت من صفوفها الشعوب المختلفة ومن بينها القبيلة التي جاءت مع إبراهيم ونسله، كانت هذه القبائل بلا هوية محددة، ثم اتخذت هويتها من اتحادها وعبادتها يهوة، أو كانوا قوما من الأقوام الكنعانية انسلخوا عن العقيدة السائدة وعبدوا يهوة.. دخلوا أرض كنعان عبر ثلاث موجات، أولها في القرن الثامن عشر ق.م في زمن انتشار الهكسوس، والثانية في القرن الرابع عشر ق.م وترافقت مع الموجة الآرامية الثانية، والثالثة أتت من مصر حسب الرواية الرواية التوراتية (أي الخروج). لم ينجز العبرانيون شيئا ذا قيمة، ولا يوجد لهم أسلوب عمراني مميز. ولم تكن حضارة العبرانيين أصيلة أو فريدة، ولأنهم شعب متجول؛ لم تكن لهم هوية حضارية محددة، إذ لم يكونوا يخضعون لأطر سياسية أو كهنوتية ثابتة، ولا ينتمون لتراث حضاري مركب، كما كان حال شعوب المنطقة، ولكنهم استوعبوا جوانب متعددة من حضارات المنطقة».[1]

1 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، جزء4، ص 112، 130.

المؤرخ العراقي «أحمد سوسة» يقول في كتابة الشهير «العرب واليهود في التاريخ» أن تسميات «الهبيرو» و «الخبيرو» و «العبيرو» وردت في المصادر المسمارية والفرعونية، وكذلك رسائل تل العمارنة، ومخطوطات ماري، ومدونات أوغاريت، وقد ردت للدلالة على تحـركات واسعة النطاق لجماعات «الخابيرو»، وعلى عكس جماعات «الحوريين» و«الهندو أوروبيين» الذين كانت تعج المنطقة بتحركاتهم آنذاك. ويصف «سوسة» هؤلاء الخابيرو بأنهم لم يكونوا جماعة عرقية متميزة، بل أخلاطا من أجناس شتى، بدليل أن البيانات الأركيولوجية لم تدل على تحديد لغة واحدة تجمع بينهم، أو تَبَيُّن نمط حياة موحد لهذه الجماعات، فأحيانا نجدهم جنودا مرتزقة، وأحيانا عمالا مأجورين، وأحيانا جماعات هائمة من النهابين وقطاع الطرق، أو تقدِّم خدماتها للملوك المحلليين لقاء أجور عينية أو نقدية، كما كانت مناطقهم ملاذا للهاربين من العدالة. ثم أصبح مصطلح الخابيرو يستعمله ملوك المدن في فلسطين في رسائلهم إلى الفرعون للدلالة على أي تمرد ضد النفوذ المصري، ولطلب النجدة والمعونة في مواجهة حركات العصيان. [1]

إذاً، فالخابيرو ظاهرة تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة لبلاد الشام، وعنوان للتمرد على حالة الاضطهاد والقهر الواقع على عامة الناس[2]، وثورة ضد ملوك الإقطاع الذين نصبهم الفرعون على المناطق، مما يعني أن الخابيرو فئة اجتماعية من نبات الأرض والصحراء، وليسوا فئة عرقية، وهم أيضاً شتات من الجماعات التي لم تجد لها مكانا في الهيكل الاجتماعي والسياسي لدويلات وممالك عصر البرونز الوسيط، فآل بها المطاف إلى حالة هامشية تعيش وضعا غير مستقر، وحركة دؤوبة تحت قيادات مؤقتة ومتغيرة، فبعض هؤلاء الخابيرو وفدوا إلى المنطقة من وراء البوادي والجبال ومن مناطق مجهولة، والمعظم كان من نفس المنطقة من بدو الصحارى الداخلية، وكان منهم الشذاذ والمغامرون، وحثالة الشرائح السفلى، التي بدأت تبحث عن حظوظ جديدة.

هؤلاء هم الخابيرو الذين وجدوا وانتهوا في العصر البرونزي الوسيط أي قبل أن

1 د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ. مصدر سبق ذكره. ص 468.
2 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 66.

يكون لليهود أي وجود[1]، والذين ترافقت حركتهم في نفس فترة هجرة «إبراهيم» إلى الشام وفلسطين، وامتدت إلى ما بعد ذلك التاريخ ببضع قرون أخرى، لذا سوف نحجم عن استعمال كلمة عبري للدلالة على اليهود لتجنب الالتباس عند الحديث عن تاريخ فلسطين القديم، أي فترة ما قبل ظهور «موسى» على مسرح الأحداث؛ وهي الفترة التي يجب أن تُبحث كدور مستقل، ليس لها صلة بمرحلة موسى والمراحل التي تلتها، ومن الجدير ذكره في هذا الصدد أن محرري التوراة قد عمدوا إلى استعمال مصطلح عبري للدلالة على اليهود بقصد إرجاع تاريخهم إلى حقبة عصر الآباء، وذلك على الرغم من وجود نصوص توراتية تتحدث عن العبرانيين بصفة الغرباء، الذين هم أقل درجة من اليهود أنفسهم، وبطبيعة الحال فليس هو هذا التناقض الوحيد الذي سيظهر في التوراة.

أي أنه ليس هنالك ما يدعوننا لإطلاق تسمية العبرانيين على الخابيرو كما يحاول الباحثون التوراتيون أن يفعلوا ومن خلال استباط كلمة عبرانيين من الخابيرو، لخلق جذور تاريخية، وفرض وجود للإسرائيليين في العصر البرونزي «عصر الآباء» وبالتالي إيجاد تواصل تاريخي مستمر، وأصول لبني إسرائيل في تلك الحقبة من التاريخ.

1 د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص 470.

ثانياً: العبودية في مصر، والخروج منها

يصف «السواح» قصة يوسف بأنها تمثل نقطة الاتصال بين عصر الآباء وعصر العبودية في مصر ومن ثم الخروج منها، موضحا أنه تم التقاط هذه القصة بعناية من قبل المحرر التوراتي بكل براعة من أجل إغلاق عصر الآباء وافتتاح عصر العبودية الذي مهد لملحمة الخروج.[1] لنتابع:

موسى النبـي

مع الاندماج الذي حصل بين ذرية يعقوب والمجتمع المصري سواء في زمن الهكسوس أم في زمن الفراعنة، على مستوى اللغة والدين والعادات والتقاليد والأسماء والمصير الواحد، لم تعد لهم أية صلة دينية أو تاريخية مع فلسطين، التي كانت تمثل لهم مجرد ممر فقط[2]، وبعد هذه الحقبة التاريخية المنفردة والتي دامت قرابة الأربعة قرون ولد النبي موسى بن عمران (1350 ق.م)، ومع أنه مصري فقد أبرزته نصـوص التـوراة (العهد القديم) على أنه أحد أحفاد يعقوب ومن عشيرة اللاوي العبرانية الأصل التي استوطنت مصر طوال هذه القرون، وقائدا أخرج بني إسرائيل من مصر، وأعطاهم شريعة أودعها التوراة.[3]

وحسب المؤرخين كانت ولادته في منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد أي في عهد الفرعون «رعمسيس الثاني»، وكما هو معروف فقد تربى موسى في البلاط الفرعوني، وعندما كبر قاد حملات عسكرية في السودان والحبشة، وجاء في القرآن الكريم أن موسى قتل شخصا ذات يوم من العائلة الحاكمة، وفر على إثرها إلى أرض مدين، وهناك تزوج ومكث عشر سنين، وفي أثناء عودته إلى مصر، أوحى إليه الله بالنبوة، وكلفه بالتوجه للفرعون ودعوته إلى ديانة التوحيد – التي

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 55
2 د. إبراهيم الشريقي، أورشالم وارض كنعان، من المقدمة.
3 الموسوعة الفلسطينية رَ موسى النبي ج 3.

كانت امتدادا لدعوة الفرعون أخناتون[1] – ويشير القرآن الكريم أن فرعون رفض دعوة موسى، وتوعد كل من يتبعه بالعذاب والعقاب. وكان الذين قد آمنوا معه هم من السحرة والفقراء والمستضعفين والمضطهدين الذين عصوا أمر الفرعون وتجرأوا على مخالفته، وفي الرواية التوراتية أن الفرعون نكل بهم على إثرها ثلاث سنين لم يسمح لهم خلالها بمغادرة البلاد، إلا أن موسى وأتباعه – الذين قدر عددهم آنذاك ما بين ستة إلى سبعة آلاف شخص، وحسب الرواية التوراتية بلغ عددهم 600 ألف شخص – وهم من العبيد والزنوج والأحباش والمصريين وغيرهم من بقايا الهكسوس، تمكنوا من انتهاز فرصة مـؤاتية للهروب شرقا باتجاه سـيناء عبر بحيرة المنزلة، وكان ذلك في العام (1227 ق.م).[2]

وتضيف الرواية الدينية أنه بعد أن وصل موسى وقومه إلى سيناء عرض عليهم الأخير مواصلة المسير حتى بلاد كنعان، فأرسل اثنا عشر عيناً لاستطلاع الأوضاع ومعرفة طبيعة البلاد وأهلها، ولدى عودتهم قالوا إن البلاد تفيض عسلاً ولبناً، ولكنّ فيها قوما معتزين بأنفسهم جبارين، ومن هنا فقد جوبهت دعوة موسى بالرفض من قبل قومه وقالوا له «اذْهَبْ أَنْت وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنّا ها هُنا قَاعدونْ»، وحسب المصادر الدينية فقد مكث قوم موسى في سيناء مدة أربعين سنة، فيما عرف بفترة التيـه. وخلال هذه الفترة توفي موسى في ظروف ما زالت غامضة، ولم يعرف قبره حتى الآن.

1 د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ ، مصدر سبق ذكره. ص 506 + 360.
2 نجيب الأحمد، فلسطين تاريخا ونضالا، مصدر سبق ذكره، ص 66.

النقد النصي والتاريخي لقصة العبودية والخروج

في قصة موسى - التي لا تخلو من بعض الحقائق التاريخية – [1] يقول بعض المؤرخين أنها مستمدة من قصة مصرية ترمز للصراع الدامي بين ملك الهكسوس ضد «أَحْمُـس» (البطل المصري) الذي على يديه استكمل تحرير مصر من حكم الهكسوس، ويهدف اقتباس التوراة لهذه القصة إلى تحقيق ثلاثة أهداف: الحصول على قوة الإله والنبي، وتحقيق وحدة الأصل، من خلال الادعاء بأن أتباع موسى هم أنفسهم اليهود ومن ثم التمتع بالأرض الموعودة، وانطلاقا من هذه الأوهام اختلق مدونو التوراة قصة الخروج كما وردت في العهد القديم.

ويقول الباحث والمؤرخ السوري «فراس السواح»: «يحاول المحرر التوراتي إقناعنا بقصة وجود ما يسمى بني إسرائيل في مصر في الفترة التي تلت عصر الآباء، وما يثير الاستغراب هنا أن سفر الخروج يصمت صمتا مطبقا عن تلك الفترة الممتدة بين وفاة يوسف وميلاد موسى والمسماة فترة العبودية، والتي يفترض أنها امتدت أربع مائة وثلاثين عاما حسب سفر الخروج، أو أربع مائة سنة فقط وفق سفر التكوين ! أو جيلا واحدا فقط حسب ما ترويه قصة يوسف! إذْ لم تفلح محاولاته في إخفاء بعض التناقضات؛ مثلاً كيف لأحفاد أولاد يوسف «أبناء ماكير بن منسي» أن يقاتلوا مع يشوع في كنعان! إذ إنه وفقاً لذلك ستكون المدة ما بين موت يوسف ودخول كنعان بما فيها «فترة العبودية»لم تتجاوز المائة عام!! وإضافة لهذا التناقض، لا نجد مثلا أي ذِكر لما كان يفعله هؤلاء الإسرائيليون قبل العبودية، ومن هم شخصيات تلك الحقبة، وكيف لهؤلاء الأجراء المسخرين أن يخرجوا من مصر ومعهم أغنام ومواش كثيرة! «.[2]

كما أن المصادر المصرية لا تذكر شيئا عن وجود إسرائيليين في مصر، ولا عن

1 أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ د ص 522
2 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 65 + 78-72.

خروجهم، ولا التوراة أيضاً أوردت ما يفيد عن الأوضاع في مصر، والأحداث التي جرت آنذاك، بحيث يمكن مقاطعتها مع ما نعرفه تاريخيا عن تلك الحقبة التاريخية.

ويضيف السواح: «إلى جانب التناقضات في قصة يوسف ووصف شخصيته وعجزها عن تحديد ملامحها العامة، هل هي فرعونية مصرية أم غير ذلك؟ سنجد مثيلاتها في قصة موسى، فهو على سبيل المثال سليل أسرة لاوية من الكهنة المكرسين لخدمة الدين، وفي نفس الوقت أمير فرعوني، من أصل ملكي نبيل، وقائد عسكري كبير، يعش حياة القصور المترفة! ففي الإصحاح الثاني من سفر الخروج الذي يصف ولادة موسى لم يعنى بنسبه أو ذكر اسم أبيه، ثم بعد ذلك - أي فترة النبوة - يأتي على ذكر معلومات جديدة كليا عن نسبه المتسلسل، وظهور أخ جديد اسمه هارون، دون أن يبين لنا لماذا لم يمنع المصريون أمه من تربيته كما حدث مع أخيه! ما يثير الشك بأصله العبراني المزعوم، وكيف تكون زوجته عبرانية مع أنها ابنة كاهن مديان، وفي نص آخر نجدها امرأة كوشية حبشية!».[1]

ويواصل «السواح» طرح أسئلته: «أما في قصة الخروج فنجد التناقض الصارخ بين شخصية موسى «رجل العقيدة الذي يميل للسلم ويقود جماعة من الهاربين الخائفين، ولا يدخل معركة ما لم تكن مفروضة عليه فرضا، ثم شخصية موسى القائد العسكري الدموي الذي يبادر للحرب ويشن حملات الإبادة والتدمير ضد البلدات الكنعانية! ثم لا نستطيع التميز بين شخصية يشوع في شرق الأردن حين يطلب من ملك آدوم أن يمر من أرضه بسلام، وبين شخصيته في حروب كنعان، وكيف يضطر للدوران في رحلة طويلة شاقة ليبدأ حملة فتوحات عسكرية في سهول سوريا الجنوبية!».[2]

وهنا سنجد أن طريقة صياغة الأسفار الخمسة وطريقة سرد الحكاية التوراتية توحي بوجود تسلسل منطقي ما، غير أن هذه الوحدة الظاهرية سرعان ما تهوي بمجرد تتبع حلقاتها بأدوات البحث العلمي.

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 64-53.
2 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 67.

فما هي إلا حكاية تقوم على عدد من العناصر المعروفة في الأدب الشعبي والخرافي لحضارات الشرق القديمة، لها متوازيات واضحة في قصص أخرى معروفة لدى شعوب مختلفة، مع وضع بعض الاختلافات هنا وهناك؛ في هذا المجال يورد «سيجموند فرويد» عدد من الأمثلة لقصص متشابهة خاصة فيما يتعلق بوضع الطفل في مهده وتركه في البحر أو النهر، لتلتقطه حيوانات تربّيه، أو عائلة أخرى تتبناه، ويشير «فرويد» أن أول أسطورة شعبية من هذا النوع كانت حول حياة القائد «سرجون الأكادي» مؤسس بابل 2800 ق.م، وأيضا قصة «قوروش» و»رومولوس»، وهناك شخصيات جاء في الأساطير أنها بدأت طفولتها بظروف مشابهة مثل أوديب، كارنا، باريس، تيليفوس، بريسيوس، هرقل، جلجامش، زيتوس..[1] وربما تكون قصة حي بن يقظان لابن طفيل مستوحاة ومتأثرة بهذا النوع من السرد الأسطوري.

وفي قصة موسى هناك فجوات يصعب ردمها؛ إلا أن المحرر التوراتي عمد إلى وضع تسلسل ما عن قصد وبرؤية مسبقة وبهدف محدد، يكاد ينحصر في تنظيم تركة ضخمة من التقاليد والتراث في سياق معين، من شأنه خلق ماضي لما يسمى «بإسرائيل التوراتية» واعتبارها شعباً موحدا منذ البداية، تحت قيادة متوارثة ومعتقد ديني موحد. ولذا سنلاحظ أن هاجس الأصول يسيطر على الأسفار سيطرة تامة، وبسبب تلك العقدة عمد كَتَبَةُ التوراة للمبالغة، وإرجاع أصلهم إلى بدء الخليقة وربطه بقصة الطوفان. ونجد أيضا حشدا هائلا من النصوص التي تعزف على وتر الأصول والنقاء العرقي واختيار إسرائيل من قبل الرب والأرض الموعودة، ومع كل هذا فلا يمكننا تصنيف هذه الرواية من حيث الشكل والمضمون إلا ضمن قصص الخيال الشعبي التي تزخر بالأساطير، وتعبر عن رؤية أيديولوجية ضيقة.

وهنا تجري محاولة إضفاء شيء من القداسة على حادثة الخروج المفترضة في هذه الصيغة الفخمة بالاحتفال بعيد الفصح، وذلك بعد اقتباسه من الكنعانيين، وتفعيله وإدماجه في «التاريخ المقدس ليهوى»[2]، بعد أن كان جزء من الشعائر

1 سيغمون فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط4، 1986. ص 13.
2 روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، مصدر سبق ذكره، ص 50.

الزراعية الكنعانية لعيد الفصح في الربيع (عيد بعث أدونيس)، وهكذا تم الربط باعتبار هذا الاحتفال هو الصك المؤسس لنهضة ونشوء شعب إسرائيل بعد أن انتشلهم الرب من العبودية.

من الصعب الاعتماد على التوراة في تحديد زمن الخروج، ولا مكانه، فهي رواية معلقة في الفضاء تقف وحيدة دون أي سند من خارجها، ولا تدعمها نتائج التنقيب الأثري ولا المسح الاركيولوجي[1]، وهي إلى جانب ذلك رواية مليئة بالتعقيدات والتناقضات، وهذا كله لا يمكننا من وضع أحداث الخروج في إطار تاريخي، فهؤلاء الذين كانوا يؤلفون التوراة لم يكتبوا تاريخا وإنما عملوا على إيجاد تفسيرات لاهوتية لحوادث تاريخية منتقاة، وقد استخدموا أسماء الأماكن والشخصيات والأحداث التي كانت قريبة من زمن التدوين، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير، ما يدل على جهلهم المطبق بأحوال وتفاصيل الزمن المفترض للخروج.

وبما أن هؤلاء القوم الذين اتبعوا موسى (سنطلق عليهم تسمية الموسويين) قـد دخلوا أرض كنعان كما تدعي التوراة بصفة محتلين، وقد هاجموا البلدات الكنعانية وأبادوها عن بكرة أبيها - بعض هذه البلدات كما ورد في رسائل العمارنة كانت معاقل للخابيرو – فكيف يكون الموسويون هم أنفسهم الخابيرو كما أدعت التوراة!

ومن المعروف أن الزمن المفترض للخروج هو نفس الزمن الذي شهد أوج قوة الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر – أقوى وأشهر الأسر الفرعونية الثلاثين - وبالذات في عهد «رعمسيس الثاني» وابنه «مرنفتاح»، بما يعني أن قصة الخروج بالصيغة المذكورة استحالة مطلقة، حيث كانت جميع بلاد الشام تحت القبضة الحديدية للفراعنة، الذين ضاقوا ذرعا بالتمردات التي كانت تحدث بين فترة وأخرى.[2]

كما أن خروج موسى مع 600.000 من الرجال من قومه كما تدعي التوراة،

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 27.
2 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة سعيد عياش، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، رام الله ط1، 2010. ص 130.

عدا النساء والأولاد والماشية، هو بالتأكيد أمر لا يقبله عقل ولا منطق؛ إذ إن هذا العدد الضخم من البشر في صحراء سيناء ولمدة أربعين سنة (التيه) وهم في وضع مضطرب وقلق سيخلق أزمة تموينية وإسكانية، نظرا لمحدودية موارد الصحراء، وهذا العدد لا يمكن له أن يعبر البحر بين ليلة وضحاها دون أن يتمكن الفرعون من اللحاق بهم. وحتى لو استطاعوا التخفي في سيناء فإن وصولهم إلى فلسطين سيجعلهم تحت قبضة القوات المصرية الموجودة أصلا هناك، فهم تحت رحمتها وفي بيتها، ولن يسلموا من بطشها - إلا إذا كانوا أتباعا لها - حيث تؤكد الأدلة التاريخية والأركيولوجية على أن المنطقة كلها كانت تحت الحكم المصري آنذاك.[1]

وكيف تمكن هؤلاء الأجراء المسخرين المستضعفين – كما تصفهم التوراة – من حمل متاعهم وحليهم وكنوزهم وماشيتهم؟ ومن أين حصلوا عليها! ثم كيف غفل المصريين عن ذكر حدث بهذه الضخامة، وهم الذين كتبوا على مسلاتهم جميع انتصاراتهم وحروبهم الكبيرة والصغيرة! مع العلم أن فراعنة هذا العصر وجد لهم آثار ونقوش مختلفة في فلسطين، تمجد انتصاراتهم وقوتهم دون أي إشارة لعدو يحمل اسم «الإسرائيليين» أو «العبرانيين».[2]

والأسطورة لا تتوقف عند حد خروجهم من مصر، بل تمتد لتسرد بطولاتهم في اقتحام كنعان وتدميرها وإبادة أهلها؛ وهنا يتساءل «فنكلشتاين»: «كيف أمكن لجموع ممزقة مرتحلة مع نسائها وأطفالها وشيوخها، وقادمة من الصحراء بعد رحلة تيه طويلة، أن يرتقي إلى مستوى تنظيم غزو فعال ؟ وكيف أمكن لمثل هذا الرعاع الفوضوي غير المنظم، أن يتغلب على القلاع العظيمة في كنعان وجيوشها المحترفة وفيالقها المدربة ؟».[3]

ويؤكد «ساند» أنه «لم يتم العثور على أي ذِكر أو إشارة لِ «بني إسرائيل» عاشوا في تلك المرحلة الفرعونية، أو ثاروا على الفرعون، أو هربوا منه، كذلك لم تُكتشف حتى الآن بقايا أو مخلفات أثرية في سيناء تشير إلى مرور أية مجموعة كبيرة

1 إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، مصدر سبق ذكره. ص 115.
2 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، سبق ذكره، ص 94.
3 إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، مصدر سبق ذكره. ص 108.

من الناس في تلك الفترة».[1]

والرأي الأرجح الذي يقدمه «فراس السواح» وأيضا «جودت السعد»[2]، والمبني على حقائق مادية هو أن هؤلاء الموسويين هم فصيل من الجيش المصري لهم دور خاص هو الاستيطان على الحدود الشرقية، لقمع حركات التمرد دائمة الوقوع في بلاد الشام. وقد اضطر «رعمسيس الثالث» لمحاربة جيرانه الليبيين الذين هاجموا مصر، الأمر الذي يفسر سحب قواته من بلاد الشام والاعتماد على اتباعه لإخضاع العصاة خاصة في فلسطين، ويبدو أن الموسويين هم الذين تولوا هذا الأمر. والرأي الآخر هو أن الخروج قد قامت به مجموعة صغيرة هامشية من الأجراء المسخرين فرت بشكل سلمي أو سمح لها بالخروج ثم العودة من حيث أتوا، دون أن يكون لهذه العملية تأثير مركزي على مجريات الأحداث فيما بعد، فمن غير المعقول فرار مئات الآلاف من العبيد، ثم مقتل الفرعون أثناء اللحاق بهم دون أن تأتي سجلات مصر على ذكره في فترة من بين أكثر فترات التاريخ المصري توثيقا !![3]

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 159.
2 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 75.
3 فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الادنى القديم، دار علاء الدين، دمشق 1993 ط2 ص 198 .

الموسويون

يطلق المؤرخون تسمية «الموسويين» على أتباع موسى، وذلك لإزالة الالتباس وتمييزهم عن ما يُسمى «بني إسرائيل» أو «العبرانيون» أو «اليهود»، وهو الخلط المتعمد الذي دأبت عليه الدعاية الصهيونية، لتعقيد الصورة والتشويش على حقائق التاريخ.

وربما كان موسى من أهم الشخصيات المركزية في الديانة اليهودية، حيث يحتفل به اليهود باعتباره مؤسس الديانة اليهودية، ومحرر الشعب اليهودي من ذل الأسر، وقائدهم في رحلة الخروج، وواسطتهم مع الرب، وهو الذي وهبهم شرائعه وتعليماته؛ لذلك فإن نزع هذه الشخصية (موسى) من «الشعب الإسرائيلي»، وتجريدهم منه، والتأكيد على الفصل التام بينه وبين اليهودية، والقطيعة الكاملة بين زمنه والزمن اليهودي، يعني جعلهم يعيشون حالة اليتم، وخسارتهم لأهم حلقة في الرواية الإسرائيلية، ما يعني تقويض أهم ركائزها، وتركها كورقة في مهب الريح. وهي نتيجة صادمة في كل الأحوال.

يرى بعض الباحثين أن موسى كان مصريا قلبا وقالبا، وأن اسم «موسى» هو اسم مصري صرف كان شائعا آنذاك، وموسى كما هو معروف كان قد تربى في البلاط الفرعوني وتزوج من ابنة ملك الحبشة، ما يدل على أنه كان قائدا في الجيش الفرعوني الذي غزا الحبشة. ومن الباحثين الذين أكدوا أنه مصري، الفيلسوف اليهودي الأسكندري «فيلون» (30 ق.م ~ 40 ب. م)، وكذلك قال «ديورانت» أن «يوسفوس» نقل عن «مانثيون»، وهو مؤرخ مصري عاش في القرن الثالث ق.م، أن موسى كان كاهنا مصريا خرج يبشر بديانة التوحيد.[1] ومن العلماء المحدثين الذي أيدوا هذا الطرح العالم النفسي «سجموند فرويد» في

1 أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص 506.

كـتابه «موسى والتوحيد» عام 1938، حيث انتهى إلى أن موسى كان مصريا وليس إسرائيليا.[1]

كما أجـمع العديد من الباحـثين على أن الديانة التي خرج موسى يبشر بها إنما كانت امتدادا لدعـوة «أخناتون» للتوحيد[2]، وهناك العديد من الأدلة ما يثبت ذلك: منها فكرة «أخناتون» عن الخالق وأن ليس له شكل محدد، وأنه رفض تصوير «أتون» الإله الحي المتجلي في قرص الشمس التي تعطي حرارة الحياة، وما ورد في مدونات التوراة في تصوير الإله على صورة إنسان، وكذلك التماثيل التي صنعها الموسويون في سيناء المشابه للتماثيل المصرية، والتشابه الكبير بين ترتيلة» أخناتون» والمزمور الرابع بعد المائة من سفر المزامير[3]، وكذلك التشابه في عدد من المصطلحات والعادات كالختان مثلاً، وتحريم لحم الخنزير، والطقوس المتعلقة بتقديم الأضحية والقرابين الحيوانية، وأيضاً التشابة الكبير بين أسلوب سفر نشيد الإنشاد مع مناهل الأدب الصوفي المصري.

والناس الذين آمنوا بدعوة موسى هم من السحرة والعبيد والأحباش والمستضعفين من الشعب المصري ومن بقايا الهكسوس، ولم يكونوا يشكلون شعبا موحدا ذا خصائص مميزة، أو فئة غريبة عن النسيج الاجتماعي السائد، وهم في الغالب جماعة من المصريين الذين كانو قد آمنوا سابقا بديانة الفرعون «أخناتون» – وأكثرهم من جنوده – فأصبحوا مضطهدين بعد وفاة «أخناتون» نظرا لأن الفرعون الجديد كان يؤمن بالوثنية، ويرفض إله «أخناتون»، وبالتالي فقد طرد هؤلاء الجنود من الجيش، أو أنهم آثروا الهرب خوفا من الاضطهاد والتحقوا بجماعة موسى.

إضافة إلى ذلك كانت هنالك فئة قليلة من بقايا الهكسوس الذين لم يغادروا مصر بعد تحريرها من الهكسوس زمن «أحموس» 1573 ق.م،4 فتحصنوا في العاصمة «حوراس» ولم يشأ المصريون استمرار المعارك معهم فعمدوا إلى مصالحتهم، ولكن بعد تزايد عددهم أجبروهم على العمل بالسخرة، وعاشوا في

1 سيغمون فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط4، 1986. ص 20-17.
2 سيغمون فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط4، 1986. ص 37.
3 د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للتوزيع، دمشق ط،6 ص 514_524 .
4 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، مصدر سبق ذكره. ص 61.

مصر عيشة العبودية يعملون في الحقل والبناء، وقد وجد هؤلاء خلاصهم مع موسى.

وكانت لغة الموسويين الوحيدة هي اللغة المصرية والكتابة الهيروغليفية، ولم يعرفوا سواها إلا بعد دخول قسم منهم أرض كنعان وتعلمهم اللغة الكنعانية. والديانة التي جاء بها موسى وأودعها في الوصايا العشر انتهت بمجرد موته، وانحرف أتباعه عنها ودخلوا مرحلة التيه وقاموا بعبادة العجل وغيره من الآلهة السائدة، كما تم تحريف الوصايا العشر، وقد باتت هذه الديانة تراثاً وتاريخاً من حق الذاكرة الإنسانية جمعاء، ولا تخص فئة بعينها عن سائر البشر، والموسويون أصحاب هذه الديانة بعد موت موسى دخلوا مرحلة تاريخية جديدة ومستقلة ومنفصلة عن المرحلة السابقة.

والموسويون إذن، لم يكونوا شعبا متميزا عن المصريين، بدليل عدم وجود أية آثار تاريخية خاصة بهم، وكل الدلائل تشير أنهم كانوا مصريين بالانتماء والهوى والسياسة، وأحيانا جنودا للفراعنة.

ففي العصر البرونزي الوسيط - أي قبيل ظهور موسى - اكتشفت آثار تدل على النفوذ المصري في معظم الأجزاء الجنوبية من فلسطين[1]، وبعد أن أحكمت «طيبة» سيطرتها السياسية واحتكرت السلطة في مصر كلها، أي بعد قرن من حكم «أحموس الأول»، راودت السلالة الثامنة عشر طموحات إنشاء إمبراطورية في فلسطين، وعندما استتب الأمر كليا زمن «سيتي الأول» اقتضت الضرورة إعادة ترتيب المنطقة بعد حالة الفوضى والضعف زمن «أخناتون» الذي شغل بقضايا داخلية، فقد أعاد «سيتي الأول» ومن بعده «رعمسيس الثاني» والثالث توزيع أدوار الحكام في المدن والمقاطعات الشامية، فعين الأمراء، وأسكن القبائل الموالية في مناطق إستراتيجية تخدم الأهداف الفرعونية، وتحمي حدود المملكة، وتخضع الثورات المحلية، ومن بين هؤلاء كان الموسويون.

والفترة التي تمتد ما بين «سيتي الأول» حتى «رعمسيس الثالث» تطابق الفترة المعروفة بالتوراة بعهد القضاة، وقد اتسمت فترة القضاة بالحركة العسكرية

1 طومسون، ترجمة صالح سوداح، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، بيسان للتوزيع، 1995 ط1، ص 137 .

النشطة، وهي تعطي فكرة عن طبيعة دور الموسويين خاصة مع وصول الفلسطينيين الشاطيء المصري عام (1194~ 1191 ق.م) قادمين من بحر إيجة، وحربهم مع الفراعنة الذين أرغموهم على النزول على شاطئ كنعان، فوجود الفلسطينيين على حدود مصر والتهديدات الخارجية أعطت مزيدا من الأهمية لدور الموسويين، ومن اللافت هنا أن التوراة وصفت هذه الحروب وبالغت في تصوير بطولات «القضاة» في حروبهم مع الفلسطينيين، والتدقيق في سفر القضاة يعطي أكثر من مؤشر، فمثلا شخوص السِّفْر هم مصريون، وكل ما تم هو استبدال كـلمة «الفرعون» بكـلمة «الرب»، فضلا على أن جميع الوثائق المصرية تؤكد السيطرة الفرعونية العسكرية المطلقة على بلاد الشام كلها طوال عهد القضاة.

وبسبب الربط الآلي بين اليهودية كديانة والعبرية كلغة، من المفيد أن نذكر أنه على ضوء المكتشفات الأركيولوجية الحديثة تبين أن أقدم نص وُجد مكتوبا باللغة العبرية يعود إلى القرن الأول ق.م، وأن التوراة كتبت في القرن الخامس ق.م في بابل أثناء السبي، واستكملت على يد كهنة «أورشالم» بعد عودة المسبيين مع «كورش الفارسي»، وأن الديانة اليهودية قد تكونت ونشأت في تلك البيئة ونُسبت إلى الإله يهوه، وبالتالي لم يعـد مقبولا القول بأن ديانة موسى هي اليهودية، وأن أتباعه هم اليهود ولغتهم هي العبرانية - التي لم تكن معروفة حينها – ليس للفجوة الزمنية الهائلة التي تفصل زمن موسى عن زمن تدوين التوراة، أو لاختلاف البيئات بينهما، والتطورات الهائلة والتغيرات الجذرية التي ألمت بالمنطقة طوال تلك السنين، ولكن أيضاً لجميع الاعتبارات المادية والموضوعية الأخرى التي تثبت ذلك، فمثلا الخلط بين تسمية الموسويين والعبرانيين باطلة، إذ لا يعقل أن نطلق تسمية قوم نسبة إلى شيء لم يكن موجود حينها، لأن ذلك يتناقض مع المنطق والعقل، ومعناه أننا بصدد إنشاء تاريخ جديد، ولكن بأثر رجعي، وقراءة مسبقة محكومة بدوافع معينة.

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الإسرائيلي «فنكلشتاين» والأمريكي «سيلبرمان» أن: «النصوص التوراتية هي عبارة عن تأليفات متأخرة، تم جمعها وتحريرها

على يد الكهنة في الأسر البابلي، واستمر ذلك حتى وقت متأخر، أي إلى الفترة الهيلينية، وأن هناك إجماعاً على أن الأسفار الخمسة الأولى من التوراة (التوراة المنسوبة إلى موسى) لا يمكن أن تكون تأليفا فرديا جرى تحريرها ككتلة واحدة، بل هي عملية تجميع وترقيع لمصادر مختلفة، كلٌ منها كُتب في ظروف تاريخية مختلفة، لإبداء آراء دينية أو سياسية».[1]

1 إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، مصدر سبق ذكره. ص 38.

ثالثاً: عصر القضاة، ويوشع، والفلستينيون

تعتبر فترة العــمارنة أهم فترات العصر البرونزي الأخير توثيقا، وتمتــد ما بين (1450 ~ 1350 ق.م) وسميت بهذا الاسم نسبة إلى موقع تل العمارنة عاصمة مصر العليا زمن الفرعون «امنحوتب الثالث»،[1] وقد عثر على أرشيف ملكي غني يضم عددا كبيرا من الرسائل بين الملوك السوريين والفلسطينيين والبابليين والبلاط المصري، بما فيها رسائل خلال حكم الفرعون «امنحوتب الثالث» وولده «أخناتون» كُتبت باللغة الأكادية التي كانت لغة المخاطبة الدبلوماسية آنذاك[2]، تعطي هذه الرسائل معلومات قيّمة ومهمة عن الأوضاع السياسية لمنطقة فلسطين والساحل الكنعاني، ومن هذه المعلومات يمكننا أن نرسم صورة عامة للمسرح الذي جرت فيه الأحداث التي ادعتها الرواية التوراتية حول قصة اقتحام «يشوع بن نون» بقبائله العبرانية أرض كنعان، ومن ثم نرى إلى أي مدى تنطبق هذه الرواية مع تلك الوثائق التاريخية.

في تلك الحقبة من التاريخ كانت ثلاث قوى رئيسة تتقاسم النفوذ في المنطقة هي: «ميتاني» في الجزيرة وسوريا، «حاتي» في الأناضول و «مصر» في الجنوب إضافة إلى «الكاشيين» الذين ورثوا مملكة حمورابي وسيطروا على سومر بلا منازع.[3]

وقد حاولت مملكة «حاتي» تقــويض ما تبقى من النفوذ المصري على فلسطين عن طريق تشجيع جماعات من العابيرو الذين كانوا يعيثون فسادا في الأرض (وهم من بقايا الخابيرو الذين عاشوا في العصر البرونزي الوسيط وامتدادا لهم) ومن المرجح أن هؤلاء العابيرو الذين ورد ذكرهم في رسائل العمارنة قد

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 80.
2 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع، عمان ط1 1998 ص 64.
3 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 80.

لجأوا إلى المناطق الهضبية من فلسطين بعد فشل عملياتهم العسكرية وتمازجوا تدريجيا ليذوبوا في النسيج الاجتماعي المحلي.

ولا يوجد أي دليل تاريخي يدعو إلى الربط بين هؤلاء العابيرو مع العبرانيين الذين تدعيهم التوراة ضمن محاولاتها اختراع أصل في فلسطين لجماعات العبرانيين الذين استولوا على أرض كنعان، كما ورد في رواية سفر «يشوع»، والمسألة لا تنحصر فقط في الفجوة الزمنية الكبيرة بين عصر العابيرو والعصر المفترض لدخول يشوع ومعه جماعته، بل أيضاً بمدى التحولات الاجتماعية العميقة والتغيرات الجذرية التي ألمت بالمنطقة خلال تلك الحقبة ما بين عصر العابيرو وعصر تدوين التوراة.[1]

حدث تاريخي آخر ظهر على المسرح في تلك الآونة وذلك بعد انهيار الحضارة «المسينية» في جزيرة «كريت» وبقية جزر بحر «إيجة»، بتأثير الكارثة المناخية والغزوات العسكرية التي أجهزت عليها، مما أدى إلى اقتلاع جزء كبير من السكان وتشتيتهم في البلاد المجاورة.

ففي نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد أدت تلك الظروف الصعبة لشعوب آسيا الصغرى وبحر «إيــجة» إلى تفريق قبائل بأكملها راحت تبحث عن موطن لها، وكان «الفلستينــيون» قــد وصلوا إلى الســاحل المصري، فتصدى لهم «رعمسيس الثالث» عام 1191 ق.م، فاتجهوا إلى الساحل الكنعاني وأقاموا هناك في خمس مدن رئيسة أهمها أشدود وعقرون، ولم يكن وضعهم الصعب وقواهم المنهكة التي استنزفت في السفر والحروب يسمح لهم بإعلان الحرب على السكان الأصليين؛ فمالوا للسلم والتعايش، ومن هنا لم تكن هجرتهم غزوا أو احتلالاً، بل كانت بحثاً عن موطن ومستقر.[2]

والفلستينيون[3] من الشعوب الهندية – الأوروبية التي استقرت في أرض فلسطين منذ ذلك التاريخ حوالي 1194 ق.م، وقد جاء ذكرهم في عدد من المصادر المصرية القديمة، حيث أسموها «بلست» وكذلك في مصادر أشورية حيث

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 83.
2 أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، مصدر سبق ذكره. ص 198.
3 الموسوعة الفلسطينية، الجزء الثالث، رَ الفلسطينيون، مصدر سبق ذكره.

أسموها «بلستو»[1] وقد منحوها هذا الاسم الخالد بعد أن اندمجوا مع سكانها الأصليين (الكنعانيين)[2] بطرق ووسائل سلمية، وتم ذلك على هون في غضون قرن ونصف من الزمان؛ إذ تدل المخلفات الأثرية على أن هؤلاء الفلستينيون لم يحافظوا على تكوين عرقي أو ثقافي مدة طويلة، فالخزفيات القريبة من نمط بحر «إيجة» تنتشر لفترة بسيطة ثم تحل محلها خزفيات تنتمي إلى أنماط محلية واضحة، وكذلك تظهر نقوش «كريتية» على الأختام ما تلبث أن تختفي وتحل محلها نقوش كنعانية صرفة، وكان هذا في مطلع العصر الحديدي[3]، إذ كان سر تفوقهم معرفتهم صهر الحديد، وليس هناك معلومات عن لغتهم، إذ لا توجد أية وثائق مكتوبة بها، ويبدو أن الكنعانية قد حلت محل لغتهم الأصلية، والشيء ذاته ينطبق على ديانتهم فقد تأثروا كثيرا بعادات وتقاليد القبائل العربية الكنعانية، وكانت آلهتهم تحمل أسماء سامية كنعانية؛ إذ عبدوا آلهة الكنعانيين التي كانت تتألف من ذكر وأنثى، كما هي العادة عند الساميين، ومن آلهتهم داجون وبعل وعشتاروت، وقد نظموا مدنهم على شكل ممالك وبلغت ذروة مجدهم عام (1050 ق.م).[4]

وتدل جميع المخلفات الأثرية للمنطقة المسماة «فلستيا» على طابع محلي كنعاني واضح في كافة مجالات الحياة، من نمط العمران حتى المعتقدات الدينية وطقوسها، وهي التي تركزت حول آلهة كنعانية قديمة مثل بعل وداجون وعشتاروت، مما يؤكد بأن المدن الفلسطينية الخمسة الوارد ذكرها في النصوص الآشورية والتوراتية لم تكن سوى مدن كنعانية قلبا وقالبا.

---

1 كيث وايتلام، ترجمة د. سحر الهنيدي، اختلاق إسرائيل القديمة، ص 18 .
2 د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ ، مصدر سبق ذكره، ص 198.
3 فراس السواح، آرام دشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 85.
4 الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، رَ الفلستيون، ج 3 .

يشوع واقتحام كنعان

وردت في سِفر «يشوع» قصة اقتحام كنعان كما يلي: «بعد وفاة موسى خلفه «يوشع بن نون»، فواصلَ المسير بقومه باتجاه الشرق، فعبروا وادي عربة وتقاتلوا مع الأدوميين، ثم مع «سيمون» ملك العموريين، ومع «عوج» ملك أرض حوران، ثم احتلوا أريحا عام (1186 ق.م)[1] وقتلوا كل أهلها، ثم توجهوا إلى القدس، ولكن اليبوسيين دافعوا عنها باستماتة، ومن بعد موت «يشوع» تولى القيادة أربعة عشر قاضيا، عرف عهدهم بعهد القضاة، واستمر حتى العام 1020 ق.م، وقد استمرت المعارك مع أهل البلاد حتى تمكن الفلسطينيون من هزيمتهم عندما قتل «طالوت» «شاؤول» عام (1004 ق.م) فتولى القيادة من بعده الملك «داوود»، الذي تمكن من تسجيل انتصارات عديدة على الفلسطينيين، واتخذ من حبرون (الخليل) مقراً لحكمه حتى العام (1000 ق.م) حينما تمكن من احتلال القدس وجعلها عاصمة لمملكته».

هذه القصة التي أوردناها باختصار شديد، تحاول أن تجد تفسيرا يوضح أصل القبائل الإسرائيلية وعلاقتها بأرض كنعان، وتقوم هذه الرواية على نظرية الاقتحام العسكري الكاسح لأرض كنعان عبر نهر الأردن بقيادة «يشوع»، ومن ثم الاستيلاء عليها، بعد قتل أهلها وتوزيع الأراضي (الموعودة) بين القبائل الإسرائيلية كما وعد الرب.[2]

ويفنّد «فراس السواح» هذه الرواية مستندا إلى التوراة نفسها، حيث تفعل ذلك ببساطة من خلال تقديم رواية أخرى وردت في سفر القضاة للغرض ذاته، تقوم على نظرية التسلل السلمي التدريجي، وتتناقض هذه الرواية مع الأولى

1 نجيب الأحمد، فلسطين تاريخا ونضالا، مصدر سبق ذكره. ص 45. وأنظر أيضا أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 536.

2 آرام دمشق وإسرائيل ، فراس السواح ص 86 ~ 110

بكل تفاصيلها وجزئياتها، إلى الحد الذي يدفعنا للقول بأن محرر الرواية الأولى لم يطلع على الثانية، والعكس صحيح، وأن القائمين على عملية الصياغة الأخيرة لم يكونوا بوضع يسمح لهم بترجيح كفة رواية على أخرى، أو أنهم ربما أجلوا ذلك في انتظار فرصة تمكنهم من تحديد صياغة نهائية، ولكن هذه الفرصة لم تأت بعــد.

ونلاحظ أسلوب السرد الملحمي المتضمن ملامح القصص الخرافية: فعبور النهر يتم بعد تيبس الماء، وسور أريحا يسقط من تلقاء نفسه، والسماء تمطر حجارة على العدو، والشمس تقف في كبد السماء وتؤخر غروبها تماشيا مع رغبة الإسرائيليين، وغيرها من المعجزات التي تزخر بها الأساطير القديمة، وكلما اقترب أسلوب النص التوراتي مما يشبه السرد التأريخي، كلما عاود المحرر إدخال العناصر اللاهوتية والخرافية وأحيانا أسلوب القصص الشعبية أو التشويق والفكاهة الضمنية، ما يعيد الرواية إلى نهجها الخيالي.[1]

أما في سِفر القضاة فلا وجود لحروب مظفرة تشنها إسرائيل الموحدة، بل معارك صغيرة هنا وهناك تشنها كل قبيلة على حدة في محاولة منها لإيجاد موطئ قدم في أرض كنعان، مع تحركات سلمية للاستقرار بين السكان الأصليين، وعلى عكس ما ورد في رواية «يشوع» حيث حارب الكنعانيين وأبادهم بطريقة منهجية متبعا سياسة التطهير العرقي،[2] فإنه في سفر القضاة «أي يشوع» لم ينقَضّ على أريحا وبقية المدن الكنعانية بل صرف القبائل الإسرائيلية وتركها تتدبر أمرها بنفسها تحت ذريعة أن الرب قد عدل عن طرد أهل كنعان من أمام إسرائيل، لأنهم عصوا أمره وخالفوا أوامره واقترفوا الذنوب والآثام! وهكذا ينهي سِفر «القضاة» بجرة قلم سِفر «يشوع» بأكمله، ويجعل قصة الفتح العسكري المبين تتهاوى كبيت من ورق.

كما نلاحظ أن سفري «القضاة» و»يشوع» قد أهملا تماما ذكر التغيرات الكبرى التي ألمت بالمنطقة في تلك الحقبة من الزمان، وحيث يتفق المؤرخون على اعتبار أحداث هذه الأسفار قد تمت بحدود العام (1200 ق.م) ، فإننا لا نجد ذكرا

1 آرام دمشق وإسرائيل، فراس السواح، مصدر سبق ذكره. ص 90.
2 روجي جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص 58 .

للفلسطينيين الذين قدموا في تلك الفترة، ولا ذكر لأسماء الفراعنة ولا حملاتهم العسكرية، ولا تلك الممالك الصغيرة في شرق الأردن، ولا أخبار آشور التي وصلت قواتها على بعد أميال من مسرح قصص القضاة، ولا أي من شخصيات ذلك الزمان، ما يؤكد أن محرري هذه الأسفار كانوا يصوغون قصة بدون إطار تاريخي ولم يكونوا على إطلاع بأحوال ذلك الزمان.[1]

والشواهد التاريخية جميعها لم تقدم دليلا واحدا يخدم هذه الرواية؛ فالتنقيبات الأثرية أثبتت عدم وجود ما يدل على قدوم أقوام جديدة أو غريبة عن المنطقة في الفترة ما بين البرونز الأخير وعصر الحديد، أو وجود آثار مغايرة للنمط الكنعاني السائد، وأن جميع المواقع إنما بنيت على أيدي السكان المحليين.[2]

والادعاء بتدمير أريحا في نهاية القرن الثالث عشر ق.م على يد «يوشع» أو «يشوع» لا يقوم على أرضية صلبة، فعلم الآثار يبرهن على أن المدينة كانت قد دمرت نحو 1550 ق.م ثم هجرت بعد ذلك ولا توجد آثار تنتمي للفترة المفترضة للاقتحام[3]، وهكذا الحال بالنسبة لمدينة «عاي»، فقد نقب علماء آثار مشهورون عن آثار «عاي» و»جبعون» القريبة منها، ولكنهم أعلنوا أنهم لم يعثروا على مدينة تسمى «عاي» في تلك الفترة، وبالتالي لم يكن هناك ملك لأي مدينة في ذاك الزمن. أي أن الرواية تتحدث عن هجوم على مدينة كانت قد دمرت قبل ذلك بنحو خمسمائة سنة [4]. ويؤكد «ساند» أن أريحا كانت في القرن الثالث عشر ق.م مجرد قرية صغيرة بائسة ولا يحيط بها أية أسوار، أما «عاي» و «حشبون» فلم تكونا موجودتين في تلك الفترة على الإطلاق.[5]

ويلخص عالم الآثار فرانكن[6] في موسوعة كامبرج للتاريخ القديم الموقف بخصوص الفترة المفترضة للفتح الإسرائيلي والاستيلاء على كنعان على النحو التالي:

---

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره, ص 94.
2 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره, ص 94.
3 روجي جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص60
4 كيث وايتلام، ترجمة د. سحر الهنيدي، اختلاق إسرائيل القديمة، ص 153.
5 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 160.
6 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل،مصدؤسبقذكره، ص 110 .

«إذا وضعنا التوراة جانبا، فإن علم الآثار ينفي قطعيا بأن القرن الثالث عشر قبل الميلاد قد شهد تشكل شعب جديد في فلسطين، وإنه اتخذ وضع الأمة مع حلول القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وإنه لمن المتعذر على تقنيات الأركيولوجية الحالية تلمس أية آثار تدل على وصول عناصر إثـنية جديدة إلى أي موقع في فلسطين في تلك الحقبة من التاريخ».

طالما أن معظم الباحثين قد أجمعوا على عدم وجود ما يسمى إسرائيل الموحدة أو ما يمكن تسميته شعب إسرائيل قبل القرن العاشر قبل الميلاد، يتساءل «السواح»: ما هو الأساس التاريخي لما يدعونه بمملكة إسرائيل الموحدة؟؟ وكيف ينشأ حدث تاريخي من فضاء غير تاريخي، وبصورة مفاجئة؟؟

رابعا: مملكة إسرائيل الموحدة

داوود وسليمان

تعتبر كلٌ من فترتي عهد القضاة وفترة المملكة الموحدة التي يفترض أن تكون إسرائيل قد سيطرت خلالهما على فلسطين بالغتا الأهمية بالنسبة للمؤرخين التوراتيين، بما يسمح باعتبارهما تمثلان اللحظتين الحاسمتين من التاريخ الإسرائيلي، وهي الفترة التي يطلق عليها في الدراسات التوراتية فترة النشوء وأصول إسرائيل، وهما تقعان في فترة التحول من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي الأول.[1]

ونظرا لأهمية تلك المرحلة فقد استخدم الدارسون التوراتيون موارد مالية كبيرة، وبذلوا جهودا لا يستهان بها في بحثهم عن آثار ودلائل تنتمي إلى تلك المرحلة، ليثبتوا وجود مملكة إسرائيل القديمة الموحدة والمقدمات التي سبقت نشوئها، ولكن المفارقة أن هؤلاء الباحثين أنفسهم هم الذين دحضوا هذه النظرية من خلال الآثار والمعلومات التي خلصوا بها عن تلك الحقبة، فأصبحت تانك اللحظتان الحاسمتان المفترضتان من التاريخ الإسرائيلي هما بالفعل عبارة عن اللحظة الحاسمة، ولكن في التاريخ الفلسطيني، وذلك بعد أن فشلت محاولات إقصاء التاريخ الفلسطيني واستبعاده، بسبب اختلاق إسرائيل القديمة وتحديد فترة تكونها في نفس فترة قدوم الفلسطينيين واندماجهم مع الكنعانيين، أي إنها فترة مهمة وحاسمة من فترات تشكل التاريخ الفلسطيني، ولكن كموضوع قائم بذاته.

ترتبط قصة بداية المملكة الموحدة كما وردت في التوراة بشخصية «النبي والكاهن وآخر القضاة»: «صموئيل الأول»، الذي به ينتهي عصر القضاة ويبدأ عصر

1 كيث وايتلام، ترجمة د. سحر الهنيدي، اختلاق إسرائيل القديمة، ص 129 .

المملكة الموحدة؛ فآخر القضاة هو الذي يتوج أول الملوك «شاؤول» ويأمره على لسان الرب أن يبيد العماليق، ولأن «شاؤول» بعد أن أبادهم عفا عن ملكهم وأبقى على المواشي والجياد، ندم الرب على اختياره له، كما غضب منه «صموئيل»، وبذلك نزعت عنه بركة الرب، وفيما بعد تطورت علاقته مع «داوود» الذي تمكن في إحدى المعارك من قتل «جالوت» الفلسطيني، وعلى إثرها ارتفع شأنه وذاع صيته، ثم ما لبث أن انقلب على «شاؤول» وتحالف مع الفلسطينيين ضده، وأخيرا قُتل «شاؤول» مع أولاده الثلاث، ودانت الحرب لصالح داوود «الملك».

تم هذا حسب الرواية التوراتية في العام (1004 ق.م)، أي نفس عام تأسيس مملكة داوود وسليمان، والتي اصطلح على تسميتها بالمملكة الموحدة، والتي دامت 81 عاما (1004 ~ 923 ق.م)، والتي ما إن مات سليمان حتى انقسمت إلى مملكتين متصارعتين:[1]

الأولى: مملكة إسرائيل: وقد عاشت 201 سنة (923 ~ 722 ق.م)[2] وكانت عاصمتها «شكيم» ثم «السامرة»، وقد انتهت بهزيمتها على يد «سرجون الثاني» الأشوري، الذي بدوره سبى أهلها إلى «ميديا» شمال العراق.

الثانية: مملكة يهوذا: وقد عاشت 337 سنة (923 ~ 586 ق.م) وكانت عاصمتها «أورشالم»، وقد انتهت بهزيمتها على يد الملك الكلداني «نبوخذ نصر»، الذي سباهم إلى بابل عام (586 ق.م) بعد أن دمر الهيكل.

1 ذوقان الهنداوي، القضية الفلسطينية، كتاب مقرر في مناهج وزارة التربية والتعليم الأردنية للصف الثالث الثانوي، وألغي من المنهاج منذ سنوات.

2 ميخائيل هرسيغور ، موريس سترون، إسرائيل / فلسطين الواقع وما وراء الأساطير. ص 26.

النقد النصي والتاريخي لسفر صموئيل

أيضاً، اضطلع هذا السِّفر بذات المهمة التي دأبت باقي الأسفار على تحقيقها، وهي تثبيت الإدعاء بوحدة الأصل، ومن ثم تثبيت لملكية الأرض في «إسرائيل»، إلى جانب مهمة سِفر «صموئيل» الإضافية بتثبيت وجود مملكة إسرائيل الموحدة، والتي يفترض أنها قامت على معظم أراضي كنعان.[1]

وبما أن المعيار الأيديولوجي لأسفار التوراة يعكس المواقف الفكرية لكهنة يهوذا المشرفين على عملية تدوين التوراة في الفترات المتأخرة، فإنه من المتوقع إظهار «شاؤول» في صورة الملك السيئ، وداوود (ابن منطقة يهوذا) بصورة الملك الجيد، وليس إعلان شأن «داوود» ونزع الرب البركة من «شاؤول» ومنحها ل»داوود» إلا تبريرا إيديولوجيا لاستئثار «يهوذا» بالملك إبان فترة المملكة الموحدة من دون القبائل العشرة الإســرائيلية (الشمالية).

يقول «فراس السواح»: «ومع أن أسلوب هذا السِّفر يتميز بوحدة وتكامل الأحداث، وذلك بسبب تركز أحداثه حول شخصيتين فقط، إلا أننا سنلاحظ جملة من المتناقضات: فهو لم يفلح تماما في إظهار الوجه السلبي لشاؤول، لأنه على ما يبدو قد استخدم قصة حقيقية عن قائد ما ظهر في زمن سابق في ذات المنطقة. كما يزخر السِّفر بملامح الملحمة الشعبية المليئة بالعناصر المعروفة في الأدب الشعبي، مثل قصة الراعي الأعزل الذي يهزم الفارس المدجج بالسلاح، وغيرها من العناصر الشائعة والمتكررة في القصص الشعبية، وقد أضيف إليها عنصر المرور باختبار خطير لنيل يد بنت الملك... كما سنلحظ وجود بعض العناصر التي تسيء إلى شخصية البطل مثل تحالف داود مع الفلسطينيين وعمله كمرتزقة، وغيرها من المتناقضات كوجود ثلاث روايات مختلفة عن تتويج شاؤول ملكا، وروايتين متناقضتين عن قصة لقائه مع داود، وروايتين مختلفتين عن قصة

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 125- 130.

موته وعن مدة حكمه، وكيف لداوود أن يحمل رأس جالوت إلى بيت المقدس مع أن سفر القضاة يؤكد أن بيت المقدس كانت ما زالت بيد اليبوسيين آنذاك!».

سِــفر صموئيل الثاني:

لا يختلف هذا السِّفر عن سابقه من حيث الأسلوب، إلا أنه يتركز حول شخصية «داوود» فقط، في محاولة منه لرسم صورة لملك ملحمي أسس تقاليد ملكية لبني إسرائيل، والقراءة المدققة سرعان ما تكشف مدى هشاشة وتفكك هذا السفر واستقلالية قصصه عن بعضها، وعدم ترابطها، بالرغم من الترتيب الزمني المصطنع؛ فحروب «داوود» ذُكرت باقتضاب على عكس قصص مجونه وترفه، وتزودنا التفاصيل الصغيرة للقصص بفكرة عن كيفية تصور المحرر عن مُلك داوود، فهذه المملكة لم تكن أكثر من مشيخة قبلية متواضعة، أو إمارة محلية في أحسن الأحوال لم تأخذ بأسباب التمدن بعــد.[1]

ويفترض المؤرخون التوراتيون أن «شاؤول» قد حكم بين (1030~ 1009 ق.م)، و«داوود» ما بين (1009~969 ق.م)، و«سليمان» ما بين (969~931 ق.م)، إلا إن البنية التاريخية والأركيولوجية لم تتوفر حتى الآن عن وجود هؤلاء الملوك، ولا يوجد خارج النص التوراتي ما يثبت وجودهم أو يتعرض لذكرهم، أو ما يقدم مادة ممكن أن نقاطعها مع ما ذكرته التوراة بخصوصهم.

ويقول «السواح»: «من أجل مسايرة فرضية مملكة إسرائيل الموحدة حاول العديد من المؤرخين أن يوفق بين هذه الأخبار المقتضبة والغامضة والمتناقضة ووضعها في إطار تاريخي مقبول، وبذلك أخرجوا ممالك من التاريخ وأضافوا أخرى وهمية، ورسموا حدودها ووصفوا علاقاتها مع الجيران.. وكل ذلك استنادا للرواية التوراتية وحدها دون أي سند خارجي».

ويضيف: «ومن الغريب أن هذا السِّفْر لا يتطرق بالحديث عن الممالك الآرامية التي

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 133-126.

قامت بالفعل في الفترة المفترضة لحكم داود، ولا عن الآشوريين، وفي المقابل يختلق اسم مملكة مجهولة في التاريخ، علماً أن التنقيبات الأثرية في منطقة «برسيب» قد كشفت على نصوص آرامية مهمة تلقي الضوء على تاريخ منطقة الفرات في القرن العاشر قبل الميلاد، ولا يوجد ذكر لداوود فيها ولا عن مملكته، مما يدل أن محرر السفر لم تكن تتوفر لديه معلومات موثقة عن تلك الفترة. ومن ناحية ثانية فإن المحرر كان على ما يبدو يرمي إلى تزيين سيرة ملك ملحمي بأخبار حروب جمعها من الذاكرة القبلية للمنطقة، أكثر من كونه يؤرخ لسيرته».

وأخيرا، وعلى ضوء ما تقدم يمكننا القول بأن مملكة داوود التي امتدت من الفرات شرقا حتى البحر المتوسط غرباً، لم تكن أكثر من شبح تاريخي، لم يعد يعني إلا أولئك الذين يستمدون آراءهم من النصوص التوراتية فقط، وما زالوا يحلمون بالعثور على وثيقة واحدة تدعم آراءهم، ولكن دون جدوى.

سِـفْر المُلُـوك

يعتبر «فراس السواح» أن قصة إسرائيل التوراتية تصل ذروتها عند أخبار الملك «سليمان»، حيث تزخر التوراة بالمبالغات غير المعقولة عن هذه الفترة، كما هو الحال عند الحديث عن العصر الذهبي في أساطير وخرافات الشعوب؛ بحيث نرى كل ما هو عجيب ومدهش وغريب، وتصف القصة مملكة «سليمان» بأنها يوتوبيا الأرض، التي تنعم بالأمن والخيرات. ومن الطبيعي أن لا يكون رأس هذه اليويتوبيا إنسانا عاديا، بل رجل حكمة وعقل، تفوق قدراته العقلية والروحية والجسمية ما نعرفه عن البشر.[1]

ويورد «السواح» العديد من المتناقضات في هذا السفر: مثلا فإن مملكة سبأ التي تحدثت عنها التوراة كانت قد ازدهرت في القرن الرابع قبل الميلاد، أي بعد فترة سليمان بنحو خمسة قرون! وأيضا من الثابت تاريخيا أن الساحل الفلسطيني كان يتقاسمه الفلسطينيون والفينيقيون، فمن أين أتت سفن «سليمان» تمخر

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 144.

عباب البحر محملة بالهدايا وأكداس الذهب! وأين هي الآن أطنان الذهب والفضة والأحجار الكريمة والآنية والزخارف التي ملأت قصر سليمان وشوارع مملكته؟

ويضيف «السواح»: «إن المحرر التوراتي كما يبدو كان يجهل تماما أن الفراعنة كانوا يرفضون تزويج أميراتهم من خارج البلاط الملكي، وبالتالي فإن قصة زواج «سليمان» من ابنة الفرعون إنما تعكس الطابع الخيالي لنفوذ «سليمان» الخارجي المفترض».

ومن الجدير ذكره أن سجلات الفرعون «شيشق» الذي تدعي الرواية تزويج ابنته ل»سليمان»، تتجاهل تماما وجود مملكة موحدة في فلسطين، ولم تأتِ على ذكر «سليمان» من قريب أو بعيد، كما أن النصوص الآشورية التي أعطتنا معلومات تفصيلية عن كل الدول التي قامت في بلاد الشام خلال القرن العاشر ق.م قد تجاهلت أيضا قيام مملكة قوية في فلسطين آنذاك، وتجاهلت ذكر أي ملك طبقت شهرته الآفاق يدعى «سليمان».

وفيما يتعلق بالتنقيبات الأثرية في القدس فقد تبين وجود سور يعود إلى العام 1800 ق.م، وهو تاريخ بناء أورشليم لأول مرة زمن اليبوسيين، وقبل الزمن المفترض لمملكة «سليمان» بثمانية قرون، كما عثرت التنقيبات على آثار هدم وإصلاح للسور تعود للعام 587 ق.م، أي زمن السبي البابلي على يد «نبوخذنصر»، وما بين هذين التاريخين فهو مفقود تماما ولم يتم العثور على بنية واحدة، أو حجر، أو أية آثار تدل على وجود ما يسمى بمملكة «سليمان»، أو أي هيكل، أو معبد ... [1]

أما الهيكل الذي بناه «زربال» أو «زاروبابل»، قائد الدفعة الثانية التي رجعت من السبي البابلي عام 520 ق.م في عهد «كورش الفارسي»، فقد دمره القائد الروماني «تيطس» عام 70 للميلاد ولم تعد له قائمة بعد ذلك التاريخ.

أما خارج مدينة أورشليم وفيما عدا بعض المدن الكنعانية المهمة، فإن التنقيبات الأثرية في المستويات العائدة للقرن العاشر قبل الميلاد لم تعثر على شئ أو دلائل

1 سيد القمني، إسرائيل التاريخ، التوراة، التضليل، دار قباء، ط1، القاهرة، 1998. ص 92.

تشير إلى تقدم حضاري أو ازدهار اقتصادي في أي من الأمكنة المفترض قيام مملكة «سليمان» عليها، فأهل هذه البلاد كانوا يعيشون حياة عادية جدا، وفقيرة وبسيطة إلى أبعد الحدود، وتتركز ديانتهم حول الآلهة الكنعانية التي عثر على تماثيل ومقامات تدل عليها.

ونظرة واحدة إلى خريطة أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد تعطي فكرة عن ضآلة هذه المدينة، فمساحتها لا تتعدى بضعة كيلومترات مربعة، وعدد سكانها بحدود ألفي نسمة، وأن عدد سكان فلسطين بكاملها كان بحدود المائة ألف نسمة فقط. المؤرخ الإسرائيلي «فنكلشتاين» والأمريكي «سيلبرمان» يؤكدان أن هذه المدينة (المقدسة) كانت في القرن السابع قبل الميلاد تمتد على مساحة لا تتجاوز مائة وخمسين هكتارا وحسب، وأن تعداد سكانها لم يتجاوز في أحسن الأحوال خمسة عشر ألف نسمة، وأنه لم يسبق للمدينة أن كانت أكبر من ذلك، وأنها فقط في القرن السابع الميلادي، أي قبيل الفتح العربي الإسلامي بدأت بالتوسع والإزدهار، واستقبال أعداد متزايدة من الفلاحين واللاجئين والقبائل المجاورة.[1]

وجميع التنقيبات التي جرت على أيدي علماء إسرائيليين في منطقة القدس في السبعينيات من القرن الماضي، كانت مربكة للخيال الماضوي الفخور، ومخيبة للآمال،[2] حيث لم يعثروا على شيء يدعم قصة وجود هذه المملكة. وفي البداية تم تبرير هذا الإخفاق في إمكانية تدمير آثار المملكة في فترة «هيرودوس»، ولكنه تم اكتشاف معطيات وآثار من فترات مبكرة تسبق الفترة المفترضة لقيام تلك المملكة المزعومة.

1 إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع، ط2، 2006، دمشق. ص 25.

2 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 161.

الفصل الثاني

إرهاصات نشأة الديانة اليهودية

إسرائيل التاريخية

اتفق الباحثون (غير الصهاينة) على اعتبار كل العصور التي سبقت فترة الاستقرار في كنعان هي عصور ما قبل التاريخ فيما يخص مسألة أصول إسرائيل، بمعنى أنه حتى ذلك التاريخ - أي قبل القرن العاشر قبل الميلاد - لم يكن يوجد ما يمكن تسميته شعب إسرائيل، وبعد ذلك التاريخ بدأت إسرائيل التاريخية بالتشكل شيئا فشيئاً، وهنالك عدة نظريات ترصد وتفسر هذا التشكل وكيفـيته. وأهمها:[1]

1) نظرية التسرب التدريجي السلمي:

يعتقد المؤرخ «آلت»[2] أن الجماعات التي سكنت منطقة الهضاب المركزية في فلسطين، وشكلت فيما بعد قبائل إسرائيل كانت عبارة عن عشائر بدوية من أصول مختلفة، عاشت على نمط مشابه لحياة البدو الرحل، سكنت منذ وقت قديم جدا في أطراف الدول المدينية الكنعانية في المناطق الجبلية في فلسطين، وأخذت بالتسرب التدريجي على فترات متقطعة ومتباعدة، حيث بدأ هؤلاء الرعاة في إيجاد مناطق رعوية وبالاتفاق مع الكنعانيين، ثم بتبادل منافع معينة، وشيئا فشيئا وجدت هذه القبائل أماكن مناسبة لإقامتها، فاستوطنت في المناطق الزراعية غير المأهولة، وأخذت بالاستقرار والزراعة دون أن تسبب تهديدا أو مخاوف للسكان الأصليين، ولم يكن لها من حاجة للعنف، ثم إن هذه العشائر المسالمة والمتباعدة أخذت بالتقارب فيما بينها، والإحساس التدريجي بوجود رابط ما يجمعها، ومن المرجح أن عبادة واحدة قد نشأت بينها وتركزت حول معبد مقدس أو مذبح مشترك، وبدأت تتوحد بفعل اتفاق قبلي / ديني على غرار الجماعات الدينية الإغريقية، وفيما بعد توسعت مناطق النفوذ لهذه القبائل

1 وردت هذه النظريات في كتاب فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 160 ~ 176

2 توماس طومسون، ترجمة صالح سوداح، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 34 .

وبدأت تستشعر قوتها، وبالتالي حصل الصدام العسكري مع الكنعانيين على شكل حروب ومعارك صغيرة - والأرجح أن هذه المعارك هي التي تم اقتباسها في سفر القضاة - ثم تنادت هذه الجماعات بعد أن أحست بوحدة مصالحها إلى إقامة مملكة خاصة بهم.

تتزايد الدلائل على أن هؤلاء القادمين الجدد كانوا بشكل رئيسي من المزارعين ومربي الماشية المستقرين، وليسوا من الرعاة المتنقلين، وأنهم من أصل محلي لا خارجي، وكانت حركتهم هذه بدافع عودة المناخ المطري وظهور القرى الزراعية. هذا الطرح يدل على أن هذه التغيرات السكانية ليس لها أي علاقة بنشوء إسرائيل التوراتية.

2) نظرية الانتفاضة الداخلية

يرى المؤرخ «ميندنهل» أن الجماعات التي شكلت إسرائيل فيما بعد، هي من أصل محلي وليست جماعات رعوية قدمت للمنطقة بحثا عن المراعي، وهي عبارة عن شرائح فلاحية كنعانية لجأت للثورة في وجه حكام الدويلات الصغيرة الطغاة.

ويؤكد الباحث «غوتوالد» هذه النظرية ولكن من منظور طبقي، ويرى أن الجماعات التي أسست إسرائيل في فترة لاحقة إنما هي شرائح مضطهدة من الفلاحين والمزارعين والرعاة، ومن الجماعات الهامشية التي تقع خارج الإطار الاجتماعي والسياسي للدويلات الكنعانية، قامت هذه الشرائح بانتفاضة طبقية ضد المدن الإقطاعية التي تديرها طبقة من النبلاء، التي تستغل تلك الفئات المضطهدة والمحرومة.

ويرى الباحث والمؤرخ السوري «فراس السواح» أن الجماعات التي أسست إسرائيل في فترة لاحقة نشأت وتطورت بسبب التمايز الديني عن الوسط الكنعاني، وبالتالي ظهور تمايز اجتماعي وثقافي أدى في النهاية إلى تمايز إثني، وإن هذا التمايز الإثني قد ترسخ وكُرس فيما بعد على أيدي كهنة يهوذا خلال السبي البابلي وما تلاه.

والبيانات الأركيولوجية والتنقيبات الأثرية تدعم هذا الرأي؛ فأرض فلسطين حتى

ذلك الوقت لم تعرف شعبا متميزا اسمه الشعب الإسرائيلي، ولا ثقافة خاصة بهم، وإنما هي ثقافة محلية كنعانية نمت وتطورت ذاتيا؛ فاللغة التي نطق بها الإسرائيليون هي اللغة الكنعانية، وآدابهم كنعانية، ومعتقداتهم الدينية خرجت من صلب المؤسسة الدينية الكنعانية؛ وبالتالي فإن الشعب الذي انتج ثقافة إسرائيلية إنما هو فئة اجتماعية كنعانية لم تغادر موطنها قط، وربما استوعبت فئة ضئيلة من الهاربين من مصر.

وفي فترة السبي البابلي بدأ الكهنة بتدوين التوراة، أي في الفترة التي شهدت انحلال المجتمع الإسرائيلي وتآلب القوى عليه ومواجهـته خطر الفناء، وقد كتب هؤلاء الكهنة تاريخ بني إسرائيل من وجهة نظرهم الخاصة، فجعلوا منهم فئة متميزة منذ البداية، وسعوا لترسيخ شكل معين للدين اليهودي بحيث يختلف عن الكنعانيين في كل شيء.

3) نظرية بوتقة الانصهار

يؤيد الباحث المؤرخ «ماكسويل ميللر» نظرية التسرب التدريجي، ويعتقد أن الجماعات التي أسست إسرائيل في فترة لاحقة إنما هي نتاج اندماج ثلاث قبائل كنعانية، هي أفرايم ومنسي وبنيامين، كانوا في منطقة من فلسطين تدعى «إسرائيل»، وقد ورد ذكرها في نصب الفرعون «مرفنتاح»، وضمت فيما بعد قبائل أخرى عديدة مختلفة ومتنوعة. أما إسرائيل كمفهوم إثني سياسي فقد نجمت عن انصهار تلك الجماعات، واستغرق تقاربها واندماجها فترة طويلة من الزمن، في عملية معقدة جدا خلافا للرواية التوراتية البسيطة والساذجة.

فيما يؤكد المؤرخ «توماس طومسون» في كتابه التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي في الفصلين الخامس والسادس أن السكان الأصليين في فلسطين لم يطرأ عليهم أي تغيير منذ العصر الحجري (الألف السادس ~ الألف الرابع ق.م) حيث كانت فلسطين ساميّة بالمفهوم اللغوي، وخلال العصر البرونزي أقامت نمطا حضاريا بقي محافظا على كافة خصائصه حتى بداية الحقبة الأشورية على الأقل - أي فترة تدمير مملكة إسرائيل على يد سرجون الثاني – ويشير

أيضا إلى انهيار نظريات الغزو الخارجي قبيل بداية العصر الحديدي الأول، فالسمات المميزة للسكان لم يظهر ما يدل على اختلافها، وبقيت محافظه على نفسها، ويتجلى ذلك الأواني والأدوات والبناء والنقوش وطقوس الدفن وأنماط الاستيطان، ويشير كذلك إلى أن حملة الفرعون «شيشنق» أواخر القرن التاسع ق.م لم تسجل أي ذكر ليهوذا أو القدس أو ملوكها المزعومين، وأنه طوال العصر الحديدي الأول كانت القدس في أفضل الفروض مدينة صغيرة لا تتفوق على مدن مثل لخيش وجازر. وأنه بالنظر إلى استقلال أصول دولتي إسرائيل ويهوذا في القرن السابع ق.م، فمن غير المحتمل أن تكون لهما قاعدة إثنية مشتركة أكثر مما لأي دولتين متجاورتين من دول المنطقة، ومن هنا يخلص إلى القول إن وجود مملكة موحدة توراتية في القرن التاسع ق.م ليس ممكنا، لأن سكان يهودا لم يكونوا قد استقروا بعد، ولعدم توفر القاعدة السياسية الاقتصادية السكانية اللازمة لتكون هذه المملكة.[1]

1 توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 34 50-.

مملكتي إسرائيل ويهوذا

يتفق المؤرخون التقليديون (المتأثرون بالرواية التوراتية) على أن مملكة شاؤول قد قامت عام (1020 ق.م) وضمت القبائل الشمالية المدعوة بإسرائيل، ثم قامت مملكة داوود وسليمان ما بين (1004 ~ 931 ق.م) وقد شملت منطقتي إسرائيل الشمالية، ويهوذا الجنوبية، فيما يدعى بالمملكة الموحدة لكل إسرائيل، وبموت سليمان انقسمت هذه المملكة إلى قسمين متصارعين.

واليوم فإن الحديث عن مملكة «كل إسرائيل الموحدة» هو من نافل القول، ولا يستند إلى أي سند تاريخي، والاسم «إسرائيل» لا يمكن إطلاقه على أي كيان في فلسطين قبل القرن التاسع قبل الميلاد[1]، أي أن أول تسمية صحيحة لإسرائيل هي للدولة الإقليمية المعروفة باسم «السامرة»، وهي الدولة التي أقامتها أسرة الملك «عمري» عقب بناءه مدينة السامرة عام (880 ق.م)، وهي مملكة ورد ذكرها في التوراة والنصوص الآشورية على حد سواء، وهناك شهادات عديدة من مصادر خارجية غير التوراة تؤكد وجود هذا الكيان، مثل مسلة ملك آشور «شلمنصر»، مسلة «ميشع»، ونقش «تل دان».[2]

وكلمة (إسرائيل) التي وُجدت على نقش «مرنفتاح» كانت تدل على اسم منطقة ليس إلا، ولم تكن تدل على اسم قبيلة أو دولة إسرائيل التي ستظهر للوجود بعد هذا النقش بقرون عديدة، واسم (يهودا) أيضا كان اسما لمنطقة قرب أورشالم .[3]

عن هذا الموضوع ذكر «المسيري» في موسوعته: «قام الفرعون مرفنتاح خليفة رمسيس الثاني، بإخماد ثورة كنعانية محلية واحتفالا بهذه المناسبة تظهر أول إشارة في التاريخ لكلمة «يسرائيل» حيث نقش عبارة: «يسرائيل شعب صغير،

1 فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 178.
2 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 163.
3 توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 99 .

لقد دمرته، وانمحت ذريته، فلا وجود له»، وتشير كلمة «يسرائيل» هنا إلى إحدى المدن أو القبائل الكنعانية وليس لها علاقة بالعبرانيين». [1]

بمعنى أن النصوص الآشورية والمصرية التي تزودنا بخارطة سياسية بشرية دقيقة لمنطقة الشرق خلال العصر الحديدي لم تذكر اسم إسرائيل إلا في القرن التاسع ق.م، في معرض الإشارة إلى دولة السامرة تحديدا، أما مملكة يهوذا فلم يرد ذكرها إلا في أواخر القرن الثامن ق.م.

والمكتشفات الأثرية التي تدل على كل من عصري البرونز والحديد تعطي صورة ثقافة فلسطينية/كنعانية متصلة مستمرة واحدة غير متقطعة أو ملونة بلون خارجي غريب عنها، وكل المدن التي تهدمت وأعيد بناؤها كانت تعج بنفس السكان المحليين، ما ينفي وبشكل قاطع وفود أقوام جديدة حلت مكان السكان الأصليين، أو سكنت إلى جانبهم وأثرت بهم ثقافيا وعرقيا، وطوال هذين العصرين لم يعثر على أي شئ يمكن اعتباره ليس كنعانيا سواء في حقل الخزفيات، أو الفنون، أو المعمار، أو اللغة والدين. [2]

إذن، دولة إسرائيل (السامرة) - والتسمية تعود لموقع في فلسطين[3] - ما هي إلا دويلة فلسطينية محلية أنشأها الملك «عمري» في العام (880 ق.م) واستمرت أقل من قرنين من الزمان، حيث دمرها الآشوريون عام (721 ق.م) وسبوا أهلها إلى آشور بشمال العراق، والاجتياح الأشوري لفلسطين والذي وصل حتى الحدود المصرية كان نتاجا للتحالف السياسي / العسكري مع بعض ملوك المدن الفلسطينية، بعد أن كان ولائهم للفرعون المصري، الأمر الذي دفع بالفرعون إلى تحفيز مدن أخرى وأهمها السامرة على الوقوف في وجه المتعاملين مع الأشوريين، وهذا كان من شأنه التعجيل في اجتياح إسرائيل وتدميرها وسبي أهلها، وهؤلاء المسبيون لم يرجعوا إلى ديارهم قط، بل ذابوا عرقيا وثقافيا بين الجماعات التي سكنوا بين ظهرانيها.

ومن هنا فإن الحديث عن إسرائيل إثنية أو سياسية قبل صعود «عمري» وبناء

1 عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، الجزء 4، ص 84. مصدر سبق ذكره.
2 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص 85-84.
3 د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، مصدر سبق ذكره، ص 563.

مدينة السامرة هو من العبث ولا معنى تاريخي له، وكذلك الحال فلا معنى له بعد خراب السـامرة ودمارها النهائي وسـبي أهلها عام (721 ق.م) على يد الملك الآشوري «سرجون الثاني».

ونستدل على أن دولة إسرائيل «السامرة» كانت نتاجا كنعانيا خالصا، أي من خلال الاطلاع على معالم المرحلة لتي نشأت خلالها، ففي تلك المرحلة حصل انهيار في البنى الاقتصادية لفلسطين أحدثت تغيرا جذريا في أسلوب العيش، فبدلا من الاقتصاد التقليدي القائم على تبادل المنافع والسلع أصبح الاعتماد على الرعي وزراعة الحبوب. وقد أدى هذا التحول إلى تهجير أعداد كبيرة من السكان من مناطقهم التقليدية إلى مناطق جديدة تلبي احتياجاتهم الجديدة، وهؤلاء هم القاعدة السكانية التي ستبني الدولة القادمة، والمناطق التي استقرت فيها هي التي شكلت نواة مملكة إسرائيل، وتدريجيا تشكلت بنى سياسية بدائية على شكل عشائر تقاربت ببطء، ثم أدت الإدارة المركزية الجديدة التي نتجت عن اقتصاد بدأ بالازدهار إلى بناء مدينة السامرة عاصمة الدولة، ومن هنا فإن الطابع الإثني لدولة إسرائيل قد نما وتشكل ضمن عملية معقدة طويلة، وظهر للوجود لأول مرة بعد دولة السامرة وليس قبل ذلك[1]، ويقول «توماس ل.طومسون» إن إسرائيل هذه نشأت فقط بسبب اقتلاع السكان الزراعيين في الأراضي المنخفضة بتأثير القحط الذي أصاب المنطقة.

وفيما يتعلق بمملكة يهوذا (والتسمية تعود للاسم الكنعاني لمنطقة أورشالم وصحراء يهوذا جنوب فلسطين[2]) فقد شهدت المنطقة خلال القرن العاشر وأوائل التاسع قبل الميلاد تحولا من اقتصاد محصور بالرعوية إلى اقتصاد القرية، وطوال القرنين التاليين، أي التاسع والثامن قبل الميلاد، شهدت منطقة يهوذا ارتفاعا في الإنتاج الزراعي والحيواني جعل منها مصدرا مهما لتبادل السلع والتبادل النقدي مع المراكز الحضرية المحيطة وازديادا ملحوظا في السكان، أدى إلى توضيح بنيتها السياسية كمنطقة مستقلة، ثم أخـذت مدينة أورشـليم – التي كانت في القرن العاشر ق.م مجرد بلدة عادية متواضعة بمقياس ذلك

1 فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 180.
2 فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 183.

العصر - أخذت بالنمو والتحول إلى مركز لتسويق السلع التجارية وبسط نفوذها على القرى المجاورة، وقد تضاعف عدد سكانها في القرن السابع ق.م وشهدت رخاءً لم تشهده من قبل، وازدهرت فيها صناعة الزيتون، وسيطرت على طريق التجارة الدولية، وقد ساعدها على هذا النمو خـراب مدينة السامرة إثر السبي الآشوري عام (721 ق.م)، ثم أخذت تنافس مدن الجنوب وتتفوق عليها، فاستوعبت المهاجرين من المناطق المنكوبة، وتزايد عدد سكانها، ومال مجتمعها من البساطة نحو التركيب والتمايز الطبقي، وتشكلت فيها نخب اجتماعية/ سياسية مسيطرة، استطاعت أن تستفيد من غياب مملكتي دمشق وإسرائيل عن الساحة، لتجعـل من نفسها حارسا على طرق التجارة الدولية، وصارت على حال من القوة والثروة بحيث أخذت تفكر جديا بالاستقلال عن آشـور، وقد شجعهم على ذلك ملوك مصر الذين أقلقهم وصول أشور إلى حدودهم الشمالية.

وهكذا نشأت مملكة يهوذا نحو عام (735 ق.م) والتي دامت قرابة قرن ونصف من الزمان، وبازدهارها وتدخلها في سياسة التجارة الدولية أدى ذلك إلى تصادمها مع البابليين، فيما عرف بالسـبي البابلي عـام (587 ق.م) على يد الملك الكلداني «نبوخذ نصر»، الذي أسدل الستار عن هذه المملكة المنقرضة.

وكما هو الحال في مملكة إسرائيل، يمكننا القول أن مملكة يهوذا أيضا نشأت ونمت وتشكلت ضمن البيئة الكنعانية، ولعل أبرز دليل على ذلك هو عدم وجود أي أثر للمعتقد الديني التوراتي في هاتين المملكتين وفي بقية أنحاء فلسطين خلال الفترة التي سبقت السبي البابلي، والديانة التي كانت سائدة هي ديانة كنعانية تقليدية، وجميع المعابد والمقامات الدينية والتماثيل وشارات الآلهة واللغة السائدة هي الكنعانية، وكل ما كشفت عنه التنقيبات الأثرية على المستوى العقائدي/الديني، أو الثقافي، أو المعماري، أو أنماط الحياة هو استمرار للمعتقدات الدينية والحياة الثقافية للعصور السابقة بطابعها الكنعاني، وتدل على أن سكان هذه الممالك كانوا يعبدون الأصنام، وأنهم بالرغم من عبادتهم الإله يهوه، فهم أيضا عبدوا الإله بعل.[1]

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 163.

أما الإله «يهوه» الذي تركز من حوله المعتقد التوراتي فيما بعد؛ فقد كان المعبود الرئيسي في السامرة ويهوذا[1]، ورغم عُلُوّ مكانته فقد كان إلى جانب الآلهة الكنعانية الأخرى، ولم يكن الإله الأوحد للجماعة، وعبادة يهوه يجب أن تُفهم على أنها تطور محلي ضمن الديانة الكنعانية/الفنيقية، أما وحدانية اليهوهية في العهد القديم فتُفهم على أنها من إنتاج الطبقة الكهنوتية المقدسية في الفترة التالية للسبي، بمعنى أن ديانة يهوه في فلسطين التي لم تكن موجودة حتى انهيار مملكة إسرائيل قد اكتسبت الشكل التوراتي بعــد ذلك، وأنها كانت في تلك المرحلة في طور التشكل على أيدي كهنة أورشليم بعد العودة من بابل.

1 فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 184.

السـبي البابلي وبداية التاريخ اليهودي

يقول «فراس السواح»: «كانت عمليات التهجير المنظمة التي ابتدأت فعليا في عهد الآشوريين بمثابة العماد الرئيسي للأيديولوجيا السياسية للإمبراطورية، وقد طالت كافة المناطق التابعة لها من إيران حتى حدود مصـر، ومن المؤكد أن سياسة الترانسفير هذه كان لها أعمق الأثر في التكوين السياسي والسكاني والاقتصادي والإثني للأراضي المقهورة، وفي سياق هذه السياسة هُجِّرتْ أقوام واقتلعـت شعوب بأكملها من أوطانها وحل محلها آخرون وهكذا». وقد يكون تقدير عدد الذين طالتهم عمليات التهجير بأنه قد بلغ الملايين، ضمن عشرات الغزوات العسكرية فيه شيء من المبالغة، مع أن السواح يؤكد أنها ليست مبالغة.[1]

أما عن أهداف سياسة التهجير الآشورية (وفيما بعد البابلية والفارسية مع فرق في الأسلوب) فهي متعددة: فهي أولاً كانت بمثابة عقاب للشعوب الثائرة والمتمردة، وثانيا فقد كانت تهدف إلى توطين هؤلاء المهجرين في مناطق جديدة، ومدّهم بالأراضي الخصبة والأملاك، ودعمهم ضد السكان المحليين، الذين سينظرون إليهم كممثلين للسلطة الإمبريالية؛ وبالتالي فهم عبارة عن جيوب للنفوذ الإمبريالي ضد الثورات والقلاقل، أو أن عميات التهجير تلك كانت تتم لغرض تغيير التركيبة السكانية في المناطق المتمردة، وخلخلة التجانس الإثني فيها - كإجراء وقائي - يهدف في النهاية إلى منع إمكانية حدوث تمرد في المستقبل، وثالثا كان قسم لا بأس به من المهجَّرين يُوطَّنون في مناطق جديدة خالية، بهدف إعمارها وإحيائها لصالح الإمبراطورية، أما إعادة التوطين في مناطق آشور نفسها فقد استهدف رفـد القوة العسكرية بأفضل الجنود من البلاد المقهورة، وأيضاً فقد كان الهدف الاستفادة من ثروات البلاد المقهورة من خشب ومعادن، ومن الأيدي العاملة كقوة إنتاج تعمل بالسخرة، إلى جانب

1 فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 250.

الاستفادة من طبقة المثقفين في شتى وظائف القصر والأعمال الإدارية، وأخيرا محاولات الإمبراطورية حماية حدودها بخلق الكيانات الموالية لها على أطرافها، وتمهيد الطريق لضمان وصولها إلى البحر المتوسط.[1]

وكعادة كل القوى الاستعمارية كانت العسكرية الآشورية تقدم نفسها كمخلص للشعوب من حكامها الظلمة ومن أوضاعها المزرية، وتغلف ممارساتها القاسية بشعارات براقة.

والأشوريون زمن «سرجون الثاني» وابنه «سنحاريب» كانوا قد هاجموا أورشاليم وفرضوا عليها حصارا انتهى باعتراف يهوذا بسيادة الأشوريين ودفع الجزية لهم، واستمر ذلك حتى سقوط نينوى عام (612 ق.م) وقيام الدولة البابلية.[2]

وبعد أفول الإمبراطورية الآشورية وصعود البابليين كقوة كبرى، مارست هذه الأخيرة ذات السياسة بفوارق بسيطة، إذ كان البابليون يركزون على منح المهجرين أراضي خصبة ويغدقوا عليهم حتى يصيروا ممثلين للسلطة في تلك المناطق، ويساعدونها في أي حملة قمع ضد القوى المحلية الثائرة، وبذلك فإن حكام بابل كانوا يتحكمون بحركات الشعوب بهدف خلق جيوب وشرائح اجتماعية موالية ومدعومة ومدربة، تلعب دورا في تهدئة القلاقل، وتخفيف حدة المعارضة، وتنفيذ سياسات الدولة العليا.

ومن بعد البابليين جاء الفُرس، واستمروا في نفس النهج ولذات الأهداف، مع تغير في الأساليب وتحويلها من فرض الخوف والرعب بالقوة، إلى محاولات كسب الدعم والولاء والطاعة، وإقناع الشعوب بالحاكم الجديد، مستخدمين خطابا إعلاميا دوغمائيا يعتمد على تضليل الناس، وتصوير السيد الجديد بأنه المحرر من نير الاستعباد وظلم الحاكم السابق.

ومع أن الفرس مارسوا نفس أساليب التهجير؛ إلا أنهم دأبوا على إعادة توطين المهجرين في المناطق التي هجرهم منها البابليين والآشوريين من قبلهم، إلى جانب هذا التشابه في أساليب توزيع المهجرين وكسب ولائهم كان التشابه الآخر

1 فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 252-250.
2 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 102.

يتمثل في استغلال العامل الديني / الروحي، من خلال تجسيد فكرة الإله الواحد الذي يمثل قوة الإمبراطور ويعبر عنها، وهذا الإله الذي يتجسد بأكثر من شكل في كل إقليم على صورة إله محلي يستمد قوته من قوة الإله الأوحد البابلي، ولكن عمر الإمبراطورية القصير وسقوطها على يد الفاتح الفارسي حال دون إكمال هذا المشروع ووضعه بين أيدي القوة الجديدة الصاعدة، التي ورثت كل بابل لفترة طويلة قادمة.

وهكذا وضع «كورش الفارسي» سياسته هذه موضع التنـفيذ وسارت عمليات إعادة الشعوب ومعها آلهتها على قدم وساق، وكما أعاد «نابونيد» بأمر من إله السماء بناء معبد ديانة «سين» القديمة في حران، رأى «عزرا» أن «كورش» كان يتصرف وفق أوامر إله السماء الأعلى، الذي أمره بإعادة بناء معبد ديانة يهوه في القدس. ولا يعني هذا أبدا أن الإمبراطور قد تحول إلى المخلص الذي يحرر الشعوب ويعيد لها كرامتها واستقلالها ويضمن حريتها الدينية! ذلك أن كل ما هدفت إليه السياسة الفارسية هو خلق نظام إداري للإمبراطور ذي طابع لا مركزي من حيث الشكل، يساعد على حكم المناطق الشاسعة للإمبراطورية بكفاءة عالية وبنفقات أقل، كما يساعد على فرض القوانين والشرائع الفارسية بعد إعطائها الطابع المحلي، أو بعبارة أخرى اعتماد نظام الحكم الذاتي على أساس إقليمي، بمعنى إدارة مركزية بوجه محلي إقليمي.[1]

وهكذا أقامت الإمبراطورية كيانات إقليمية موالية وتابعة وتستقبل عن طيب خاطر القوانين الفارسية؛ فإمبراطورية على هذا القدر من المساحة والاتساع لا يمكن ضبطها إلا بقانون تشريعي واحد وإله واحد تتنوع أسماؤه في الأقاليم، ولكنها تتحد أخيرا تحت مفهوم الإله الواحد القوي للإمبراطورية الذي يجسده الإمبراطور نفسه، هذه السياسة الفارسية كانت تطويرا لما كان البابليون قد بدءوه ولم يسعفهم الوقت لإتمامه.

وجاءت عودة المسبيين على عدة موجات كان أولها عقب دخول «كورش» إلى بابل عام (539 ق.م) والموجة الثانية في عهد داريوس (عام 522 ق.م) وكانت

1 فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ص 276.

بقيادة الوالي الجديد على أورشليم «زربابل» وتضم إلى جانب المسبيين عددا من العبيد وبعــض القبائل التي هجرت من أماكن أخرى وكانت تبحث عن حظوظ جديدة، وكان اهتمام «داريوس» بعودتهم يأتي ضمن عمليات الإصلاح الإداري الشامل التي قادها في جميع أنحاء الإمبراطورية، وعملية ترميم وتنشيط البنى السياسية المحلية في كل مكان.[1]

يعلق «السواح» على هذه الأحداث قائلا: «واضح بالطبع أننا لا نتعامل مع إعادة منفيين إلى موطنهم، أو إعادة ديانة قديمة منسية، أو ترميم معبد مهمل، بل مع إيجاد شعب جديد وديانة جديدة، أو ما يمكن اعتباره خلقا لمجتمع جديد متمركز حول معبد جديد، ويديره المسئول الفارسي.

أما الجالية الجديدة في أورشليم فكانت أمام خيارين: إما قبول شريعة الملك، أو مواجهة أقسى العقوبات، وهذا يعني إنها أمام نوع من عقد الإذعان المفروض عليها من قبل السلطة الفارسية، ولم يكن أمامها من خيار سوى القبول بلائحة القوانين الجديدة التي تنظم حياة المجتمع الجديد الدينية والسياسية والاجتماعية وفق الخطة الموضوعة لها من قبل الإمبراطورية.

وقد كان هذا العهد الذي قطعه سكان أورشليم أمام عزرا الكاهن ممثل الإمبراطورية الفارسية بقبول شريعة الملك وشريعة الرب بمثابة بداية التاريخ اليهودي».

والسؤال التاريخي المحوري هو: هل هؤلاء العائدون من بابل هم فعلا منفيون يعيدون بأمانة ماضي إسرائيل؟ أم أن تصورهم الذاتي لأنفسهم كمنفيين يخدم النشأة الأيديولوجية لإسرائيل جديدة؟

مهما كان الشعب الذي نقل أو أعيد إلى فلسطين، قسرا أو طوعا، فهم بكل تأكيد لم يكونوا إسرائيليين لا إثنيا ولا روحياً، ورغم ذلك أصبح الفُرس يعتبرونهم إسرائيليين، وأصبحوا هم يعتبرون أنفسهم سكان إسرائيل المفقودة منذ زمن، والعائدين إلى أرض إسرائيل من منفى مرير، بعد أن خلصهم سيدهم ومنقذهم

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 288.

«كورش». وهكذا بمساعدة الفرس تم تحديد الهدف: إعادة ديانة يهوه القديمة.[1]

وبالفعل، بدأت المدينة تتكيف مع الواقع الجديد، وقد أخذ كهنة أورشليم على عاتقهم هذه المهمة الصعبة والشاقة والمعقدة، ونقطة البداية هي تأسيس تاريخ لهذا المجتمع الجديد، واختراع أصل نبيل يليق به، واعتبار أن تاريخ هذه الجماعة هو تاريخ إسرائيل، وتبرير الاستيلاء على الأرض، ومن الطبيعي أن تنتظم هذه الدعاوى في كتاب سماوي يستمد قوته من قوة الإله، وبالتالي بدأ هؤلاء الكهنة بتدوين التوراة، وكتابة ماضي عريق لهذا المجتمع الجديد.

ومن الطبيعي أن المعارضة الأولية لجهود من أُطلق عليهم «العائدين» والرامية إلى إيجاد ديانة مركزية ومركز سياسي في القدس أتت من السامرة - علما أنه لم يجرِ أي اتصال بين المسبيين من يهوذا وإسرائيل طوال فترة السبي - ولكن هذه المعارضة لم تدم، لأنه بات من المجدي قيام تضامن إثني – ديني على أساس مفهوم العودة، وهذا بدوره أدى إلى نشوء إثنية تمركزت حول عبادة يهوه. وما تحول المركز الديني من السامرة إلى القدس إلا مظهر من مظاهر تقرب سكان السامرة من ناحية، وشكل لترشيد النظام الإداري الفارسي من ناحية ثانية.[2]

بعثُ الديانة الجديدة، وفرض أنظمة اقتصادية وقانونية على المجتمع تحت حكم الكهنة العائدين شكَّل تهديدا حقيقيا للنظام القائم وللسكان المحليين، الأمر الذي أدى لاحتجاجهم، هذا الأمر كان من أهم الواجبات التي على إسرائيل الجديدة أن تعالجها، ومن هنا بدأت عمليات تدوين التوراة.

ويضيف «السواح»: «وفي الحقيقة، إن عملية التدوين هذه لم تكن تهدف إلى إنتاج نص أمين عن الماضي، بل كانت تهدف إلى صياغة نص يعطي صورة للحاضر ويؤسس للمستقبل، بمعنى آخر فإن ما يبدو في هذه الأسفار على أنه تأمل تاريخي ليس أكثر من تأمل مستقبلي، يرسم صورة للمجتمع الجديد، باعتباره وريثا للمجتمع القديم المليء بالأمجاد وقصص البطولة..

ولقد صاغ كهنة أورشليم قصة الأصول حول إسرائيل وليس حول يهوذا كما

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره. ص 290.
2 توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 291.

هو متوقع، والسبب في ذلك أن الجماعات التي سيقت إلى أورشليم من بابل قد ضمت إلى جانب بقية سبي يهوذا شرائح من شعوب مسبية أخرى كانت قد فقدت ارتباطها مع موطنها الأصلي ولا تمانع من التوجه إلى أي منطقة، مستفيدة من سياسة الإنعاش وإعادة البناء، ومن المرجح أن الإدارة الفارسية قد ضمت إلى هؤلاء جماعات كانت تعيش حياة البؤس والكفاف من المناطق الفلسطينية الأخرى، وبما أن دولة إسرائيل (السامرة) كانت آخر الدويلات الفلسطينية وأقواها وأكثرها شهرة وكان إلهها الرسمي يهوه - أعلى الآلهة الفلسطينية شأنا آنذاك - فقد تم إفهام العائدين والمرحَّلين إلى أورشليم بأنهم ورثة مملكة إسرائيل».

وهكذا مع تشكيل الكيان اليهودي الجديد في أورشليم ككيان سياسي ينتمي إلى النظام العالمي الفارسي الجديد، تدخل القصة التوراتية عتبة التاريخ للمرة الأولى، ذلك أن تقسيم تاريخ بني إسرائيل إلى ثلاث فترات هي ما قبل السبي وفترة السبي وما بعد السبي هو تقسيم باطل على ضوء ما تقدمنا به إلى الآن، فبنو إسرائيل ليس لهم وجود خارج مجال القصة التوراتية ولا تدعم وجودهم أي من حقائق التاريخ، أما تاريخ دولتي السامرة ويهوذا فقد انتهى وزال تماما وصار ملكا للذاكرة البشرية جمعاء بعـد زوال إسرائيل عام 721 ق.م وزوال يهوذا عام 587 ق.م شأنهما شأن الكثير من الممالك والدول والحضارات التي سادت ثم بادت وانتهت ولم تعد موجودة إلا في كتب التاريخ القديم.

أما التاريخ اليهودي فقد ابتدأ فـقط مع بناء أورشليم الجديدة وهيكلها الجديد في زمن «كورش» و«داريوس» الفارسي أي بعد العام 520 ق.م، ولا يمكن اعتباره استمراراً للتاريخ الفلسطيني على أي صعيد، أو تصوره على أنه صفحة جديدة في تاريخ فلسطين القديم، بل هو تاريخ مستقل في أصوله ومساراته ومصائره.[1]

1 فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 290.

الديانة اليهودية

يؤكد القرآن الكريم أن الديانة التي دعى إليها النبي موسى لم تكن تختلف في محتواها ومضمونها عن جميع الديانات السماوية الأخرى، فهي في جوهرها دعوة الناس لعبادة الخالق الأوحد، وعدم الشرك به، وما تضمنته الألواح والوصايا العشر فيكاد ينحصر في الدعوة إلى مكارم الأخلاق والقيم الإنسانية، وهي بطبيعة الحال دعوة للبشرية وليست حكراً على قوم معينين دون غيرهم من الأقوام. ويؤكد المؤرخون أن هذه الديانة نشأت في البيئة المصرية، وكانت امتدادا لدعوة الفرعون أخناتون وتطويرا لها، وأتباع هذه الديانة أغلبهم من الجنود المصريين الذين كانوا قد آمنوا بأخناتون من قبل، وتبعهم فئات اجتماعية أخرى.

ولم يتمكن الموسويون - الذين سرعان ما انقلبوا على موسى حتى في أثناء عهده - من تشكيل إطار واضح ومحدد المعالم لهذه الديانة، ولم يرسخوا تقاليد وطقوسا متكاملة لها، وبقي بناء هذا الدين غير مكتمل النضوج في الفكر والمنهج والفلسفة، وذابت معالمه شيئا فشيئا بعد موت موسى.

أما مصطلح «يهود» أو «يهودي» فـقد استعمل لأول مرة من قبل البابليين في إشارة إلى من جيء بهم من يهوذا (الاسم الكنعاني لمنطقة أورشاليم) وهو أسلوب شائع حيث يطلق على من جاء من مصر بالمصري أو من جاء من سوريا بالسوري... وقد ورد مصطلح «يهودي» على لسان سنحاريب الأشوري (705 ~ 681 ق.م) حيث أشار إلى «حزقيا اليهودي» أي الذي أحضر من يهوذا.[1]

لم تستعمل لفظة «ديانة يهودية» في المراحل الأولى من الأسفار، ولم يبدأ الحديث عن الديانة اليهودية إلا في القرن الرابع ق.م، بعد أن طورت هذه الديانة

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 147.

أفكارها وطقوسها المتكاملة وأسست لنفسها إطارا موضوعيا؛ أي بعد مرحلة السبي إلى بابل، حيث بُدء بكتابة التوراة، وبناء إطار مادي لليهودية، واستكمل في أورشاليم على يد العائدين من بابل.

أي أن ما تم إحياؤه في أورشليم كان بناء كيان يهودي موالٍ وتابع للحاكم الجـديد (الإمبراطورية الفارسية) ولم يكن بأي حال من الأحوال على صلة بديانة موسى، أو إحياءً ليهوذا ولا لإسرائيل القديمة، بل خلقاً لمجتمع ودين جديدين، قوامهما فئات اجتماعية متعددة الأعراق والمنابت، وكان انتماؤهم إلى تلك الإسرائيل بمجرد تصور جذورهم في المنفى البابلي، وإقحامهم لأنفسهم في التاريخ القديم للمنطقة، بغض النظر إذا ما كانوا يتحدرون من بقية يهوذا المسبية أم من أي منطقة أخرى.

فالديانة اليهودية التي نعرفها الآن تكونت فعليا في بابل، وتطورت بعد ذلك في القدس خلال فترة الحكم الفارسي وبأمر منه، ووصلت مرحلة النضوج شبه الكامل في الفترة اليونانية والرومانية، وهي الفترة المعروفة بمرحلة المكابيين.

ويشتمل سِفر «عزرا» في العهد القديم على سرد لنشاطات «عزرا» الكاهن (الكاتب المؤهل لشريعة موسى) الذي فوضه ملك فارس صلاحية تعيين قضاة وحكام في فلسطين، وكل من لا يأتمر بقانون الله وقانون الملك يطبق عليه حكم معجل بالإعدام أو النفي أو السجن.[1]

ويعتبر «ساند» أن العقيدة اليهودية الأولى صيغت في بابل، وبقية أقاليم المنفى، التي أضحت مقر الإقامة الدائمة لأولئك المؤسسين لليهودية. ويضيف: «وحقيقة كون أورشليم ظلت بالنسبة للمؤسسين مركزا مقدسا لم تتناقض بتاتا مع واقعهم الديني، ففي الديانات الأخرى كالإسلام والمسيحية وُجد دائما مركز مقدس، دون أن يكون هدفا للهجرة، إنما ظل محطا للأشواق الدينية، ومزارا يحج إليه المؤمنون». ويؤكد أيضاً أن التلمود البابلي كان يحظى بتقدير واحترام

---

1 إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، ط1، 1995، بيروت، ص 82.

أكثر من التلمود الأورشليمي، ويرجع ذلك لكونه أتى من مجال ثقافي أعلى.[1]

ويؤكد «إسرائيل شاحاك» أن مصدر كل الممارسات والطقوس الدينية في الكلاسيكية اليهودية (اليهودية الأرثوذكسية) والقاعدة التي تحدد شرعيتها هي التلمود، وليس التوراة، وبتعبير أدق التلمود البابلي، أما باقي الأدب التلمودي بما في ذلك تلمود القدس، فهو ليس أكثر من مرجع إضافي.[2] ويضيف «شاحاك» في معرض وصفه للتلمود: «من الواضح تماما أن التلمود الذي استغرق تأليفه خمسة قرون، يعتبر شأنا محليا تحديدا، ولم يسهم في تأليفه أي عالم من خارج منطقة وادي الرافدين، ولا يعكس النص ظروفا اجتماعية من خارج هاتين المنطقتين».[3]

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 194.

2 إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، ط1، 1995، بيروت، ص 62.

3 إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، نفس المصدر السابق. ص 65.

التوراة واللغة العبرية

تقوم الديانة اليهودية على مصدرين: التوراة (العهد القديم) والتلمود (التعاليم والشرح والتفسير) وتتكون التوراة من 39 سفرا، وتقسم إلى ثلاثة أقسام: يضم القسم الأول الأسفار الخمسة، والقسم الثاني يضم الأنبياء، ويشمل الأنبياء الأوائل والمتأخرين، فيما يضم القسم الثالث الكتابات والمزامير والأناشيد والمراثي، وقد بدأ تدوين التوراة للمرة الأولى في بابل على يد الكهنة الذين تم سبيهم من يهوذا في زمن «نبوخذ نصــر» كما سبق وأسلفنا.

والتوراة عبارة عن نص أدبي مقتبس تولّى مهمة تأريخ أحداث وقعت قبل عملية تدوينها بمئات السنين، وجَعْلُ هذا التاريخ بمثابة تراث خاص باليهود – القاعدة السكانية للمجتمع الجديد – والتراث الذي استمدت منه المصادر الوثائقية كان في الأصل مرويات شفوية ومجموعات من القصص التي تألفت من الحكايا الشعبية والأساطير والملاحم، وهذه الحكايات وإن كان في بعضها ما له علاقة بالتاريخ فإن أكثرها تنتمي إلى عالم الخيال[1]، وهذه الأساطير هي خلاصة عدة ثقافات جمعت بشكل غير متجانس، مما يدل على تنوع مصادرها واختلاف مبدعيها وتمايز بيئاتها الجغرافية والاجتماعية، وهي تعبر عن صورة التفكير لدى شعوب وادي الرافدين والهلال الخصيب في ذلك الزمن.[2]

والتوراة تمزج الأحداث مزجاً لا منطقيا، وتسبر المسافات الزمانية بطريقة سريالية، فتربط ما بين عصر الآباء وبين عصر موسى، متناسية ستة قرون تفصل بينهما، والاختلافات الجوهرية في البــيئة واللغات والسياقات التاريخية والظروف الموضوعية التي أحاطت بالعهدين، وهي تعتبر بذلك أن هذه العصور وكأنها حالة واحدة، ثم تعاود ربط هذه العصور مرة ثانية بعصر تدوين التوراة،

1 توماس طومسون ، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 12.
2 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 23.

وكأن مسار التاريخ عبارة عن خط مستقيم رُسم على صفحة بيضاء، ويكاد يكون مُخْتَزَلاً بأخبار أسرة إبراهيم التي تناسلت عبر قرون عديدة وأنتجت تاريخ بني إسرائيل!

وقد حاول محررو التوراة توظيف هذه الأساطير في قالب شبه تاريخي لخلق ماضٍ متخيل لما أطلقت عليه تسمية شعب إسرائيل، وخلق شريعة خاصة بهم أسوة بالشعوب والحضارات السائدة آنذاك، وهي شريعة لا تصلح لغير زمان تلك المجتمعات البدائية، وهي متناقضة مع شريعة التوحيد التي جاء بها موسى، وادعى هؤلاء اليهود صلتهم بها، وأنها تمثل امتدادا تاريخيا لهم.

فالمعتقدات الدينية والآلهة وطقوس العبادة والدفن وتقديم القرابين والتصورات الفلسفية عن بدء الخليقة والحياة الآخرة والخير والشر والحساب والملائكة والشيطان والحِكم والوصايا والتعاليم والشرائع والأحكام المدنية وكذلك القصص والأساطير والشخوص الواردة في التوراة جميعها مقتبسة من المدونات والثقافات المحيطة، سواء في مصر أو بلاد الشام أو وادي الرافدين، ولم تكن تعبر عن أدب يهودي مبتكر، حتى الألواح التي نزلت على موسى وتضمنت الوصايا العشر جرى تحريفها إلى درجة يصعب التأكد من تاريخيتها.

وعندما وصل «عـزرا» إلى أورشاليم قادما من بابل قرأ فصول التوراة التي كتبها هناك بإحدى اللهجات الآرامية، حيث اختار هذه اللهجة الآرامية بالذات لتكون هي «اللغة المقدسة»، كما أنه حمل معه الخط الآرامي المربع الذي أصبح أسمه تاليا «الخط العبري»، علما بأن التوراة بكل أسفارها لم تذكر لفـظة اللغة العبرية، بينما أشارت إلى لغة كنعان نصاً، وأفادت أن الموسويين تحدثوا بلغة كنعان، وكذلك ذكرت اللغة البابلية والآرامية.

وفيما يتعلق بلغة موسى والموسويين فلا يوجد أي دليل أو نص يشكك في أنهم مصريون، وأن اللغة التي تحدثوا بها لا بد وأن تكون اللغة المصرية[1]، وعندما استوطن قسم منهم في فلسطين تحدث الكنعانية، وفي وقت حدوث السبي الأشوري والبابلي في القرنين السابع السادس ق.م كانت الآرامية هي اللغة

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 207~252 .

السائدة والمسيطرة في المنطقة كلها، بما فيها بلاد آشور نفسها فكانت لغة هؤلاء المسبيين، واستمرت كذلك حتى في العهد الفارسي، ولذلك فإنه من الطبيعي أن تكون هي اللغة التي كتبت بها التوراة وبالخط الآرامي المربع، وفيما بعد تمت ترجمة التوراة إلى اليونانية ومن ثم إلى اللهجة الآرامية مرة ثانية، وهي التي عرفت بالترجمة السبعونية، وقد أطلق عليها اسم اللغة العبرية في العهد اليوناني، وتحديدا زمن المكابيين.

ومن الجدير ذكره في هذا المضمار أن الهجرة الآرامية إلى بلاد الشام قد بدأت في منتصف الألف الثاني ق.م، وأن اللغة الآرامية والكنعانية هما لهجتان ضمن لغة واحدة، وهي متطورة عن العربية القديمة التي كانت شائعة في وادي الرافدين وبلاد الشام قبل ذلك، ولــم يكتسب الآراميون اسمهم الخاص إلا في حدود القرن الحادي عشر ق.م زمن الملك «تغلات بلاسر الأول» (1100 ق.م) ولم يكن حتى منتصف القرن الثامن ق.م لغة آرامية مستقلة.

بمعنى أن الآرامية كلغة نضجت وعاشت عصرها الذهبي، وأصبحت لغة دولية ورئيسية في الشرق الأدنى كله بعد قرون عديدة من زمن الآباء أو زمن الموسويين، وبالتالي فإن العبرية والتي هي مشتقة منها لم تكن موجودة في الفترات السابقة (فترة الآباء وفترة الموسويين)، في حين أن أول الكتابات التي يمكن نسبتها إلى اليهود هي المخطوطات على المسكوكات اليهودية في الفترة ما بين (135 ق.م ~ 132 م) في وقت كانت فيه اللغة العبرية تنمو، ولم تكن أكثر من أحرف آرامية بأسلوب توراتي، أما أقدم نص عبري على الإطلاق فهي مخطوطات البحر الميت (في خربة قمران) التي اكتشفت عام 1947 وتعود إلى العام 41 ق.م فقط، وحتى اليوم لم يعثر على أي نص عبري قبل هذا التاريخ[1]. ومن الجدير بالذكر أنها كتبت مباشرة باللغة الآرامية.[2]

إذن فاللغة العبرية ولدت في القرن الخامس والرابع ق.م، ونمت وتطورت بعد ذلك وتبلورت في القرن الثاني ق. م وتميزت كلغة في القرن الخامس بعد الميلاد،

---

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 13-12.
2 محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 35.

وكلمة عبري وعبراني ما هي إلا صياغة من قبل حاخاميي فلسطين في وقت متأخر.

واللغة العبرانية في بدايتها كانت هي نفس اللغة الكنعانية ولكن بالخط الآرامي المربع، ويعترف الكتاب المقدس صراحة بذلك في سِفر أشعيا بأن «اللغة العبرية هي شفة كنعان»، وقد كتُبت التوراة أول مرة بلغاتها الأصلية الثلاث: العبرانية (الآرامية) والكلدانية واليونانية ثم تُرجم منها إلى اللغات الأخرى.[1]

ويكتسب الحديث عن اللغة العبرية أهمية خاصة واستثنائية تختلف عن الحديث عن أية لغة أخرى، حيث أن الإدعاءات الصهيونية تقوم على فكرة القومية اليهودية ووحدة الأصل للشعب اليهودي وتاريخه المتصل... فإن هذه الفكرة لن يكون لها أي معنى جدي دون أن تثبت الصهيونية أن اللغة العبرية هي لغة عريقة وقديمة شأنها شأن باقي اللغات السامية الحية، ومن ثم تثبت علاقة الشعب اليهودي التاريخية مع هذه اللغة، وهذا من منطلق الفهم القائم على حقيقة أن الكيان القومي لا يصل إلى مرتبة نشوء وتكوين أمة إلا بإتقان لغة واحدة، ولذلك نرى أن الصهاينة قد عملوا على إحياء العبرية تحت شعار « لغة واحدة وشعب واحد».[2]

فاللغة إذن هي أحد المكونات الأساسية للهوية القومية والعرقية لأي شعب، إلا أن هذه الأهمية تختلف باختلاف الأوضاع والسياقات، فتقل أو تزيد تبعا لعوامل معينة، ولكن فيما يتصل بالموضوع اليهودي فإن اللغة تكتسب أهميتها القصوى، لأن الهوية اليهودية مبنية على أسس دينية / أسطورية وكانت اللغة فيها تمثل نقطة ضعف كبيرة.

وقد لعبت العبرية دورا معينا في الحفاظ على الروح اليهودية طوال القرون الماضية، والقول بأنه لولا اللغة العبرية لضاع اليهود تماما وانصهروا مع الشعوب الأخرى التي كانوا يعيشون بينها فيه الكثير من المبالغة؛[3] إذ إن أجيالا عديدة من اليهود ولدت وماتت ولم تنطق بكلمة عبرية واحدة، ومع هذا كانت معرفة

1 سيد القمني، النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة، ص 37.
2 محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 41.
3 محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص 32.

العبرية واستعمالها في الصلوات والشعائر والطقوس الدينية حافزا على تعزيز الشعور بالانتماء تجاه اليهودية على المستويين الذاتي والقومي، ومن ناحية ثانية – وهي الأهم – فإن القوانين التي فرضتها أوروبا على التجمعات اليهودية وعزلهم داخل الجيتوات كان له الأثر الأكبر والحاسم في حماية الخصوصية اليهودية وسط التقلبات التي عصفت بأوروبا في العصور السابقة.

وتداعيات عصر النهضة أدت إلى ثورة فكرية ولغوية، إلا أن اليهود، لم يشاركوا في التغيرات اللغوية التي حصلت في أوروبا آنذاك لسببين: توزع اليهود على هيئة جماعات في العديد من الدول والثورة اللغوية تتجسد عادة في كيان وطني يجمع شمل أبناء الأمة في مكان واحد، والسبب الثاني: خوف الجماعات اليهودية من بعث العبرية حيث اعتقدت أن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى مزيد من العزل لليهود عن الحضارة الأوروبية وعدم الاستفادة من حسنات عصر النهضة، ومن ناحية أخرى خوفهم من عزوف مثقفي اليهود عن الكتابة بالعبرية وتوجههم للكتابة باللغات الأخرى.[1]

في العصور الوسطى دخل على العبرية تطورات أخرى كان من بينها وأهمها ما أدخله «سعيد بن يوسف الفيومي» في القرن العاشر الميلادي من قواعد لغوية متأثرة بقواعد اللغة العربية، وكذلك «مناحيم بن سروك»، و«يهوذا بن داوود» في القرن الثاني عشر للميلاد. وبعد انتقال مركز التوراة من العراق إلى الأندلس نما الأدب العبري وتطور، وقد عرف اليهود فيها اللغة العربية – اليهودية (اللادينو)، وهي كلمات عربية مدونة بأحرف عبرية وانتشرت هذه اللغة في أوساط المثقفين اليهود، فألّفوا بها كتبا في العلم والفلسفة والدين والأدب، وقد كان الفيلسوف اليهودي «موسى بن ميمون» في الأندلس يكتب الشعر العبري حسب بحور الشعر العربي، كما ألف كتاب دليل الحائرين باللغة العربية، وقد دافع هؤلاء الكتّاب عن استخدامهم العربية بحجة أن العبرية لا تكفي لاحتواء جميع مفردات المواضيع العلمية والفلسفية، وقد اعتبر عصر الأندلس عصرا زاهرا في الأدب العبري شمل التقدم في تفسير التوراة ووضع قواعد العبرية.

1 د. محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، مدار – رام الله 2002 ط1 ص 39

وقد ساهمت حركة الترجمة إلى العبرية التي تولاها مثقفون يهود بإضافة مفردات جديدة لم تستخدم من قبل في مجالات العلوم والفلسفة وغيرها.[1]

ويمكننا القول إن اللغة العبرية كانت لغة ميتة، أو تغـط في سبات عميق طوال القرون الماضية، حيث إنها ظلت لغة دينية تستعمل في تأدية الطقوس والشعائر وقراءة التراتيل، ولم تكن لغة شعبية وأداة للتفاهم بين اليهود طوال أجيال عديدة، وأن مسألة إحيائها على يد الحركة الصهيونية نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين تعتبر ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ البشري.

ولكن مسألة إحياء العبرية وبعث الحياة فيها من جديد لم تكن عملية سهلة، وأنها تمت بين ليلة وضحاها، بل كانت عملية تشكل تاريخية معقدة لعب فيها العاملان (السياسي والقومي) الدور الحاسم، ومرت بأطوار ومراحل مفصلية.

العامل القومي يرتبط بشكل مباشر بشخص يدعى «العيزر بن يهودا» (1858 ~ 1922) ويطلق عليه: محيي اللغة العبرية، حيث كرس حياته لتحويل العبرية من لغة مكتوبة إلى لغة محكية، ومع أنه لم يهدف في البداية إلى إنشاء دولة، وإنما إلى تعزيز قومية اللغة، وقـد ولد في روسيا لعائلة متـدينة وهاجر إلى فلسطين ضمن الدفعة الأولى عام 1882م، وهذه السنة تعتبر نقطة تحول في انبعاث اللغة العبرية، ففي نفس السنة ولد «إيتمار بن يهودا»، وهو أول طفل يكتسب العبرية كلغة أُمْ، لأن والداه حرصا على التحدث أمامه فقط بالعبرية ومنعوه من الاختلاط مع أقرانه، وقد استحدث «ايتمار» العديد من المفردات العبرية مرادفة لكلمات أجنبية وقد جمعت في معجم خاص. وقد عمل «ابن يهودا» أيضا على تدريس العبرية في مدارس خاصة، وأصدر صحف بالعبرية، ثم أسس عام 1890 «لجنة اللغة» التي استبدل بها فيما بعد «المجمع اللغوي»، وقد توّجَ مجهوداته بإصدار معجم لغوي استحدث فيه ألفاظا جديدة تستخدم في الحياة اليومية.[2]

العامل السياسي قامت به الحركة الصهيونية من منطلق إيمانها بأن العبرية

---

1 د. محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، نفس المصدر السابق. ص 38.
2 د. محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، نفس المصدر السابق، ص 31 ~ 59

لن تصبح لغة قومية إلا إذا تعلمها النشء الجديد وتحدث بها كلغة أم، وفي مراحل الاستيطان المبكرة كانت المنظمات اليهودية تشرف على التعليم، وكانت كل منظمة تُدّرس القادمين الجدد حسب اللغة الأم التي قدم منها المستوطنون، وأصرت المنظمة الصهيونية على أن يكون التدريس فقط بالعبرية، ولكن هذه المنظمات رفضت طلبها، الأمر الذي نشأ عنه ما عرف حينها بحرب اللغات، ففي سنة 1913 سيطرت اللغة الألمانية على مجمل يهود فلسطين، وقد اتخذ مجلس أمناء معهد «التخنيون» قرارا يبقي التدريس باللغة الألمانية، ولكن مع تنامي معارضة الصهاينة أصبح التعليم بالعبرية أمرا ملزما لجميع المؤسسات اليهودية في فلسطين وذلك في عام 1914.

يعــد انتصار الصهاينة في هذا الصراع نقطة تحول تاريخية لصالح إحياء اللغة العبرية، وبعد تأسيس دولة إسرائيل تولت الدولة مهمة استيعاب الأعداد المتزايدة من المهاجرين الجدد، ووضعت قضية تعليم العبرية كمهمة مقدسة من الدرجة الأولى، وكرست كل إمكانياتها المادية ومؤسساتها التربوية والتعليمية وغيرها لخدمة هذا المشروع.

واليهود كان لديهم أكثر من لغة يهودية، حيث أن جميع هذه اللغات هي وليدة اللغات المحلية حيثما كان يقيم اليهود[16]، وهي لغات مركبة من اللغة المحكية لتلك الدول مع اللغة العبرية، وقد سميت لغات يهودية بسبب الدخيل العبري من مصطلحات دينية ومفردات وحِكم وأمثال من التراث اليهودي، وقد كتبت بأحرف عبرية ولكن بمعاني تلك اللغات.

وأهم هذه اللغات اليهودية كانت لغة اليديش واللادينو، وهما لغتان مستقلتان من ناحية البنية اللغوية والنحوية، أما الصنف الآخر – باقي اللغات – فقد تكونت في بلاد الشرق وأطلق عليها اللغات المهوّدَة، إذ نشأت عن تهويد اللغات المحلية، ولغة اللادينو كانت لغة يهود الأندلس، أما اليديش فكانت لغة اليهود الغربيين الإشكناز، وهم الذين سخِروا من دعاة إحياء العبرية، واعتبروا أن اليديش وريثة العبرية كلغة موحدة لجميع أسباط إسرائيل، وقد تزعم هذا التوجه أدباء وشعراء في مؤتمر عقدوه في أوروبا عام 1908، إلا أن المنظمة الصهيونية تصدت لهم

وكانت الغلبة في النهاية لصالح العبرية، والتي هي عبارة عن تطوير لهذه اللغات.

وبما أن عبرية التوراة كانت فـقيرة جدا بالمفردات، وتعجز عن استيعاب متطلبات لغة عصرية، فقد جرى تطويرها بأساليب عديدة منها: استعمال النحت اللغوي، واستحداث معاني لألفاظ وردت في التوراة، وتطويع العبرية القديمة عبر اشتقاق ألفاظ ومفاهيم لغوية تلائم الحياة الجديدة، وتكوين كلمات ترتكز على اللفظ الصوتي المشتق من الكلمة الأجنبية. وقد ساهمت التنظيمات والجمعيات في تكوين العبرية؛ فلجنة اللغة التي أسسها «العيزر بن يهودا» - وأصبحت هي المجمع اللغوي فيما بعد - وضعت نصب أعينها مهمة استحداث ألفاظ جديدة لمواضيع مهنية في مجالات العلوم والتكنولوجيا، وتجدر الإشارة هنا أن «بن يهودا» كان متحمسا جدا إلى استحداث ألفاظ من العربية، ولكن بقية أعضاء اللجنة عارضوه وفضلوا اشتقاق كلمات من اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية.

وفي عام 1922 اعترف الانتداب البريطاني باللغة العبرية كلغة رسمية في البلاد إلى جانب الإنجليزية والعربية. واليوم إذا تفحصنا اللغة العبرية سنجد أن مفرداتها قد زادت من ألفين مفردة زمن التدوين لتبلغ اليوم حوالي تسعين ألف كلمة[1]، يتكون ثلثها من كلمات مشتقة من اللغة العربية الحديثة، وثلث آخر من الآرامية والعربية القديمة، والثلث الأخير عبارة عن مفردات إنجليزية وألمانية وروسية وفرنسية.

1 د. محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، نفس المصدر السابق، ص 54.

الفصل الثالث

تعاقب الفاتحين وتوالي الغزاة

الحُـقْبة الفارسـية

بعد انتصار الفرس على بابل عام 538 ق.م واصل جيش «كورش» زحفه حتى فلسطين، وقد دامت حقبة الاحتلال الفارسي للبلاد حتى عام 332 ق.م، وهي سنة بدء الاحتلال اليوناني.

إذا كان الحاكم الفارسي قـد حدد الهدف العام من خلق الديانة اليهودية الجديدة، وحصر أداة تنفيذها بمن سيق بهم من بابل؛ فإن محتوى وأسلوب هذه الديانة قد نما وتطور على يد الكهنة أنفسهم. وعلى الرغم من التدخل المباشر من قبل الفرس في بعض القضايا؛ إلا أن التأثر بالديانات والثقافات الأخرى كان هو السائد، بما فيها طبعا الديانة الفارسية الزرادشتية، ومن نافلة القول إن الحالة النفسية الصعبة والروح المنكسرة لكهنة بابل كان لها الأثر الأكبر في كتابة الأسفار الأولى.

فهؤلاء الكهنة كانوا قد فقدوا مكانتهم الدينية وما يترتب عليها من حظوة اجتماعية وامتيازات كانوا يتمتعون بها قبل السبي، وباتوا يعيشون حياة الأسر والهوان، خلافا للآخرين الذين بدؤوا التعود على نمط الحياة الجديدية والانخراط في المجتمع، والاستفادة من الأراضي الخصبة التي منحها لهم البابليون، وقد رأى الكهنة أن هذا الوضع الجديد سيتسبب في انهيار الروح الدينية وانفراط عقد الطائفة، وبالتالي برزت الحاجة لبعث عبادة يهوه من جديد.

ولكن لماذا «يهوه» بالذات؟ فمن المعروف أن التوراة أشارت إلى عبادة مجموعة من الآلهة من قبل الموسويين: إيـل، بعل، يهوه، أيلوهيم، تموز ... مع التركيز على يهوه الذي كان يعبده المديانيون على تخوم صحراء سيناء (أو في بلاد

الشام حسب سيد القمني)، ولكن ظروف السبي وحالة الإحباط التي عانتها هذه الشريحة جعلتهم أكثر سعيا وراء التوازن الانفعالي، وذلك باللجوء إلى إلـــه من أهم سماته القسوة والجبروت والعنف، فكان اختيارهم لهذا الإلــه الصحراوي كحالة تعويضية، وهم في الواقع قد استعاروا يهوه واختاروه بعناية فائقة، حيث إنه إلــه رئيسي في مملكتي إسرائيل ويهوذا المنقرضتين، وإلــه ثانوي في بلاد الشام وغير معروف في وادي الرافدين، فعلى الرغم من أهميته المتواضعة على الصعيد الديني في تلك المرحلة إلا أن اختياره كان إمعاناً في الشعور بالتميز.[1]

انتظر اليهود الجدد في أورشاليم موجة بشرية رابعة ومهمة جدا قادمة من بابل، وكانت بقيادة «نحميا» (445 ق.م)، وكانت أهميتها تكمن في إضافة زخم بشري هُم بحاجته، ومد الكيان الغض بدماء جديدة، وبما أن نحميا هذا كان موظفا كبيرا في قصر الإمبراطور، فإنه سيمد هذا الكيان الجديد بأسباب إضافية من القوة والدعم السياسي، فقد أوكلت إليه مهمة تنظيم هذا الكيان كولاية في الإمبراطورية.[2]

وبسبب حاجة الكيان الجديد لزخم بشري فقد اعتبر أن الزواج من غير اليهودي أمرا عاديا ومقبولا، فقال الكاهن «أشعيا»: «إن بيتي بيت صلاة يدعي لجميع الشعوب»، وكان هذا خلافا للعقلية المنغلقة التي ميزت المؤسسة الدينية في بابل، وحاربت الزواج المختلط وفكرة الاندماج.

وهنا برزت فروق في أشكال العبادة والطقوس بين سكان أورشليم والوافدين الجدد، باتت تهدد حالة الاستقرار والأمن في البلد، مما استدعى تدخل السلطات الفارسية، وإيفاد كاهن من بابل يدعى «عزرا» لتسوية الخلافات وفرض المفهوم اليهودي للدين الجديد، وقــد سانده كهنة أورشاليم الذين كانوا يؤمنون بضرورة التحكم بعامة الشعب بواسطة فرض طقوس دينية تحد من حريتهم.[3]

---

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 146.
2 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ، ص 43.
3 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ، ص 44.

الحقبة اليونانية

وبعد وفاة «الإسكندر المكدوني» انقسمت إمبراطوريته بين قادته؛ فخضعت فلسطين تحت سيطرة «أنتيخوس»، إلى أن هزمه البطالمة في غزة عام 321 ق.م، وظلت فلسطين طوال تلك الفترة تعيش حالة من الحروب والقلاقل، وخضع جزء منها لحكم المكابيين، ثم سيطر عليها العرب الأنباط وظلت تابعة لعاصمتهم «البتراء» حتى احتلها الرومان، عام 63 ق.م.

عاش اليهود في منطقة أورشليم طوال فترة الحكم الفارسي متمتعين بما يشبه الحكم الذاتي كإقليم موالٍ للإمبراطورية، ومع الصعود السريع ل»الإسكندر المكدوني» تمكن هذا الأخير من قطع الدرنديل واجتياح مساحات واسعة امتدت من مصر غربا إلى أفغانستان شرقا، في فترة قياسية لم تتجاوز الأحد عشر عاما، فألحق الهزيمة بجيوش الفرس التي كان يقودها «داريوس الثالث» في معـركة «ايسوس»، ثم توالى سـقوط المدن تباعا بيـد الفاتح الجديد (336 ~ 330 ق.م)، ولكن القدر لم يمهل هذا القائد الشاب كثيرا؛ فما إن مات حتى انقسمت إمبراطوريته إلى أربع أقسام، فكانت مصر من حصة بطليموس، وبلاد الرافدين من حصة سلوقس، ثم ألحقت فلسطين فيما بعد بحصة بطليموس، وسوريا بحصة سلوقس، والتي بدأت تتحول نحو الهلنستية.

وقد بقيت فلسطين تابعة للبطالسة المصريين ما يقرب المائة عام (300 ~ 198 ق.م)، وبعد ذلك ولمدة خمسين عاما أخرى (198 ~ 152 ق.م) ضمت فلسطين إلى السلوقيين، وقد طبق البطالمة نفس المبدأ الذي اتبعته الإمبراطورية الفارسية، والذي يقوم على منح الأقاليم الخاضعة نوعاً من الاستقلال الذاتي، باعتبار أن هذا أفضل سبيل للسيطرة على شعوبها.[1]

---

1 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ، ص 47.

وكما كان للفرس تأثيرا عميقا وجوهريا على الديانة اليهودية، كان للثقافة اليونانية أيضا تأثيرا كبيرا عليها، فقد كانت اللغة اليونانية لغة التجار والمثقفين والطبقة الوسطى من النيل حتى شرق بلاد فارس – كما هو حال اللغة الإنجليزية اليوم في الدول التي استعمرتها – ولذلك برزت ضرورة ترجمة التوراة من الآرامية إلى اليونانية (لغة اليهود في الإسكندرية).

كما أقيمت في فلسطين مدن عديدة لليونانيين، وقد تدفق إليها السكان الأصليين للاستفادة من تطورها الاقتصادي ومن ميزات الثقافة اليونانية، وكذلك فقد علموا أطفالهم في مدارس لغتها هي اليونانية. وهذا النمط الجديد من الحياة أدى إلى تبلور اتجاهات عديدة من داخل المؤسسة الدينية اليهودية، فمن جهة كان هناك تيار يرفض أي شكل من أشكال الاتصال مع الحضارة اليونانية، عبرّ عنه «الإسيّين» الذين عاشوا في عزلة عن بقية السكان، ومن جهة أخرى برز تيار يدعو لممارسة الحياة العصرية الجديدة، مع الحفاظ على حد معين من الخصوصية وقد عبر عنه «الفريسيون» الذين حاولوا المزاوجة بشكل عقلاني بين الديانة اليهودية وبين الديانة اليونانية العصرية، وقد أنشأ هؤلاء الفريسيون مدارس دينية في العديد من البلدات.[1]

ظهور الفريسيين ونشرهم للتوراة المنقولة بين أوساط الناس لم يعجب طبقة الكهنة الذين عارضوا بشدة مواقف الفريسيين، واعتبروها خطرا على مواقعهم وامتيازاتهم، فلم يعترفوا بالتوراة المنقولة الشفوية وكانت بداية ظهور حركة «الصدوقيين».

وفي نهاية الأمر حاول هؤلاء الكهنة الحصول على تأييد السلوقيين ضد الفريسيين، مما استوجب منهم تقديم بعض التنازلات الدينية للسلطة، والموافقة على دمج بعض الجوانب من اليهودية بالثقافة الهيلينية، كما ازداد تقـرب الكهنة من السلطات السلوقية، إلى درجة أن بعضهم غير اسمه اليهودي إلى اسم يوناني، مثل الكاهن الأكبر «يهوشع» الذي صار اسمه «ياسون»، وحتى اسم «أورشاليم» حوله الكهنة إلى «انطيوخيا»، وأقاموا معهدا رياضيا يونانيا

1 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ، ص 48.

قرب الهيكل، وتم تخصيص جزء من الضرائب المخصصة للهيكل إلى خزينة السلوقيين.

وفي هذا يقول «شلومو ساند»: «وليس من المبالغة القول إنه لولا التعايش بين اليهودية والهيلينية الذي ساهم في تحويل العقيدة اليهودية إلى دين ديناميكي مهوَّد، لظل عدد اليهود عند هذا الحد الضئيل، ولكان عددهم اليوم كعدد السامريين؛ فالهيلينية غيّرت وأثرت في الثقافة الدينية اليهودية، وفي أعقاب هذا التطور التاريخي حلقت الديانة اليهودية على أجنحة النسر اليوناني، وانطلقت معه في جولة طويلة عبر أرجاء البحر المتوسط».[1]

وقد أدى فشل الكهنة والمتزمتين في السيطرة على الشعب، أو كسب تأييدهم إلى جعل اليهودية تقوم على العبادة الفردية؛ أي أن الإنسان يستطيع التقرب من الرب بواسطة فروض دينية معينة يؤديها دون الحاجة لنظام سياسي يهودي، حيث اعتقد هؤلاء أن النظام السياسي يؤدي إلى الفساد، ويفضل أن يكون بأيدي غير يهودية، أي أن اليهودية أصبحت مغامرة شخصية، وبذلك تنازلوا عن فكرة تميز الشعب المختار.[2]

وفي نهاية العهد السلوقي انطلق تمرد قام به كاهن يدعى «متتياهو الحشمونائي» وأبناؤه «المكابيون»، وقد أيد هذا التمرد كل من روما وإسبرطة، وبعد مقتله تولى القيادة ابنه يهوذا الملقب بالمطرقة (المكابي)، وبعد مقتل هذا الأخير تولى القيادة أخوه «يوناثان» عام 160 ق.م الذي وطد علاقاته مع السلوقيين، فـدخل القدس عام 152 ق.م ككاهن أعلى وحاكم باسم السلوقيين، وأصبح يعرف باسم الملك «ديمترس»، وقد حكمت أسرته من بعده حتى مجيء الرومان عام 63 ق.م .

وكان سلوك الحكام كملوك محليين ضمن المملكة اليونانية وليس ككهنة[3]، وكان واضحا أن واجبات الملك تتطلب مراعاة التزاماته السياسية تجاه القوى المسيطرة، ولكي تحافظ على بقائها فقد كان على الكيان اليهودي أن يستوعب

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 213.
2 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ، ص 148
3 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير، ص 52

مظاهر الثقافة الهيلينية[1]، لذلك ألغى الحشمونيين النظام الديني، واقتصرت وظيفة الكاهن الأكبر ضمن مجال المؤسسة الدينية، التي بقيت تحت سيطرة السلطة العلمانية، وقد تميز عهد الحشمونائيين بالصراعات الأيديولوجية الداخلية العنيفة، وقد كان الفريسييون والكهنة يتبادلون التحالف مع الملك على أساس المصلحة السياسية / الاقتصادية، فحاول الفريسيون إدخال عناصر من الثقافة الهيلينية على تفسيرات التوراة، فيما حاول الكهنة دمج التوراة في الثقافة الهيلينية، وقد سقط ضحية هذه الصراعات آلاف الفريسيين على يد الملك «الكسندر يناي» عام 76 ق.م.[2]

1 الهلنستي هو كل شخص من أصل غير إغريقي عاش في العصر الهلنستي وتبنى لغة الإغريق وأسلوب حياتهم أما هليني فهو الإغريقي أو اليوناني

2 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ، ص 52.

الحقبة الرومانية

دامت الحقبة الرومانية من عام 63 ق.م ولغاية الفتح العربي الإسلامي سنة 663 للميلاد.

وفي نهاية العهد الحشمونائي، وبدعم من الرومان، الذين لقوا من اليهود دعما لهم ضد اليونان، نصّب الرومان أسرة يهودية لمساعدتهم في حكم فلسطين، بدلا من المكابين (الحشمونائيين)، فحكم المنطقة ملوك تابعون لروما عرفوا بِ»الهرادسة»، أشهرهم كان «هيرود الكبير» (40 ~ 4 ق.م) الذي نجح إلى حد كبير في نشر الثقافة الرومانية – الهلنسنتية.[1]

وقد اصطدم «هيرودوس» مع رجال الدين اليهود فقام بإعدام كل رجال الكنيس الذي حاولوا التدخل في شؤونه السياسية وعددهم 46 كاهنا، واستبدلهم بكهنة مواليين جلبهم من بابل والإسكندرية، ليتولوا المسؤوليات في الهيكل، وفي الواقع فإن «هيرودوس» فصل السياسة عن الدين، وأبقى لنفسه لقب الملك فقط.

وبعد وفاته في العام الرابع ق.م لم ينجح أولاده بتسلم السلطة، إلا أن بعضا منهم قد تولى مسؤوليات إدارية محددة في عدد من المدن، ولكن هذه الإدارات انتقلت تدريجيا إلى السلطات الرومانية، وفي هذه الفترة كان اليهود بلا كيان سياسي ولا حكم ذاتي، وقد نشبت بينهم خلافات حادة حول الشؤون الدينية، فقد تصارع الفريسيون والصدوقيون والأسيون فيما بينهم بلا هوادة.

وما لبث اليهود أن أشعلوا ولأسباب دينية فتيل التمرد عام 66 ~ 70 م أثناء حكم «نيرون»، فقضى على هذا التمرد القائد الروماني «فسبسيان»، وبعد استلامه عرش روما أكمل قائده «تيطوس» إحكام قبضته على فلسطين عام 70 م. وفي هذا تقول الرواية الصهيونية أن القائد الروماني خرب مدينة القدس بالكامل،

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 151.

ودمر الهيكل وأحرقه، وقتل العديد من اليهود وشرد بقيتهم في أنحاء الأرض.

وحسب الأساطير اليهودية فإن قلعة «متساداة» هي آخر حصن يهودي سقط بيد الرومان عام 73 م وذلك بعد حصار دام سنوات، مما دفع بالقائد اليهودي إلى إقناع رفاقه بفكرة الانتحار الجماعي، بدلا من الاستسلام، وبذلك حولت الأسطورة اليهودية قلعة «المتساداة» إلى رمز للقوة العسكرية المحاصرة والتي تفضل الموت على الاستسلام، ولكن هذه القصة أثارت شكوكا لدى العديد من المؤرخين، واعتبروا أن قصة «متساداة» ما هي إلا خيال ابتدعته اليهودية كرمز لوحدة الشعب اليهودي.[1] واليوم نرى أن الصهيونية تسعى لأن يحتل معتقل «أوشفيتس» النازي نفس مكانة «المتساداة»،كمكان ذكرى مشكِّل للهوية اليهودية المعاصرة.

ويؤكد العديد من المؤرخين أن قصة نفي اليهود من فلسطين، وتشتيتهم في ربوع الأرض بالقوة لم تكن حدثا تاريخيا، بل كانت أسطورة ابتدعها محررو الرواية اليهودية؛ نظرا لحاجتهم القومية الماسة لمنفى قسري، وتكمن أهمية «المنفى القسري» كحاجة لفهم التاريخ اليهودي من زاوية تراجيدية، ولتبرير عدم مسارعة اليهود في العودة إلى «وطنهم المزعوم»، فاليهود يطالبون دوما الآخرين بالنظر إليهم كشعب مميز، لا يشبه بقية الشعوب.

ومن ناحية ثانية، فإن الإشارة إلى المنفى القسري، والنظر إلى ذرية المنفيين عن وطنهم رغما عنهم، تعد مسألة جوهرية في الرواية اليهودية، وهي تشبه تماما النظر إلى ذرية إبراهيم وإسحق، وتحتل نفس المكانة، وما هو غير ذلك سيزعزع أركان شعار «الشعب المختار».

ويؤكد المؤرخ الإسرائيلي «شلومو ساند» أن اليهود في عهد الرومان لم يتعرضوا لأية عملية إجلاء أو تسفير أو طرد. ويقول: «سياسة النفي الناجعة التي اتبعتها الإمبراطورية الآشورية ومن بعدها البابلية والتي اقتلعت مجموعات كاملة من السكان، لم تندرج ضمن الأساليب والطرق المعروفة للقيصرية الرومانية، بل إن سياسة نفي السكان لم تطبق أبدا في الشرق الأوسط في عهد الرومان».

1 كيث وايتلام، ترجمة د. سحر الهنيدي، اختلاق إسرائيل القديمة، ص 48.

ولكن «ساند» يؤكد أن: «حكام روما اتبعوا سياسة متشددة في قمع السكان الثائرين، حيث أعدموا محاربين بدون شفقة، اقتادوا أسرى وباعوهم كعبيد، ونفوا ملوكا وأمراء، ولكنهم قطعا لم يلجأوا إلى اقتلاع قطاعات واسعة من السكان، فضلا على أنه لم تتوفر لديهم وسائل تكنولوجية للقيام بذلك».[1]

والمصدر الوحيد لقصة النفي وتمرد الزيلوت جاء على لسان «يوسيفوس فلافيوس» المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول للميلاد، حيث يتحدث في كتابه (تاريخ حرب اليهود ضد الرومان) عن النتائج المأساوية لذلك التمرد، وبحسب تقديره فقد قتل في حصار القدس والمعارك التي حدثت في أعقابه مليون ومائة ألف من السكان، ووقع في الأسر 97 ألفاً، كما قُتل في المدن الأخرى عشرات الآلاف! وهي تقديرات فيها الكثير من المبالغة، بل عارية عن الصحة، حيث تشير التقديرات المتوازنة أن عدد سكان القدس في ذلك الزمان لم يتجاوز الخمسة عشر ألف نسمة.[2] (وحسب تقدير شلوموساند ما بين 60~70 أل.[3] ويؤكد عدد من المؤرخين أنهم في سياق بحثهم عن التمرد الذي وقع في تلك الفترة (66 ~ 70م) لم يجدوا في السجلات الرومانية الغنية بالتوثيق ولا حتى إشارة واحدة إلى حدوث أي عملية نفي أو طرد من أرض فلسطين، التي كانت تحت حكمهم آنذاك.كما أن مسألة تهجير آلاف اليهود ظلت تثير سؤالا لم يجد حلا بعد: كيف خرجت هذه الأعداد الكبيرة دون أن تترك خلفها أثرا؟ فلم تدل الشواهد التاريخية على أي سلطة أو مملكة أو حتى قرية يهودية واحدة في المناطق التي هُجروا إليها.[4]

وبين الأعوام 98 ~ 117م قام القيصر الروماني «طريانوس» بحملة على الشرق للسيطرة على الطرق التجارية بين الهند وروما، واحتل أجزاء من الجزيرة العربية وأرمينيا وأشور، ومن بعده ورث العرش ابنه «هرديانوس» 117 ~ 138 م الذي أرسل جيشا إلى فلسطين وقرر إعادة بناء القدس كمدينة رومانية، وأقام فيها معبد «جوبيتر» على أنقاض الهيكل، وحوَّلَ اسمها إلى «إيليا كابيتيلونيا»،

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 179.
2 إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، مصدر سبق ذكره، ص 25.
3 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 180.
4 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 180، 199.

وفي عهده تصاعد القمع الديني بشكل ملحوظ، ومن المرجح أن عدداً من السكان قد فروا من المدينة هربا من الاضطهاد.

وفور خروج القيصر من المنطقة في طريقه إلى رومـا، قاد «سيمون بركوخبا» تمردا عاما (132 ~ 135 م)، فسحق «هادريانوس» هذا التمرد بكل قسوة، ودمر الهيكل الثاني نهائيا. ولكن هذا التمرد وقمعه بالطريقة الوحشية التي وصلت حد الإبادة الجماعية – حسب الرواية الصهيونية - يجعل قصة إبادة اليهود ونفيهم التي كانت قد حدثت قبل خمسين سنة (70م) – حسب نفس الرواية الصهيونية – يجعلها تتهاوى؛ فإذا كان «تيطس» قد أباد اليهود وشتتهم في التمرد الأول، فمن أين جاءت أعداد اليهود في التمرد الثاني!

ومن وجهة نظر المؤرخ «يسرائيل بلكيند»، فإن «أعمال التمرد المتكررة، من تمرد باركوخفا وحتى تمرد الجليل الأعلى في بدايات القرن السابع الميلادي، تدل على أن معظم «الشعب اليهودي» ظل موجودا على أرض فلسطين، والذين غادروا البلاد هم الطبقات العليا والحاخامات وعلماء التوراة، الذين فضلوا الدين على البلاد، لكنّ الفلاحين ظلوا مقيمين في أرضهم».[1]

ومرة ثانية، نجد أن قصة النفي القسري لليهود من أرض فلسطين جاءت لتخدم رؤية أيديولوجية معينة، ولتزعم أن اليهود أُجلوا عن ديارهم بالقوة، ولإثبات أن اليهود كانوا في منفاهم الطويل شعبا عنيدا جامحا، وليسوا مجرد طوائف دينية محضة؛ لأن الكشف عن حقيقة عدم تعرضهم لأية عملية طرد، وأنهم اختاروا الهجرة طوعا ستجعل مطالبتهم بالسيادة مجددا على فلسطين ضعيفة وغير مقبولة. وجاءت لتبرر عدم توجه التجمعات اليهودية المتناثرة في أنحاء شتى إلى ما كانوا يعتبرونه وطنهم القديم؛ فمن المعروف أن الجالية اليهودية التي عاشت في بابل لم تسعَ قط نحو العودة للديار المقدسة، حتى بعد قيام مملكة الحشمونائيم، وعندما انهارت مملكة بابل توجه اليهود إلى بغداد، وليس إلى القدس، ولاحقا عندما انهارت الأندلس توجه اليهود المطرودون منها إلى شتى دول حوض البحر المتوسط، وقلة قليلة منهم توجهوا إلى فلسطين، وفي العصر

1 إسرائيل بلكيند، العرب في أرض إسرائيل، تل أبيب، هنئير، 1928، ص 11–10. نقلا عن شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص 239.

الحديث وعقب المذابح الفظيعة التي تعرض لها اليهود في روسيا وأوروبا توجه اليهود إلى أمريكا وغرب أوروبا.[1]

وحسب «ساند»، كان من المتوقع من عملية النفي، كحدث مؤسس ومركزي في تاريخ الشعب اليهودي أن تحظى بعشرات بل مئات الكتب والمخطوطات، ولكن الغريب والمدهش أنه لم يُكتب عن هذا الحدث إلى الآن، ولو بحثا شاملا واحدا.[2]

والخلاصة، أنه في العهد الروماني ضعف الوجود اليهودي بشكل كبير، حيث أن قمْع التمردات، وخراب الهيكل - الذي كان يمثل محور الحياة اليهودية - ومقتل العديد من السكان وتحويل قسم منهم إلى عبيد، وهجرة قسم آخر؛ كل ذلك كان من شأنه أن يؤدي إلى إضعاف الجماعة اليهودية، أو تعريضها لخطر الانقراض، مثلما حدث لشعوب أخرى، انقرضت ولم يبقَ إلا ذكراها؛ مثل القلطيين والاصطاكيين والمايا والروميين وغيرهم[3]. وبهذا تحول اليهود من شعب أو طائفة دينية إلى حالة روحية / دينية، لها وجود في مختلف مناطق العالم، وقــد حافظت على هذه الروح الدينية في صدور أتباعها مئات السنين.

أي أن الشعب اليهودي في مرحلة التأسيس في أورشاليم، كان قد توحّد حول مشروع سياسي/ أيديولوجي معين، وكان حينها مجرد قبول هذا المشروع هو الذي يحدد انتماء الإنسان إلى اليهودية، ولم تكن اللغة والأرض أهم مركبين، فعندما عاد المسبيون من بابل كانت لغتهم هي الآرامية، وفي الأسكندرية كانت لغة اليهود هي اليونانية، واليوم فإن التوراة مكتوبة بعدة لغات، أي حسب أماكن سكنى اليهود.[4]

والأرض التي تُوحِّدُ الشعبَ - كما هو الحال لدى بقية الشعوب - دامت لليهود لفترة مؤقتة محدودة. ومنذ خراب الهيكل لم تعــد كذلك، أي أن الشعب الذي بلور كيانه حول مشروع معين واكتسب خصائص مميزة به في مرحلة وجوده فوق أرض مشتركة، وامتلاكه لغة واحدة، وقبل أن يصل مرحلة النضوج فــقد

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 190.
2 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 193.
3 حديثا تم إبادة معظم الهنود الحمر وسكان أستراليا الأصليين.
4 ميخائيل هرسيغور، إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ، ص 59.

الأرض واللغة مرة واحدة، وبهذا بقي المشروع مجسدا فــقط بالتوراة، وبالتالي لم تعــد اليهودية تعبر عن قومية معينة.

وحتى هذه الأرض التي سكنها اليهود فترة من الزمن لم تشمل كل فلسطين، والحدود الجغرافية لإسرائيل حسب الأطماع الصهيونية، والتي تعتبرها حدودا مقدسة نصت عليها التوراة «من الفرات إلى النيل»، وهي حدود لم يشغلها اليهود، أو العبرانيون في أي لحظة من تاريخهم، ولا حتى أيام داوود وسليمان.[1]

ولأن القاعدة السكانية لهذا المشروع لم تكن متجانسة إثنيا أصلاً، ولأن المشروع نفسه وُجد ونما على هامش الطموحات التوسعية للإمبراطورية الفارسية وبدعم منها، ولأنه وظّف نفسه كليا في خدمة هذه الإمبراطورية وجميع الإمبراطوريات التي تلتها في حكم المنطقة، وكان تأثره شديدا وجوهريا بالثقافات التي مرت عليه، ولأنه ظل مغتربا عن السكان الأصليين للبلاد ومعاديا لهم، كل ذلك أدى به إلى هذه النهاية المدوية ودخوله مرحلة التيــه التاريخي بالمعنى الوجودي والموضوعي.

أي أنه منذ ذلك التاريخ، وبعد تفرق اليهود، وفقدان القيادة الدينية التقليدية مبرر وجودها، لم يعد اليهود يشكلون شعبا موحدا لهم تاريخ واحد أو لغة مشتركة، وقد اندمجوا ضمن البــيئات التي عاشوا بها وذابوا بين ظهراني السكان، كلٌ حسب منطقته.

وفي نهاية الأمر، ومع بداية القرن الثالث مُنحت المواطنة الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية[2]، وفي فلسطين كان الحفاظ على وجود يهودي فيها يتوقف على رغبة الأفراد اليهود في البقاء في المجتمع، وقد حاول اليهود في هذا الإطار الإبقاء على هوية محددة للوجود اليهودي من خلال نظام قضائي ينظم سلوك اليهود، ولكن خراب الهيكل واختفاء الطبقة الاجتماعية التي سيطرت عليه من جيل إلى جيل كان له تأثير بالغ في وضع حد للنفوذ الديني الذي سيطر على أتباع الديانة اليهودية، كما أن انتصار الفريسيين على الصدوقيين أدى إلى استبدال السلطة

1 عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، الجزء 4، ص 21.
2 ميخائيل هرسيغور إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير، ص 66.

العلمانية / المدنية بالسلطة الدينية.

وقد ظلت الحضارة اليونانية تتغـلغل في المجتمع المحلي بما فيه من سكان يهود، وشيئا فشيئاً صار الناس يتحدثون اللغة اليونانية، وفي عهد الحاخام «يهودا الأول» كان الناس يسخرون من اللغة الآرامية بلهجتها العبرانية، وصارت اليونانية هي اللغة الرسمية بما في ذلك لغة السنهدرين (أعلى هيئة شرعية يهودية وكانت تتألف من 71 عضواً من كبار علماء اليهود) وما يدل على ذلك ما كتب على شواهد القبور والكلمات اليونانية واللاتينية التي وردت في المشناة والتلمود.[1]

وشهدت فلسطين فترة من الهدوء لم يقم اليهود خلالها بأي أعمال تذكر، وعاشوا كطائفة محلية لا تتمتع بأي مزايا سياسية، وكان الاتفاق الذي نظم العلاقات بين السلطات الرومانية واليهود يقضي ببقاء اليهودية كديانة داخلية مع تحريم أي نشاط تهويدي، وبقاء إدارة المؤسسات المحلية التي أُخِذت منهم بأمر من «هدريانوس» وكذلك المحاكم الدينية، أما موضوع القدس فلم تتنازل السلطات الرومانية بشأنه، وبقيت محرمة على اليهود ومغلقة في وجههم، واستمر ذلك بعد الفتح العربي الإسلامي في عهد الخليفة «عمر بن الخطاب».

في أواخر عهدها عصفت بالإمبراطورية الرومانية خلافات وصراعات حادة، دفعت فلسطين فيها ثمنا باهظا، ففي خلال العمليات العسكرية والانقلابات التي حاول فيها كل فيلق من الجيش أن يسيطر على مناطق من الإمبراطورية، كانت الجيوش تمر من فلسطين دون انقطاع، وتطلب من السكان توفير المبيت والمؤن للجنود، مما أدى أيضا إلى توقف العلاقات التجارية وتدهور الاقتصاد وانتشار المجاعات والأوبئة وانخفاض عـدد السكان بشكل ملحوظ.

وفي القرون الميلادية الثلاثة الأولى لم يكن للمسيحية دور مهم في فلسطين، إلى أن جـاء «قسـطنطين الأول» (306 ~ 337 م) وفرض المسيحية في ربوع الإمبراطورية الرومانية، وبما أن المسيحية لم تطرح نفسها كديانة لشعب معين

1 إسرائيل/ فلسطين ، الواقع وما وراء الأساطير ،ميخائيل عرسيغور ، مشاعل للصحافةوالدراسات ط! 2000 ص 66، + ص 46 ~ 79 .

بل ديانة متاحة لجميع الأمم وتدعو للسلام والمحبة، وعملت أيضا على تبسيط طقوس الانتماء، فلم تفرض الختان مثلاً، وبسبب قوة الجذب التي تمتعت بها المسيحية خلال القرنين المنصرمين أدى هذا كله إلى انتشارها بشكل واسع وسريع في صفوف الناس، حتى تحول هذا الانتشار إلى قوة سياسية حاسمة، وبعد أن طوّعَ القيصرُ القسم الشرقي من الإمبراطورية عام 323 م حاول بواسطة المسيحية نشر عقيدة مشتركة لجميع شعوب الإمبراطورية لضرب القوى الانفصالية ولتوحيد الصف الداخلي، الذي كان له مصالح اقتصادية متنوعة ومتباينة.

وهكذا انتشرت المسيحية بسرعة فائقة في فلسطين، وقويت بين السكان حتى صارت ديانة الأغلبية، وقد اهتمت السلطات الرومانية بهذا التحول بسبب موقع فلسطين الاستراتيجي وأهميتها الحيوية، وعندما أصبحت المسيحية ديانة الدولة الرومانية كلها، صارت فلسطين منطقة مقدسة لدى عموم المسيحيين.

وفي العام 361 م نُصّبَ «يوليانوس» قيصرا، وكان يؤمن بأن الجمع بين الدين والسياسة سيضر بالمصالح العليا للدولة، لذلك اتخذ نهجا علمانيا، وأعاد فتح المعابد اليونانية وسمح بممارسة الطقوس الوثنية ومنح الديانات حرية كبيرة، وفي صراعه مع الكنيسة ومن أجل تحقيق سياساته أراد أن يتحالف مع اليهود فوعدهم بإعادة بناء الهيكل، إلا أن يهود فلسطين كانوا متشككين ومترددين مما أغضب القيصر، فقد رأت القيادة الدينية والتي لم تكن تنتمي إلى سلالة الكهنة أن بناء الهيكل سيؤدي إلى التفاف اليهود من حوله، وبالتالي ستنهار مصالحها الدينية، التي هي أصلا لا تعتمد على وجوده، وتؤدي بذلك إلى تحويل الضرائب إلى الهيكل مباشرة، وقد عللت القيادة الدينية هذا التمنع بفكرة أن بناء الهيكل لن يتم إلا بعودة المسيح، وقد توقف نهائيا هذا العرض بمجرد وفاة القيصر بعد ذلك بعام واحد.

وفي عهد القيصر «ثيودوسيوس» حوربت بشدة الديانات الوثنية وأغلقت المعابد القديمة، ومُنعت الطقوس الوثنية، وبعد موته عام 395 م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: شرقية بيزنطية عاصمتها القسطنطينية، وغربية مقرها

رومـــا، وحافظ جميع القياصرة على نفس السياسية تجاه الوثنية واليهودية، وقد وضع القيصر «مرســيانوس» (450 ~ 457 م) حدا نهائيا لمؤسسة الرئاسة الدينية اليهودية، ورفض تعيين رئيس جديد، وبذلك اختفت مظاهر الحياة اليهودية من فلسطين إلى حد كبير، وكان على العالم أن ينتظر أكثر من 1500 سنة أخرى حتى يشهد مرة ثانية عودة الوجود اليهودي إلى فلسطين، ولكن هذه المرة بوجه جديد، وسياقات مختلفة بالكامل.

الفتح العربي الإسلامي

في العام (395 للميلاد) انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: غربية وعاصمتها روما وشرقية عاصمته بيزنطة (القسطنطينية)، وكانت بلاد الشام تحت حكم الشرقية البيزنطية، وفي بداية القرن السابع الميلادي وجدت هذه الإمبراطورية نفسها في مواجهة أخطار عديدة: من الحدود الأوروبية هاجمتها قبائل السلاف والبلغار، ومن الجهة الأخرى وجدت نفسها تنهار بسرعة أمام الغزو الفارسي الساساني، الذي اجتاح أراضيها من العام (614 ~ 617 م)، إلى أن اندحر نهائيا بعد ذلك بعشر سنوات، ورجع البيزنطيين يحكمون المنطقة حتى وصول طلائع قوات الفتح العربي الإسلامي بلاد الشام.

فبينما كان «هرقل» منشغلا باحتفالات خشبة الصليب في القدس عام 629 م جرت غزوة شرق الأردن في موقعة مؤتة، وهي وإن لم تستطع أن تحقق نصرا عسكريا حاسما، إلا أنها مثلت طلائع المـد العربي الإسلامي المقبل الذي تتالى بسرعة مذهلة. [1]

فقد توفي النبي محمد بعد أن فرض نفوذا للإسلام عبر غزوة تبوك، وبعـدها بثلاث سنوات كانت الجيوش العربية تدخل المنطقة معلنة ميلاد حقبة تاريخية جديدة.

وبعد هزيمة البيزنطيين في معركة أجنادين كانت فلسطين كلها هي ثمرة هذا النصـر، لتتبعها دمشق، ثم تتوج هذه الانتصارات بالنصر الحاسم في معركة اليرموك، التي أخرجت الروم كليا من المنطقة.

إن سرعة الفتح واستسلام البلاد السهل بعد المعارك الكبرى مع الروم، وهذا العهد العمري مع كتب الأمان الأخرى لبقية المدن، إنما تكشف عن مدى الشعور بالقربى والتفاهم بين الجموع الفاتحة وأهل البلاد المفتوحة، فالروم وحدهم

1 د. شاكر مصطفى، القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، اتحاد الجامعات العربية، ج 1 .

قاوموا، والروم وحدهم هُزموا وطُردوا، أما أهل البلاد فقد التقوا مع جماعة هي منهم في كل شيء تقريبا: الأعراف واللغة وأنماط الحياة، وحتى في الدين؛ فالتكوينات العرقية والحضارية التي ينتمي إليها الطرفان كانت واحدة، ولهذا تمت عمليات اللقاء والاندماج على نحو سلس، والواقع أن شيئاً لم يتغير على فلسطين وسكانها بعد الفتح، سوى هوية الحكام والنظام السياسي، فقد حل الخليفة مكان الإمبراطور، وصار الحكام والجند عربا وهم أقرب بكثير من الروم واليونان والفرس.

الأمران الجديدان اللذان أتى بهما الفاتحون العرب هما: القرآن الكريم واللغة العربية بلهجة جزيرة العرب، وهذان العاملان هما اللذان حدّدا مصـير فلسطين وشكّلا هويتها على مدى القرون التالية، ولكن لم يجبر عليهما أحـد من أهل البلاد، إذ أبقاهما الفاتحون لأنفسهم دينا وأداة تعامل وتفاهم، كما أنهم منحوهما لمن يشـاء أن يقبلها من الناس عن قناعة، بمعنى أن عملية التحول للإسلام قد تمت ببطء وعلى هـون، وامتدت قرابة القرنين من الزمان. [1]

وقد حددت العهدة العمرية طبيعة العلاقة بين الفاتحين وأهل البلاد، إذ أعطتهم الأمان، والحرية الدينية، وضمان عدم التدخل في شؤون الكنيسة، وهو الأمر الذي طالما عانى منه مسيحيو البلاد، عندما كانت الكنيسة في بيزنطة وروما تفرض رؤيتها على كنائس الشام، وتحاول صبغتها باللون الأوروبي، وطالما تسبب هذا في حالات صدام وتعارض بين الكنيستين الشرقية والغربية.

فبسبب هذا التقارب والتلاقي فيما بين الدين الإسلامي والمسيحي، وبين الآرامية والعربية، واتفاق الطرفين على تقديس مدينة القدس، توفّرَ للسكان مناخا مثاليا للانسجام والعيش بسلام في فترة من الفترات الذهبية التي عرفتها فلسطين، وقد حَكَم خلالها الأمويون وأوْلوها اهتماما خاصا، وتميزت بالحرية الدينية، والازدهار العمراني، والاستقرار والتطور الاقتصادي.

وبذلك أنهى الفتح العربي لفلسطين فترة القـلق والازدواج الحضاري التي عانت

---

1 د. شاكر مصطفى، القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، اتحاد الجامعات العربية، ج 1 .

منها البلاد، فإذا كانت غزوات الفرس واليونان والرومان قد وجَّهت أو حاولت توجيه الحضارة العربية في فلسطين نحــو الغرب أو ما وراء البحار؛ فإن دخول العرب المسلمين إليها قــد أيقــظ فيها روحها الأصيلة، وثبت لها شخصيتها الحضارية وهويتها العربية، وردّها نهائياً نحــو الشرق.

وتوالى على حكم فلسطين من بعد الأمويين العباسيون والفاطميون وبعض القوى الصغيرة التي لم تدم طويلا، مثل الطولونيين والولاة والإخشيديين والسلاجقة والقرامطة والحمدانيين، كما شهدت فلسطين الغزو الفرنجي والذي دام قرابة المائتي عام (1098 ~ 1291 م) وانتهى بهزيمتهم على يد الأيوبيين ثم المماليك، لتدخل بعدها فلسطين في العهد العثماني والذي امتد أربعة قرون عاش الناس خلالها عيشة الفقر والجهل، تخللها ثورات محلية وغزوات خارجية، مثل حملة نابليون ودخول قوات محمد علي باشا والي مصر، ومن ثم انسحابها وعودة السيطرة التركية مرة ثانية، إلى حين دخول القوات البريطانية المستعمرة كقوة انتداب في يوم 7- 12- 1917 م.

عوامل تراجع الوجود اليهودي

وترسيخ الوجود العربي في فلسطين [1]

- تعرُّض اليهود للقمع، ومقتل الكثير منهم (عام 70م في عهد تيطس وعام 135 م زمن هارديان) وتدمير الهيكل أكثر من مرة، وهجرة رجال الدين اليهود خارج البلاد.
- خراب الهيكل واختفاء الطبقة الاجتماعية التي سيطرت عليه من جيل إلى جيل، وفشل القيادات اليهودية في السيطرة على السكان، أو كسب ثقتهم، وتزايد حدة الصراعات بين التيارات الدينية، هذه العوامل كان لها تأثير بالغ في وضع حد للنفوذ الديني الذي سيطر على السكان من أتباع الديانة اليهودية.
- تغلغُل الثقافة اليونانية الهيلينية، وطغيان اللغة اليونانية في أوساط اليهود، وانتصار الفريسيين على الصدوقيين أدى إلى سيطرة السلطة العلمانية على المؤسسة الدينية في منطقة يهوذا طوال فترات حكم الأسر اليهودية زمن اليونان والرومان، وهذا بدوره كان له أثر في إضعاف النفوذ الديني لليهودية. ومع انتشار المسيحية تحولت أعداد لا بأس بها من اليهود إلى المسيحية.
- وجود اليهود كطائفة هامشية ضمن النسيج الاجتماعي لم يكن كافيا لصمودها في وجه التغيرات والأحداث الكبرى التي ألمت بالمنطقة، مما دفع أفراد هذه الطائفة إلى الانكفاء على ذاتهم، أو التحول للمسيحية، أو الهجرة في بلاد الله الواسعة بحثا عن خلاص فردي.

---

1 د. شاكر مصطفى، القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، اتحاد الجامعات العربية، ج 1 .

- منذ نشأتها وضعت دولة الحشمونيين نفسها في إطار الدور الوظيفي كمحمية فارسية تؤدي دورا معينا، وفيما بعد متحالفة مع كل الغزاة الذين تعاقبوا على البلاد، الأمر الذي جعل منها كيانا غريبا وطارئا يفتقر للعمق الحضاري، وذو تركيبة سكانية غير منسجمة مع النسيج الاجتماعي، ومتقاطعة مع الدور الحضاري للسكان الأصليين، وبالتالي ضعفت الأواصر التي تربطها بالأرض وتلاشت بسهولة فيما بعـد.
- محاربة السلطات الرومانية لليهودية، وتحريم أي نشاط تهويدي. وكانت الضربة النهائية للوجود اليهودي في فلسطين إثر إلغاء السلطات الرومانية مؤسسة الرئاسة الدينية التي كانت تضم السنهدرين والمحكمة العليا.
- تكيفت الجماعة اليهودية التي بقيت في فلسطين مع نتائج الفتح العربي الإسلامي للبلاد؛ حال كل الشعوب التي تتعرض للفتح، حيث تتكيف أكثريتها مع المنتصرين. فضلاً عن ذلك؛ فإن جيش المسلمين لم يستبدل شعباً بشعب، هناك من أسلم من اليهود، ومن بقي على دينه كان يدفع الجزية.
- المد البشري من العرب والذي لم ينقطع عن فلسطين أبداً، فالأنباط مثلا ملئوا جنوب فلسطين وشرق الأردن، وكذلك قدوم مجموعات من القبائل العربية القحطانية لأسباب البحث عن الكلأ والماء، أو لأسباب سياسية عديدة، وهذه الموجات بدأت منذ زمن طويل، إلا إنها تكثفت في فترة الفتح العربي الإسلامي، وفترة الحكم الأموي، وفي فترة حكم صلاح الدين الأيوبي، واستمرت بعد ذلك دون انقطاع.[1]

1 د. شاكر مصطفى، القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، اتحاد الجامعات العربية، ج 1 .

سمات التوطن العربي في فلسطين [1]

- لم تختلف موجة التحرك العربي نحو فلسطين في صفاتها العامة عن مثيلاتها السابقات، فهي زحف بدوي على الحضر، وتوطن يغذي البلاد دون انقطاع برصيد جديد من الدماء السامية.
- كانت القبائل الوافدة تندمج مباشرة مع القبائل الأصلية المقيمة، ويعود ذلك إلى عدم التنافر العرقي والحضاري فيما بينهم.
- كان التسرب العربي بطيئا، ولكنه كان مصمما ومستمرا وقد دام أكثر من أحد عشر قرنا من الزمان، وهي فترة حكم الفرس واليونان والرومان والروم، وكان في معظم الأحيان سلميا هادئا، وأحيانا أخرى عنيفا هجومياً.
- كان الدافع الرئيسي لهذه الحركة العربية دافعا اقتصاديا في سنوات القحط والمحل، أو الطمع في أراضي الخصب والخضرة، أو بحثا عن الاستقرار والتوطن، وقد استمر هذا المد العربي إلى أن جاء الفتح العربي الإسلامي ورفد المنطقة بدماء عربية جديدة من الجنود الفاتحين وعائلاتهم، وفي عهد القائد صلاح الدين الأيوبي حدث تدفق آخر للقبائل العربية إلى فلسطين بتشجيع من صلاح الدين، لسد الفراغ ورفد المنطقة بطاقات ودماء عربية جديدة، للدفاع عن الأرض المقدسة ومقاومة احتلال الفرنجة.
- إن هذا التوطن العربي السلمي في البلاد قد ألغى الحدود والحصون العسكرية، وجعل من فلسطين منطقة مفتوحة أمام الأفواج العربية القادمة من الصحراء، وهذا المدد أنعش العناصر السكانية القديمة وجعلها تتقوى على العناصر الأجنبية (اليونانية والرومية).

---

1 د. شاكر مصطفى، القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، اتحاد الجامعات العربية، ج 1.

الفصل الرابع

اليهـوديـة والصهـيونـية

يهود العالم، والزمن اليهودي المفقود

وكما أسلفنا، فقد شكل كلٌ من دمار القدس عام 70 م، وبطش «هارديان» باليهود عام 135م علامة فارقة في التاريخ اليهودي، فبعد هذا التاريخ وحتى القرن الرابع الميلادي تحولت العقيدة اليهودية المتوهجة إلى مجرد جدل تلمودي سفسطائي، ومع تضافر عوامل أخرى وجد اليهود أنفسهم يواجهون خطر الفناء الحقيقي، فكل من نجا من تلك الأحداث إما أن تحول للمسيحية، أو هام على وجهه في ربوع الأرض، والقلة القليلة الباقية انكفأت على نفسها، وانطوت على ذاتها لتعيش كطائفة هامشية صغيرة، لم يأتِ التاريخ على ذكرها بعد ذلك، وطوال خمسة عشر قرنا، حيث دخلت عالم النسيان. أي بعبارة أخرى صار من الممكن تسمية التاريخ اليهودي بالزمن المفقود.

قسمٌ من اليهود توجه جنوباً إلى الجزيرة العربية واليمن، وقسم آخر توجه شرقا لينضم إلى بقية المسبيين في بابل، وقسم آخر واصل المسير إلى بلاد فارس، وقسم توجه غربا نحو المغرب وبلاد الأندلس فيما بعد، وقسم آخر توجه شمالا نحو أوروبا لينضم إلى من سبقوهم هناك إبان حكم اليونان؛ وهكذا عاشت جموع اليهود مرحلة الشتات ليذوبوا شيئا فشيئا ضمن النسيج الاجتماعي للبلدان التي توجهوا إليها.

النشطاء والمتحمسون من هؤلاء اليهود واصلوا نشاطاتهم التبشيرية في المجتمعات الجديدة - وهي نشاطات تهويدية كانت قد بلغت ذروتها إبان حكم المكابيين، واستمرت متقطعة حتى العصور الوسطى – وقد ظلت اليهودية كل هذه المدة ترحب بقدوم أقوام جديدة ليدخلوا فيها، وهكذا انتشرت اليهودية في كل من اليمن والحبشة، وأواسط وشرق أوروبا، وبلاد الأندلس، وشمال إفريقيا، هذا إلى جانب العناصر التي دخلتها عن طريق الزواج.

لكن أول كتلة كبيرة دخلت اليهودية كانت في اليمن زمن الملك الحميري «تبان أسعد أبو كرب» في القرن الخامس الميلادي قبيل الإسلام، أما الملك الحِمْيَري «ذو نؤاس» أوائل القرن السادس الميلادي فقد حاول إجبار مسيحيي اليمن على دخول اليهودية كمقدمة لإقامة تحالف مع الفرس ضد البيزنطيين المسيحيين، الذين دعموا جهود ملك الحبشة المسيحي في غزوه اليمن واجتياحه جزيرة العرب، في سياق الصراع المحتدم بين البيزنطيين والفرس على بسط نفوذهم على جزيرة العرب وخلق كيانات موالية لهم.

ولكن اليهودية في اليمن انحسرت في نطاق الملوك، ولم تنتشر بين أوساط الناس، ومع قدوم الإسلام تحول قسم كبير منهم للديانة الجديدة.

إذن، فيهود اليمن هم من العرب، عاشوا في البلاد العربية ضمن بيئتها الحضارية التي لم ينسلخوا عنها أو يتنكروا لها، كذلك فيما يخص يهود العراق والجزيرة العربية؛ فهم أيضا عرب، وأسماؤهم عربية. المؤرخ «اليعقوبي» يؤكد أن بني النضير وبني قريضة هم فخذ من جذام، تهوّدوا إثر النشاطات التبشيرية التي قام بها أحبار اليهود.

ومع سقوط الأندلس عام 1492م عانى كل من اليهود والمسلمين من محاكم التفتيش على حد سواء، وعلى إثرها توجه قسم كبير من اليهود إلى المغرب ليعيش في كنف الدولة الإسلامية، وقسم آخر تفرق في البلدان الأوروبية.

أما أكبر كتلة دخلت اليهودية فكانت من شعوب الخزر، وهم شعوب آرية كانت تسكن في المنطقة الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين جوار مصب نهر الفولغا، وكانوا يؤمنون بإحدى نحل «الشامانية» (وهي عبارة عن دين بدائي انتشر شمال آسيا وأوروبا، اعتقد أتباعه بوجود عالم من الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وهذا العالم لا يستجيب إلا للكاهن الشامان بواسطة قدرات سحرية معينة)، وبسبب موقع بلاد الخزر بين حدود الإمبراطورية الإسلامية والبيزنطية ارتأى ملكهم (الخاقان) أن اعتناق اليهودية سيشكل موقفا متوازنا ومقبولاً من طرفي الصراع، بحيث يجنب بلاده دخول أي منهم، وبالتالي يُبقي

على بلاده في منأى عن الصراع.[1]

وهذا ما يؤكده أيضا «شلومو ساند» إذ يقول: «إذا استبعدنا التبشير الديني الحافل بالإغراء، سيبقى لدينا تفسير سبق أن أثبت نجاعته في فهم تهوُّد مملكة حِمْيَر، فالرغبة في إبقاء إمبراطورية الخزر مستقلة، في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية، والخلافة العباسية - وهي إمبراطوريات ذات تطلعات توسعية - دفعت حكام الخزر إلى تبني اليهوديةكسلاح أيديولوجي فعال؛ فلو تبنى الخزر الإسلام مثلا، لكانوا قد وقعوا تحت إملاءات الخليفة، ولو استمروا في التمسك بالوثنية لجعلوا أنفسهم هدفا للتصفية من قِبَل المسلمين، كما أن الإيمان بالمسيحية سيربطهم بالإمبراطورية البيزنطية لأمد طويل، بينما الانتقال التدريجي من الشامانية إلى اليهودية ساهم في بلورة وتكريس نظام ملكي مستقر».[2]

وهناك أكثر من رواية على تعرف الملك على اليهودية، والثابت أن هذا التهود قد حصل في القرن الثامن الميلادي، وقد خاض معهم العرب معارك عنيفة، ففي العام 717م هاجم الخزر منطقة أذربيجان ونكلوا بسكانها المسلمين، مما دفع بالخليفة إلى إرسال جيش على رأسه «حاتم بن النعمان» سجَّل نصرا عليهم، وفي حملة أخرى بقيادة «مروان بن محمد» عام 737 م سميت حملة السابحة هزم فيها الخاقان «هزار بن طرخان».[3]

والخزر شعب انحدر من القوقاز، وعاش على ضفاف الفولغا، ويصير نسبهم إلى بدايات الجنس الآري، من أصول تركية، أو هونو – بلغارية، امتزجوا في بداية استيطانهم مع «السكوثيين» الذين سبقوهم إلى تلك المنطقة الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين (بحر الخزر)، واحتوت مملكتهم في أوج قوتها على خليط من القبائل والمجموعات اللغوية من الألانيين إلى البلغاريين والمجريين والسلافيين. وما من رابطة عرقية لهم مع العرق السامي. [4]

وبعد سقوط إمبراطورية الخزر عام 965 م على يد الروس وانحسارها في

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 257 .
2 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 288.
3 الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني، ندوة فكرية، عمان، المجلس القومي للثقافة العربية ط1، 1991 ص 64.
4 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 280.

حدود أضيق، ومن ثم انتهاء الإمبراطورية تماما تحت أقدام الغزو المغولي بقيادة «جنكيزخان» في القرن الثالث عشر الميلادي، تفرق يهود الخزر، وقاموا بسلسة من الهجرات إلى مناطق آمنة ليشكلوا نواة التجمع اليهودي الكبير في أوروبا الشرقية وروسيا وأوكرانيا وأوروبا الغربية، والأغلبية الساحقة من يهود الولايات المتحدة الأمريكية.

هذه الحقائق التاريخية عن الخزر، وأصولهم، وعلاقتهم بالمشروع الإسرائيلي، جعلت حراس وصانعي الذاكرة الإسرائيلية يرتعدون خوفا من شبح الماضي الخزري، وهذا الجزع العميق سببه الخشية من تعميم حقيقة أن الجمهور اليهودي المستوطن (الذين يعودون بأصلهم للخزر، وهم يمثلون أغلبية سكان إسرائيل) ليسو وريثا شرعيا أو مباشرا لِ «بني إسرائيل»، والخوف أن تمتد هذه اللاشرعية لتقوّض بصورة تامة الشرعية التي تستند إليها دولة إسرائيل في حقها في الوجود.

«آرثور كوستلر»، مؤلف كتاب القبيلة الثالثة عشر، كتب ما يؤيد ذلك: «الأغلبية الكبرى من يهود العالم في الوقت الحاضر، هم من أصل أوروبي شرقي، وبالدرجة الأولى من أصل خزري، وهذا يعني أن أجدادهم لم يجيئوا من الأردن، بل من نهر الفولغا، ولم يجيئوا من أرض كنعان، بل من القوقاز، مهد الجنس الآري، وهم من حيث التركيب الوراثي أقرب إلى قبائل الهون والآوجور، منهم إلى ذرية إبراهيم وإسحق، وبالتالي – إذا ثبت ذلك – فإن تعبير معاداة السامية سيكون خاليا من معناه، وقصة إمبراطورية الخزر تكاد تبدو كأنها أكبر خدعة اقترفها التاريخ في أي وقت مضى».[1]

واعتمادا على احصاءات وردت في الموسوعة اليهودية فإن عدد اليهود في العالم في القرن السادس عشر للميلاد كان يربو عن المليون نسمة، وهي إشارة على أن معظم من اعتنق اليهودية في العصور الوسطى كانوا من الخزر، وقد سكن قسم منهم في بولندا ولتوانيا وهنغاريا والبلقان، وأسسوا التجمعات اليهودية التي

1 آرثور كوستلر، القبيلة الثالثة عشر، ترجمة أحمد هاشم، الهيئة المصرية للكتاب، 1991، ص 24. نقلا عن شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ص305.

باتت تمثل الأغلبية الساحقة ليهود العالم[1]، وبطبيعة الحال فإن هؤلاء اليهود لم تطأ أقدامهم هم ولا أجدادهم الأوائل أرض فلسطين في يوم من الأيام، ولم تربطهم بها أي علاقة تاريخية، ولم تدخل أحلامهم ولا تصورهم عن المستقبل إلا بعد مجيء الحركة الصهيونية، التي صورتها لهم كأرض الميعاد.

واليوم فإن عدد يهود العالم يقارب 12 مليون يقيم أغلبيتهم في الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا والأرجنتين وبقية دول العالم، فيما يقيم داخل إسرائيل 4.9 مليون يهودي فقط [2]. وليس هناك في كافة أماكن عيش اليهود ثقافة يهودية علمانية أو دينية مشتركة لكل يهود العالم، وهؤلاء اليهود وإن أبدى الكثير منهم تعاطفا مع دولة إسرائيل، فإن هذا التعاطف لا يرقى إلى إمكانية ترجمته فعليا، أي بالتوجه إلى إسرائيل والإقامة فيها؛ لأن ذلك سيعني تركهم أوطانهم القومية الفعلية التي يرون أنفسهم فيها مواطنين حقيقيين، وأقصى ما يمكن لهم تقديمه هو التعبير عن الدعم بأشكال رمزية، أو النظر إلى إسرائيل كدولة احتياطية للمستقبل.

وخلاصة القول، يوردها «ساند» قائلا: «من أحفاد أولئك الذين تهودوا حول حوض البحر المتوسط، في مملكة حديب، والحميريين ، ومن نسل البربر والخزر، ساهمت العقيدة اليهودية في إيجاد روابط بين مجموعات لغوية – ثقافية مختلفة، ظهرت وتبلورت في بقاع جغرافية متعددة ومتباعدة، وسلكت دروبا تاريخية مختلفة ومتباينة، الكثير منهم تخلى عن يهوديته، لكن آخرين تشبثوا بها بإصرار، وتمكنوا رغم كل الصعاب والتقلبات من الوصول بها حتى أعتاب عصر العلمانية».[3]

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 260.
2 أرنون سوفيؤ، إسرائيل ديموغرافيا 2000 ~ 2020، مخاطر واحتمالات، ترجمة محمد غنايم، مدار، رام الله 2001.
3 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 316.

المسألة اليهودية

درج الخطاب الصهيوني على استخدام مصطلح «المسألة اليهودية» في إشارة منه إلى الظروف الصعبة والمشاكل التي عانى منها اليهود من جراء يهوديتهم لا غير في العصور الوسطى، وبشكل أكثر في القرن التاسع عشر.

والحقيقة أن الإعلام الصهيوني تعمد استخدام هذا المصطلح مع إدراكه أنه ليس تعبيرا حقيقيا عن مشاكل جميع اليهود في العالم، فالمشاكل التي عانى منها اليهود إبان حكم الرومان تختلف عن مشاكل يهود الأندلس، وهذه تختلف عن مشاكل يهود روسيا، وهذه أيضا تختلف عن مشاكل اليهود العرب أو اليهود الأمريكان... وهكذا، وبالتالي فهذا الخلط بهذا الشكل يفرغ المصطلح من أي محتوى موضوعي ويجعل منه تعبيرا دوغمائيا مدفوعا لأغراض سياسية.[1]

والواقع أن المسألة اليهودية إذا ما أردنا أن نضعها في إطارها الموضوعي متحررين من سطوة الخطاب التوراتي / الصهيوني سنجد أنها عبارة عن التناقضات الاجتماعية والسلوكية بين اليهود وغيرهم من الشعوب، وهي لا تختلف جوهريا عن أي تناقضات أخرى بين القوميات والطوائف الأخرى، والمسألة اليهودية إشكالية يمكن حلها بسهولة إذا تخلى اليهود عن تعصبهم، واعتبروا أنفسهم مواطنين عاديين في الدول التي منحتهم الحقوق والمساواة.

والواقع أن اليهود تعرضوا لسوء المعاملة على يد الأوروبيين وقد عانوا الكثير، وهنالك الآلاف من الضحايا الأبرياء، بيد أنهم عاشوا بحرية وكرامة في البلاد العربية.

وزعماء اليهود رفضوا فكرة الحقوق المدنية ونظريات الاندماج، معتبرين أن مثل هذه الإجراءات تمثل بداية فنائهم «كشعبٍ مختار» وظلوا متمسكين بواقعهم

1 عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، منشورات عالم المعرفة، الكويت، ط1 .

الانعزالي المتغلق في الجيتو والأحياء اليهودية الأخرى.[1]

والقيادات اليهودية في فرنسا هي أول من رفضت مبادئ الثورة الفرنسية وقوانينها التي اعتبرت اليهود مواطنين فرنسيين متساويين مع غيرهم في الحقوق والواجبات، إلا أن مشاركة بعض اليهود في الثورة أدى إلى خلق صراع طبقي حاد داخل الجيتو جعل وضع القيادة الدينية (الكاهال) في خطر، ومن ناحية أخرى بدأت قطاعات واسعة من اليهود تدرك مزايا الاندماج وتدكُّ أسوار الجيتو مما أدى في نهاية الأمر إلى ضعف وتراجع سلطة الكاهال، وبالتالي فقدانها لامتيازاتها، إذ إن تداعيات الثورة الفرنسية طرحت السؤال المفصلي: هل اليهود أمة مستقلة؟ أم هم مجرد أتباع ديانة سماوية؟

في هذه المرحلة في أوروبا بدأ اليهود في الخروج من الجيتو الذي انغلقوا فيه طوعا أو كرها طوال قرون عديدة، وبدأت تداعيات الثورة الصناعية تعطي ثمارها في بلورة تكوين طبقي في المجتمعات يتجاوز الانتماء الطائفي، وذلك في ضوء التحول إلى النظام الرأسمالي وتلاشي العلاقات الإقطاعية التي كانت بمثابة عقبة كأداء أمام النهضة الصناعية، وبدأت ملامح البرجوازية الوطنية تتشكل كطبقة تبحث عن مصالحها الذاتية انطلاقا من الحريات الأساسية التي بدأت الشعوب تنعم بها.[2]

1 جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، ص 266 .
2 الهجرة اليهوديةوالمشروع الصهيوني، ندوة فكرية، عمان، المجلس القومي للثقافة العربية ط1، 1991 ص 65.

نشأة الحركة الصهيونية

أتت نتائج ما رمت إليه السياسة الأوروبية تجاه اليهود تماما على عكس المقصود منها، فإذا ما هدفت الحكومات الأوروبية من خلال القوانين التي فرضتها على الجماعات اليهودية من عزل اليهود ومعاقبتهم، على إثر مشاكل معينة حدثت في بريطانيا وإيطاليا وغيرها في القرون الوسطى، وتوقعت أن هذا العزل سيجنب مجتمعاتهم مثل تلك المشاكل، ويجعل من اليهود فئة هامشية ليست ذات شأن يذكر، إلا أن إبقاء اليهود داخل تلك الجيتوات أدى إلى حماية الخصوصية اليهودية وسط التقلبات التي عصفت في أوروبا طوال تلك العصور، ومنعتهم من الاندماج والذوبان، وأبقت على تجمعاتهم ككتل متحدة في مواجهة الغير الذي ظل يرفضها وينأى عنها.

وعاش اليهود في أوروبا طوال العصور الوسطى والحديثة في ظل قانون خاص عرف بقانون الأجانب، مما جعلهم معزولين ثقافيا وجغرافيا واقتصاديا عن المجتمعات الأوروبية المحيطة بهم، وظلوا يمارسون داخل أسوار عزلتهم حياتهم الخاصة وكأنهم وحدة اجتماعية مستقلة، ولا شك أن نظام الجيتو هذا كان له الدور الحاسم في الحفاظ على الروح اليهودية والإبقاء على جذوتها متقدة، في عالم كان من أهم سماته سرعة وعمق التغيرات والتقلبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومن المؤكد أن انتصار الليبرالية في أعقاب الثورة الفرنسية كان عاملا هاما في تحرير يهود فرنسا، وبالتالي تحطم نظام الجيتو وإنهيار أسواره فيما بعـد.[1]

وحتى قبل أن تباشر بقية دول أوروبا في تغيير سياستها تجاه اليهود ورفع القيود عنهم، كانت أحوال اليهود في أوروبا قد بدأت تتأثر بالحركات الثقافية

1 د. أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية،

المستنيرة، فمثلا «مورس مندلسون» الذي ارتبط اسمه بما سمي بالإستنارة اليهودية أيقظ الروح العلمانية بين اليهود حين أسس حركة «الهسكلا».

وما أن انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت رياح الليبرالية والتنوير قـد عملت على تحرير يهود أوروبا الغربية ثم الوسطى، في حين استكمل تحرير يهود أوروبا الشرقية في عشرينيات القرن العشرين.

إلى جانب قوى الاستنارة بدأت الظاهرة القومية بالظهور والانتشار في أوروبا، وذلك في ذروة العهد الكولونيالي وصراع الدول الغربية فيما بينها على مناطق نفوذ في المستعمرات الخارجية ورسم خارطة للنظام العالمي آنذاك، ولما كان الشعور القومي اليهودي متفرعا عن الاتجاه القومي العام في أوروبا ومتأثرا بـــه وأحيانا لمواجهته، فما إن حصل الالتقاء بين المجموعات اليهودية والمجتمعات الأوروبية حتى بدأت الفروقات والتناقضات تطفو على السطح على مختلف الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقد ساهمت الحركات القومية الأوروبية في تعميق هذه التناقضات، وذلك بتأكيدها على قوميتها الخاصة والنظر لليهود على أنهم غرباء، مما ولد ردات الفعل اليهودية في البحث عن هويتها القومية هي الأخرى.

وحدث في تلك الأثناء أن تعرضت موجات تحرر اليهود والتيارات الليبرالية لانتكاسة في روسيا إثر اغتيال القيصر عام 1881م وتوجيه أصابع الاتهام لليهود، مما ولد ردود فعل غاضبة على المستويين الرسمي والشعبي انتهت بمذابح دموية تعرض لها اليهود. وعلى الرغم أن الجماعة اليهودية الوحيدة التي تحلت بسمات إثنية مشتركة على مدار التاريخ كله، هي تلك الجماعة التي كانت تقيم في روسيا، إلا أنها رغم ذلك لم تتطلع إلى الاستقلال القومي، وتمثل أقصى ما طالبت به في الحكم الذاتي الثقافي في إطار الدولة الروسية القيصرية.[1]

ولكن الثمن الذي دفعه اليهود بعد مذابح 1882 أدى إلى تراجع دور حركات الاستنارة والاندماج التي اعتبرها الكثيرون قد فشلت وأعطت نتائج عكسية

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة سعيد عياش، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، رام الله، ط1، 2010، ص 14.

وزادت في تنامي مشاعر اللاسامية، وصارت المسألة اليهودية ملحّة أكثر من أي وقت مضى، وتطرح أمام اليهود الأسئلة الكبرى وتستدرج ردود أفعال وخيارات متعددة، غايتها إيجاد حل عملي لها، إذ أخذت تعقيداتها تتفاقم ولم تعد تحتمل الانتظار، ومن بين هذه المقترحات والحلول:

- التدين وانتظار المسيح المخلص: ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه بأن اليهود سيبقون مضطهدين بسبب ما اقترفوه من جرائم بحق الرب، وأن خلاصهم لن يتم من خلال جهد إنساني، بل إن الله سيضع حدا لعذاباتهم حين يبلغون ذروة الاضطهاد، وحينها فقط سيُبعث المسيح المنتظر ليخلصهم.[1]
- التحول للمسيحية: آمن أصحاب هذا الاتجاه بأن حل مشاكل اليهود يكمن في التحول للمسيحية، وكان «هرتزل» نفسه من أصحاب هذا الاتجاه.[2]
- الذوبان في المجتمعات والاندماج فيها، والحصول على المواطنة العادية على قاعدة المساواة في الحقوق والواجبات، دون أن تعني اليهودية تميز عن باقي أفراد المجتمع.
- الهجرة في ربوع الأرض، مع إن أغلبية المهاجرين توجهوا إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، وقسم ضئيل توجه إلى فلسطين.
- المشاركة في الثورات الاجتماعية، وبشكل خاص ضمن الأحزاب الشيوعية كسبيل للتمرد على الوضع القائم، في حين أن آخرين معتدلين آمنوا بأن انتصار الديموقراطية وسيادة النظم الدستورية سيضع حدا لمآسي اليهود.
- القومية: حرّكت الموجة اللاسامية في روسيا وأوروبا التي ترافقت مع بزوغ عصر القوميات حركت تململا اجتماعيا في أوساط اليهود أدى إلى تنامي الوعي العرقي والثقافي بينهم، ومن ثم إلى تبلور وعي سياسي عبرّ عن نفسه من خلال حركات وجمعيات جنينية ذات طابع ثقافي / عرقي، وبلورة مجموعة من الأفكار والآراء لرواد ومؤسسي الفكر الصهيوني الذي

---

1 المنظمة الصهيونية العالمية ، د. أسعد عبد الرحمن، مصدر سبق ذكره.
2 خالد الحسن، أمريكا وإسرائيل، منشورات دار الكرمل، عمان.

سيظهر في مرحلة قريبة ومن أهمهم:[1]

1. الحاخام «زفي هيرش كاليشر» 1795 ~ 1874: عبرّ في كتابه «البحث عن صهيون»عن آرائه المعارضة للحل المنادي بالتدين، وأكد على أن حل المسألة اليهودية يتم بالجهد الإنساني وليس على يد المسيح.
2. «موزس هس» 1812 ~ 1875: ادعى في كتابه «روما والقدس» أن الاتجاه الداعي للذوبان والاندماج لن يلاقي إلا الفشل، وزعم أن العرق اليهودي من أقدم الأعراق وأنقاها وهو القادر على تفجير الطاقات اليهودية الخلاقة.
3. «ليوبنسكر» 1821 ~ 1891: شن هجوما في نداء «التحرر الذاتي» على مقولة أن النظام الروسي سيطور نفسه إلى ملكية دستورية تضمن المساواة بين الشعوب وتمنح الحريات العامة للناس، وبالتالي على اليهود الانخراط ضمن المجتمع الروسي، ومع أن «ليوبنسكر» نفسه كان من أشد المؤيدين لهذه الأفكار؛ إلا أن مذابح 1882 وتداعياتها جعلته يتراجع عنها ويدعو إلى خلق قومية خاصة بالشعب اليهودي.
4. «ثيودور هرتسل» 1860 ~ 1904: ولد هرتزل في المجر ولفترة طويلة بقي مندمجا في المجتمع الأوروبي مزاولا العمل الصحفي ومنقطعا كليا عن الدين اليهودي واللغة العبرية، وفي العام 1895 وعلى إثر قضية محاكمة الكابتن «درايفوس» انقلب فكرُهُ واتجــه نحو الدعوة للقومية اليهــودية، فألّف كتاب «الدولة اليهودية» ونادى فيه للنظر للمسألة اليهودية على أنها مشكلة قومية وليست اجتماعية، وأن الحل في التأكيد على قومية اليهود وامتلاكهم دولتهم.

إذن، مع تفاقم ما سمي بالمسألة اليهودية، تراوحت اتجاهات الحل في الأوساط اليهودية بين الاندماج والتدين والهجرة وانتظار المسيح... ولكن تنامي الظاهرة القومية في أوروبا رجحت كفة التيار المنادي ببعث القومية اليهودية، وشدَّ من أزرها في مواجهة بقية التيارات. مسألة أخرى أفادت هذا التيار وهي بروز نخب

1 د. أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية.

برجوازية يهودية باتت تتلمس مصالحها الذاتية في نطاق وطن قومي لليهود تحالفت مع طبقة رجال الدين، أرادت هذه النخب (الصهيونية) تأميم الديانة اليهودية، ومصادرتها لصالح مشروعهم الجديد، وكانت نقطة البدء هي تحويل تاريخ الجماعات اليهودية إلى سيرة شعب إثني صاحب قضية قومية.

من المعروف أن رجال الدين «تاريخيا» يبلورون مصالحهم ويحققون مكاسبهم من خلال وحدة الطائفة. البرجوازية اليهودية أصبحت ترى مصالحها خارج أسوار الجيتو «في العالم الاستعماري الجديد»، وهكذا اتفقت مصالح الطرفين، ولكن يتبقى عليهم البحث عن حليف دولي تلتقي مصالح الكل عند نقطة معينة، وهنا يمكننا القول إن الظروف الذاتية والموضوعية قد نضجت، ولم يبقَ للصهيونية إلا أن تظهر وتعلن عن ميلادها وإلا اضطرت بريطانيا – زعيمة الإمبريالية آنذاك – إلى اختلاقها.

إذن، في الوقت الذي كانت فيه الفكرة الصهيونية تعتمل في الفكر اليهودي وتتبلور كحل للمسالة اليهودية، كانت صهيونية أخرى تعتمل في أروقة الدوائر الإمبريالية ومراكز صنع القرار، ولكن كأداة للمشروع لاستعماري الغربي في الوطن العربي.

ومنذ عقد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الصهيونية تيارا هزيلا للغاية في صفوف الجماعات اليهودية في العالم (في ألمانيا كانت نسبة اليهود الصهاينة في العام 1914 لا تزيد عن 2%، وفي فرنسا كانت أقل من ذلك)[1]؛ وما من شك أنه لولا صهيونية الدول الإمبريالية لبقيت الصهيونية اليهودية مجرد حلم وشعارات لن ترى النور أبداً، وربما كان سينتصر إحدى الاتجاهات الفكرية الأخرى المناوئة للفكرة القومية، فعلى سبيل المثال فقد هاجر ملايين اليهود إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية، وبضعة آلاف فقط توجهت إلى فلسطين، وتيار الاندماج كان في البداية كاسحا للحد الذي أرعب رواد الصهيونية، كما أن التيار الديني اليهودي المعادي للصهيونية كان واسعا ورفض التورط في هذه المغامرة، بل وأطلق

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره. ص 327.

على دعاتها تسمية الصهيونية اللاسامية، والأغلبية من اليهود العاديين لم يروا في الصهيونية تعبيرا عن مصالحهم أو تجسيدا لحلمهم وظلوا لفترة ليست بالقصيرة على الحياد.

دولة إسرائيل - المشروع الاستيطاني الصهيوني

كما كانت فلسطين بموقعها وأهميتها الحيوية حاضرة في ذهن «كورش الفارسي» حين ساعد اليهود على بناء كيان سياسي موالٍ له فوق الأرض الفلسطينية، فإن ذات الفكرة ونفس الأهداف لم تغب عن بال كافة الدول الاستعمارية التي لها مصالح حيوية في منطقة الشرق الأوسط، وكان أول من أطلق صافرة البدء في سباق السيطرة على المنطقة هو «نابليون بونابرت» في حملته الشهيرة على مصر وفلسطين، والتي انتهت بهزيمته في واترلو عام 1815، وكان قد وعد اليهود ببناء وطن لهم في فلسطين إذا ما ساعدوه في حملته تلك، إلا أن عرضه هذا لم يجد آذانا صاغية. تبعه «بسمارك» الذي اصطدم مشروعه بموانع جغرافية وطبيعية. ثم جاء وزير المستعمرات البريطاني «بالمرستون» وقدّم وعودا عديدة لليهود مقابل أن يبنوا لأنفسهم كيانا مواليا وتابعا للتاج البريطاني، إلا أن اليهود رأوا في كل تلك الدعوات مغامرة تاريخية غير مضمونة النتائج. [1]

وكان لشق قناة السويس وأهميتها في السيطرة على طريق الهند، واكتشاف النفـط في المنطقة، دور بالغ الأهمية في رسم السياسة الاستعمارية الجديدة، وإعادة التفكير جديا في إيجاد حليف من نفس المنطقة يؤمّن لها هذه المصالح ويحميها.

فبينما كانت الإمبراطورية العثمانية تلفظ أنفاسـها الأخيرة، ودول أوروبـا الطامحة تؤجل انقضاضها على «الرجل المريض» وتنتظر سقوط ورقة «المسألة الشرقية» من تلقاء نفسها لتقتسم الكعكة فيما بينها، كانت روسيا القيصرية تتدخل في شؤون المنطقة تحت ذريعة رعاية المسيحيين الأرثوذوكس، فيما فرنسا وجدت موطئ قدم لها في لبنان منذ وقت مبكر بحجة حماية المسيحيين

1 للمزيد من التفاصيل أنظر: إسرائيل مشروع استعماري، شاكر النتشة، دار الجليل للنشر، عمّان.

الكاثوليك، أما بريطانيا والتي لم تجد رعايا بروتوستانت في المنطقة تتذرع بهم، فبحثت عن طائفة أخرى، وهكذا طلبت من الدروز أن يطلبوا الحماية البريطانية، إلا أن مذابح الجبل عام 1860 قطعت عليهم الطريق.

أي أن المخطط الكولونيالي لاستعمار الوطن العربي والسيطرة عليه، ومن ثم نهب ثرواته وجعله سوقا لمنتجاتها، وكذلك السيطرة على الممرات المائية والخطوط الدولية يتطلب وجود كيان سياسي موالٍ ومستقر في المنطقة، يقوم بتأمين هذه المصالح الحيوية وحمايتها، وبالتالي فإن الدولة الراعية لهذا الكيان هي التي سيكون لها سبق السيطرة على المنطقة.

في ظل هذا الوضع الدولي الدقيق كانت الظروف مهيأة تماما لإقامة الحلف «غير المقدس» بين بريطانيا والحركة الصهيونية، الحلف الذي جعل أكثر الكارهين لليهود يتحولون إلى أشد الناس حماسة للفكرة الصهيونية، وهكذا لم يكن أمامهما إلا الانطلاق إلى عالم الواقع.

ولما كان النظام الدولي الإمبريالي بعد اتفاقه على تقسيم الورثة العثمانية قد حدّد لنفسهِ معالم المرحلة والتحديات المفروضة عليه والمخاطر المحدقة بوجوده ومصالحه، وبناء على ذلك وضَعَ استراتيجياته وتكتيكاته على المدى البعيد في مؤتمر «بنرمان» في لندن (1904 ~ 1907م)،[1] أي على ضوء فهمه لأهمية الوطن العربي ومدى الخطر الذي سيشكله في حالة امتلاكه لمقدراته ونهوضه وتوحده، ثم حدد بعد ذلك خطواته العملية بشكل أدق في اتفاقية «سايكس بيكو» (1916)، ووعد بلفور (1917)، ومعاهدة «سان ريمو» (1920)، والتي كانت ترجمتها غرز كيان موالٍ في قلب الوطن العربي، ذو دور وظيفي محدد.

وفي ذات الوقت بدأت الحركة الصهيونية تترجم أفكار روادها الأوائل إلى واقع ملموس من خلال تنظيمات جنينية وجمعيات صغيرة، تُوجت بانعقاد مؤتمر بازل في سويسرا عام 1897 (كان من المفترض أن ينعقد في ميونخ ولكن الجالية اليهودية فيها عارضت ذلك بشدة)[2]، وبانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول

1 شكك عدد كبير من المؤرخين في حدوث هذا المؤتمر من أصله.
2 روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دار الغد العربي ط1، 1996 عمان، ص 20 .

حُسم موضوع ضرورة إيجاد وطن قومي لليهود، وحددت خيارات عديدة لموقع هذا الوطن من بينها الأرجنتين، العريش، أوغندا، قبرص... فلسطين، ولم يحسم الموضوع باختيار فلسطين إلا في المؤتمر الصهيوني السادس عام 1903، وتحديدا بعد وفاة هرتزل.

وفي مؤتمر بالتيمور في نيويورك عام 1942 قــرر المؤتمر الصهيوني استبدال الحليف البريطاني بالأمريكي، ولا غرابة في ذلك؛ فأمريكا كان ينتظرها المستقبل، فيما غدت بريطانيا العجوز تتهيأ للانسحاب من معظم مستعمراتها لتسلم زعامة العالم الإمبريالي إلى الوريث الجديد (الولايات المتحدة الأمريكية).

اختلف التحالف وظلت نفس الأسس تحكم العلاقة بين إسرائيل وسيدها الجديد، وظل الدور الوظيفي للكيان الإسرائيلي كما هو: موقع متقدم للإمبريالية، وحليف عضوي، ورأس جسر للسياسة الأمريكية، وشرطي يلوح بعصاه في وجه حركات التحرر، وحارسا أمينا على المصالح الحيوية الأمريكية، وسدا منيعا أمام تحقيق الحلم العربي بالوحدة والتقدم وامتلاك مقومات النهوض والقوة.

إشكالية الهوية في إسرائيل

يُعرِّف «كارل دويتش» الأمّة في كتابه «القومية وبدائلها» الصادر في العام 1969، بأنها «مجموعة من الناس يوحدها خطأ مشترك حول أصلها، وعداء جماعي تجاه جيرانها». ولعل هذا التعريف ينطبق بصورة واضحة على التجمع البشري في إسرائيل، والذي يسميه الإعلام الإسرائيلي بالشعب الإسرائيلي.

وحول تعريف الأمة والقومية، فإن المفكرين والباحثين ما زالوا يتخبطون في تعريفهما بشكل حاسم لا يقبل التأويل، وبحيث يكون مقبولا من الجميع، وأيضا فإن مصطلحات ذات صلة من قبيل شعب، عرق، إثنية، وطن، دولة قومية، هوية... اكتسبت تاريخيا الكثير من المعاني والدلالات التي يصعب حصرها، وفي كثير من الأحيان أعطيت توصيفات متناقضة، وأحيانا مكمّلة لبعضها أو مرادفة، ولكنها كانت دوما تنطوي على إشكالية.

المفكر والمؤرخ الإسرائيلي «شلومو ساند» يقول أن «صفة «شعب» أطلقت على أي مجموعة بشرية ظلت حدود هويتها فضفاضة، وغير محددة، ومع تعاظم دور المدينة وبداية تطور وسائل المواصلات والاتصالات خاصة في غرب أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، أخذت ترتسم حدود فاصلة أكثر وضوحا بين مجموعات لغوية واسعة، وصار مصطلح شعب يشير بشكل أساسي إلى هذه المجموعات».[1]

ويضيف «ساند»: « بالتزامن مع ظهور القومية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، أخذت تلك الأيديولوجيا والهوية الفوقية الجمعية التي احتضنت جميع الثقافات في العصر الحديث، تستخدمان مصطلح «شعب» بغية تأكيد درجة قِدم واستمرارية القومية التي عملت على بنائها». ويوضح

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة سعيد عياش، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، رام الله، ط1، 2010، ص 52.

«ساند» أن «مكونات ثقافية معينة (لغوية ودينية) هي التي شكلت بداية نشوء الأمم، أي بعد عملية هندسة ذكية جرى فيها تحويل هذه العناصر إلى نوع من الشماعات التي عُلِّق عليها ببراعة تاريخ تلك الشعوب، وبذلك تحول الشعب إلى جسر يربط الماضي بالحاضر، أقيم هذا الجسر فوق الفجوة العقلية العميقة التي خلفتها الحداثة. وهو جسر راح المؤرخون في كل الدول القومية يتمشون فوقه براحة ويسر».[1]

وفي كتابه «اختراع الشعب اليهودي»، يوضح «ساند» تعريفه لمفهوم الشعب بأنه: «مجموعة اجتماعية تعيش في حيز جغرافي محدد، ولها ملامح وسمات تشير إلى قواعد وسلوكيات ثقافية مشتركة مثل اللهجة، المأكولات، الملابس، الأغاني الشعبية وغيرها»[2]. هذه الخصائص اللغوية والإثنوغرافية التي نشأت قبل ظهور الدولة القومية، لم تتكن لتتبلور بالدرجة المطلوبة، لأن الحدود بينها وبين سمات المجموعات الأخرى لم تكن واضحة تماما، ولم تكن جوهرية، بل إن ما عمل على تعيين الحد الفاصل بين الشعوب، وعمل على فرزها عن بعضها هو تاريخ الصراع والحروب، وطبيعة موازين القوى.

أما مصطلح «إثنية» ويعني الشعب باللغة اليونانية، فلم يبدأ استعماله سوى في النصف الثاني من القرن العشرين، ومنذ ذلك التاريخ أخذ استعماله بالتزايد ليشير إلى المجموعة البشرية التي تمتاز بخلفية ثقافية لغوية مشتركة. ويكمن السر في رواج هذا المصطلح في قدرته على المزج بين الخلفية الثقافية وبين روابط الدم، أي بين الماضي اللغوي والأصل البيولوجي، وفي قدرته على توفير الأساس الموضوعي لبناء قومية، تطالب بالاستقلال السياسي.

لم تتوصل البشرية لمفاهيم الأمة، الدولة، القومية.. دفعة واحدة، فقد احتاجت قرونا عديدة قبل أن تُنضج هذه المسميات، وتصبح جاهزة للاستعمال، أي بعد أن راكمت المجتمعات وعيها الإنساني طبقة فوق طبقة، حتى توصلت إليها؛ ففي المراحل المبكرة من التاريخ، كانت التجمعات البشرية «الزراعية» الأولى محدودة وصغيرة، فلم تظهر حينها الانتماءات المتعددة والمتداخلة، ولكن بعد ظهور

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 52.
2 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 55.

القرى الصغيرة البدائية بدأت الانتماءات الأخرى بالبروز، كالانتماء للأرض والقبيلة، ثم الثقافة والدين، ولكن بقاء الحال عند هذا المستوى أصبح متعذرا، خاصة مع الزيادة المضطردة للسكان، ومع تعقد الحياة وتطور وسائل الإنتاج، ومع تعدد الاحتياجات البشرية ونشوء مجموعات بشرية في أماكن متفرقة في محيط جغرافي أكبر. هذا كله أدى إلى تكون انتماءات متباينة ومختلفة نوعيا عن الانتماء الجغرافي، وفي النهاية ظهرت المـُلكية، ومن ثم بدأ الصراع بأشكاله المتعددة، والذي أتت في سياقه الأمم «المتمايزة».

وفي مقدمة كتاب «نجمة كنعان» يقول د. «أحمد عزم»: «إن نشوء الأمة القومية جاء في سياق تحول المجتمعات الزراعية إلى الصناعية في أوروبا»، ويستند «عزم» في هذا إلى نظرية «آرنست جلنر»، الذي يرى أن التصنيع وما يرتبط به من تطور وتحضر يقودان إلى الحداثة، التي تعد العامل الأول في إيجاد القومية، حيث أن حاجة الدولة الحديثة للقوة الصناعية ولجيش يحميها لا تتحقق بدون دولة، وهذه الدولة ستقوم على أساس نظام مركزي للتعليم، تقود إلى تكوين ثقافة جماهيرية مشتركة، تؤدي إلى تراجع الروابط التقليدية (العائلية والدينية) لصالح نوع جديد من العلاقات الاجتماعية محورها القومية.[1]

ويضيف د. «العزم»: «إن ثمة مدخل آخر – غير الحداثة – لفهم كيفية نشوء الأمم وبالتالي الدولة، وهو مفهوم المجتمعات المتخيلة، وهو يعني الحالة العقلية الجمعية للأمة. وأبرز منظري هذه المدرسة «بندكت أندرسون» في كتابه الشهير «مجتمعات متخيلة»، الذي يشدد فيه على البعد الرمزي والثقافي للهوية». ويوضح د. «العزم» بإيجاز مفهوم «أندرسون» للمجتمعات المتخيلة، حيث يرى «أندرسون» أن اكتشاف الطباعة وظهور المطابع الحديثة أدى إلى اتساع نشر الكتب والصحف، والذي أدى بدوره إلى تطوير عقل جمعي وثقافة قومية جمعية في الدول الأوروبية، حيث ساهمت صناعة الطباعة بتطوير لهجاتها لتصبح لغات مستخدمة في الحديث والكتابة، بدلا من اللاتينية التي كانت تجمع الأوروبيين فيما يكتبون.[2]

1 د. أحمد جميل عزم وآخرون، نجمة كنعان، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان ط1، 2011، ص 14.
2 د. أحمد جميل عزم وآخرون، نجمة كنعان، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان ط1، 2011، ص 17.

أما مصطلح «الوطنية» Nationalism فقد ظهر بداية في أوروبا في القرن السابع عشر، ثم انتقل إلى أمريكا ثم إلى بقية العالم، وقد حمل مضامين اقتصادية أيديولوجية عبرّت عن التحولات العميقة التي برزت في أوروبا في تلك الحقبة، وارتبط بمفهوم الدولة وبتشكيلاتها التي ظهرت قبيل الثورة الصناعية، واقترن أيضا بمفهوم «أمة الدولة» Nation State التي توضحت أكثر بعد انتشار الطباعة والصحف، وتطور وسائل الاتصال وتجارة الأسلحة، وقد ازدهرت هذه المصطلحات أكثر من أي مرحلة سابقة في الحرب العالمية الأولى ثم الثانية.

ومفهوم الدولة / الأمة مفهوم حديث لا يتجاوز عمره القرنين، وهو ذو طبيعة سياسية اقتصادية محضة، إذا إنه واكب تاريخ تطور الرأسمالية وصاحَب أشكالها التنافسية والاحتكارية، وقد حمل هذا المفهوم إلى جانب عوامل أخرى لواء الرأسمالية. حيث استطاعت الدولة / الأمة أن تنشئ الإدارات المركزية، وأن تسن القوانين، وأن تكوّن الجيوش لحماية أسواقها وسيادتها، ولفرض هيمنتها وتوسعها في مراحل انتقالها للطور الكولونيالي، ومن ثم فإنها نجحت وإلى حد بعيد في تكريس قيم القطرية واقتصاد السوق، وبالتالي في خلق ما سمي بالبرجوازية الوطنية، والثقافة الوطنية، والهوية الوطنية.[1]

في البلاد العربية التي خضعت للاحتلال العثماني قرابة الأربعة قرون لم تكن ملامح القومية العربية ولا الهوية الوطنية قد تشكلت على النحو الذي نشهده الآن، ليس بسبب القمع العثماني للشخصية العربية ومنْعِ نموها أو تبلورها وحسب، بل ولأن العرب ارتضوا الذوبان في الهوية الأكبر، التي كانت تعبر عنها الدولة العثمانية تحت لواء الإسلام، وبسبب التقارب الثقافي أيضا؛ لذلك لم تكن هناك أية هويات وطنية عربية، بل كانت هناك هوية إسلامية مقابل هوية مسيحية أوروبية غربية.

ولكن مع نشوء الحركات القومية الوطنية في أوروبا في بدايات العهد الكولونيالي تأثرت الشعوب العربية، وبدأت تتململ وتعبر عن نفسها بأكثر من شكل، وبدأت في داخل الدولة العثمانية نفسها تبرز هويات كبرى متعددة أبرزها الهوية

1 يحيى اليحياوي، العولمة: أية عولمة، أفريقيا للنشر، ط1، بيروت 1999. ص 48

التركية مقابل الهوية العربية، وقد برزت هذه الهوية العربية أكثر وبشكل أشد وضوحا في أواخر العهد التركي بعد ظهور القومية التركية الطورانية. وبعد نجاح الاستعمار الغربي في تجزئة العالم العربي إلى أقطار عديدة، حيث أخذت تظهر فيها هويات وطنية محلية (سورية ولبنانية ومصرية ...).

وهنا نشأ التباس بين مفهومي الوطنية والقومية، في هذا الصدد يقول د. «أحمد عزم»: «هناك إشكالية في ترجمة كلمة Nationalism إلى العربية، فرغم أن الترجمة الأقرب هي القومية، إلا أن المعنى في كثير من الأحيان هو الوطنية؛ حيث بدأ في النصف الثاني من القرن العشرين ميل عام للربط بين القومية والعروبة. لكن كلمة Nationalism ظلت مرتبطة بمفهوم الأمة / الدولة، التي تعني في السياق الأوروبي (الدول التي تأسست بعد عصر الإقطاع وانتهاء فكرة العالم المسيحي). بينما يشيع في الأدبيات العربية استخدام مفهوم الدولة القطرية للتعبير عن الدولة الحديثة، التي نشأت بعد الحرب العالمية الأولى». ويضيف د. «العزم» بأن هناك دولاً نشأت قبل أن تكون أمة، أي أن هويتها الوطنية تبلورت بعد قيام الدولة، ومنها الدول العربية القطرية، التي أنشأها الاستعمار، أي بعد أن اتبعت خطوات معينة بدأت بإنشاء مراكز سياسية وإدارية (عواصم)، ثم عمل نظام قانوني، وعَلَم، ونشيد وطني، وحدود دولية معترف بها.[1]

والآن، وبعد هذا العرض المكثف والسريع لبعض المفاهيم الإشكالية مثل الشعب، القومية، الوطن، الدولة... والتي قد تعتمد عليها الحركة الصهيونية في أدبياتها في تعريف الهوية القومية اليهودية، كيف يمكن فهم نشوء دولة إسرائيل؟ وفي أي سياق تاريخي جاءت فكرة القومية اليهودية؟ ولماذا إشكالية الهوية في إسرائيل على هذا النحو من التعقيد؟

تزعم الأدبيات الصهوينية أن الشعب الإسرائيلي من أقدم الشعوب، وأنه ترحل في الجلاء والمنافي قرابة ألفي عام، وأنه رغم المكوث الطويل في وسط «الأغيار» إلا أنه رفض التأقلم، وحافظ على هويته من الاندثار، وأن هذا الشعب في مسيرة شتاته الطويلة والمحملة بالعذاب وصل في ترحاله من المغرب حتى اليمن، ومن

1 د. أحمد جميل عزم وآخرون، نجمة كنعان، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان ط1، 2011، ص 16-15.

وسط آسيا حتى إسبانيا، وفي عموم أوروبا والأمريكتين.. لكنه استطاع الحفاظ على أواصر دم وثيقة بين الجماعات المتباعدة، دون أن تعطب خصوصية هذا الشعب!

وهنا تبرز أسئلة من نوع: أين كان هذا الشعب طوال القرون الماضية! ولماذا أخفق – أو أنه لم يحاول على الأصح – تجميع شتاته، وإعادة انبعاثه من جديد؟ لماذا فقط في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اعتبر أن الظروف الذاتية والموضوعية قد نضجت، وأن هناك فرصة مؤاتية ليستيقظ هذا الشعب من سباته التاريخي، ويجدد شبابه المفقود، ويحزم أمتعته للعودة لوطنه القديم؟!

ومن خلال استعراضنا لتاريخ المنطقة التي يزعم الشعب الإسرائيلي انتمائه إليها، تبين لنا أن تاريخها منفصل تماما عن التاريخ اليهودي، وليس بينهما صلات، سوى ما نشأ بعد السبي البابلي، الذي دشن لأول مرة تاريخ فعلي لما يمكن اعتباره الجماعة اليهودية. ولكن هذه الجماعة اليهودية لم تكن من أصل نبيل كما تدعي الرواية التوراتية، بل إنها خليط غير متجانس لأقوام وجماعات من منابت وأصول شتى، ما جمعهم خلال تلك الفترة القصيرة التي سيطروا فيها على جزء من فلسطين هو تصورهم «الخيالي» لماضٍ مشترك يعود إلى عصر الآباء (إبراهيم وذريته)، ثم استمرارية متوهمة (لم تحدث بأي شكل من الأشكال) لهذا العصر وتداخله مع عصر العبودية، ومن ثم تتويجهما بهذا الشكل الملحمي الأسطوري في قصة الخروج مع موسى.

وقد بيّنا بشيء من التفصيل ،كيف فكك المؤرخون تلك الادعاءات، وفندوا أجزاءها بشكل حاسم، وجعلوا القصة التوراية تتهاوى كبيت من قش عصفت به ريح عاتية.

وفي سياق استعراضنا لمراحل نشوء الحركة الصهيونية، تبين لنا أن الصهيونية لم تكن استجابة لتطلعات اليهود, ولم تكن حلا لمشاكلهم، بل كانت ثمرة اتفاق سياسي بين البرجوازية اليهودية وبعض رجال الدين، مع الدول الأوروبية التي كانت تتطلع لاستعمار الوطن العربي، وإقامة كيان سياسي موالٍ له في قلبه.

وبهذا المعنى، فإن نشوء دولة إسرائيل، لم يكن في سياق تطور طبيعي ذاتي لشعب مقيم أصلا على أرض هذه الدولة، ولم يكن مشابها للسياقات الطبيعية التي أفرزت دول المنطقة. بل كانت مشروعا سياسيا استعماريا تولت دول أوروبا – ثم لاحقا أمريكا – تنفيذه وترجمته على أرض الواقع، بكل ما تطلب ذلك من دعم ومساندة، بما في ذلك اختلاق بُعد تاريخي لهذا المشروع، أي بعد أن قاموا باقتطاف شظايا ذاكرة دينية مسيحية يهودية، استخرجوا منها بواسطة خيال خصب شجرة نسب متواصلة لِ «الشعب اليهودي».

وعندما كانت تكشتف معطيات تاريخية تشكك بهذه القصة، أو تهدد تماسكها (أي تماسك صورة الماضي المتواصلة والمتسلسلة لتاريخ اليهود)، كان يتم تجاهل هذه المعطيات، أو دفنها في مهاوي النسيان، وكانت دوما تتناول تاريخ المنطقة دون الأخذ بتاريخ الآخرين، بما في ذلك الشعب الفلسطيني، الذي لم يخرج من وطنه إلا بعد النكبة عام 1948.

وهذا يقودنا للسؤال: هل كان حقا هناك شعب يهودي تمكن من النجاة من خطر الانقراض طوال آلاف السنين رغم تشتته في أصقاع الأرض! في الوقت الذي تعرضت فيه قبائل وجماعات وشعوب لا حصر لها للزوال كليا، أو للاندماج مع شعوب أخرى. فإذا كان حقا هناك شعب يهودي، فما هو الشيء المميز لهذا الشعب، والذي جعله قادرا على الصمود، ومناقضا بذلك قوانين الطبيعة؟ أي هل لليهود صفات جينية مختلفة عن باقي البشر! وما الذي يجمع بين يهودي عاش في اليمن قبل ألف عام وبين يهودي عاش هو وأسلافه في موسكو؟ أو بين يهودي عاش في الحبشة ولونه أسود، ويهودي عاش في ألمانيا ولونه أشقر؟ وبين يهودي عاش في بغداد وتطبع بالثقافة العربية، ويهودي عاش في لندن وتشرب الثقافة الغربية؟ الإجابة على هذه الأسئلة نجدها في سياق البحث، وملخصها أنه لا رابط بين يهود العالم سوى الاعتقاد الديني، وبعض الطقوس الدينية.

القـومية اليهـودية

منذ نشأتها، أخذت الصهيونية على عاتقها مهمة شبه مستحيلة: صهر «شعب عرقي» واحد موحد من مزيج من الوحدات الإثنية؛ فاليهودية تضم مجموعات لغوية ثقافية متنوعة، وأناس من أجناس شتى تجمعهم جملة تعاليم وأفكار دينية تبلورت عبر مسيرة هذا الدين الطويلة، فمؤسسي هذه الديانة بداية عبارة عن خليط مركب من إثنيات عديدة، وهناك من تهـوّد من القبائل الرومانية واليونانية والفارسية في بدايات تأسيس هذا الدين، ومن القبائل العربية والإفريقية والقوقازية الخزرية في مراحل متأخرة، وهم جميعا ينتمون إلى أعراق وملل متباينة، ومن نفس هذه الأجناس والأعراق اعتنق أناس آخرون الديانة الإسلامية والمسيحية.

وحتى التاريخ اليهودي الذي أريد له أن يبدو في ظاهره متسقا ومتواصلا، كان متسقا فقط على مستوى المتخيَّل الديني، ولم يكن هذا التاريخ دينيا تماما، ولا علمانيا صرفا، ذلك لأن العقيدة اليهودية لم يكن لها زمن تاريخي تطوري؛ وهذا ما يفسر تبني التوراة ككتاب ذاكرة قومي بامتياز، وبسبب التعطش الشديد للأصل الموحد للشعب المختار، استعار المؤرخون الصهاينة دون أي مصفاة نقدية التاريخ التوراتي، ولهذا السبب أيضا تناسوا وأسكتوا التاريخ الفلسطيني، وتجاهلوا عمليات التهويد الجماعية التي بسببها تعاظمت اليهودية ديموغرافيا وثقافيا.

لذا، فإن علم الاجتماع والأنثربولوجيا يرفضان اعتبار الانتماء لديانة معينة واحده، أساسا صالحا لتكوّن قومية، أو تشكل هوية عرقية، أو إثنية.

واليهودية دخلها عناصر مختلفة من أجناس وسلالات بشرية متباينة، واليهود امتزجوا مع الشعوب الأخرى بنفس القدر الذي تعرضت له بقية الشعوب، سيما

وأن المنطقة التي يدعي اليهود انتماءهم لها خبرت الفاتحين من كل نوع، وكانت مسرحا للأحداث والحروب، وممرا للقوافل التجارية، ونقطة جذب تستقطب سكان المناطق المجاورة. وعليه تصبح مقولة نقاء الجنس اليهودي نوعا من العبث والوهم، وحتى التجمع اليهودي في إسرائيل اليوم فإنه يفتقر إلى السمة الاجتماعية بالمعنى السوسيولوجي، فهو شعب غير مترابط الأجزاء، وقد فشل رهانه على جعل الدين أساسا لانبعاث قومية خاصة بــه، أو دافعا لهجرة يهود العالم إلى فلسطين، واليوم نرى أن ثلاثة أرباع يهود العالم يرفضون القدوم لإسرائيل، ويفضلون الاندماج في بلدانهم كمواطنين عاديين.

وفكرة الأمة اليهودية تتناقض مع المفهوم العلمي للأمة، حيث إن الأمة هي شكل ثابت لتشكيلة من الناس تآلفت تدريجيا وعاشت سوية على بقعة مشتركة من الأرض مشكّلةً فوقها تاريخها الموحد والمتصل، وتتميز الأمة بهيمنة لغة واحدة، وثقافة واحدة، وشخصية مميزة ذات سمات معينة تتجلى في تراثها وقيمها، أو في تصورها المشترك للماضي، وتطلعها للمستقبل، ولا يلعب الدين معيارا حاسما في عملية تشكل الأمة، أو محددا قاطعا لشخصيتها الإثنية، خلافا لليهودية التي تريد أن تجعل من الدين معيارا وأساسا رئيسا لتشكل الأمة اليهودية.

المؤرخ الإسرائيلي «شلومو ساند» يقول[1]: «إن المجموعات السكانية، الشعوب الأصلية، القبائل، الجماعات الدينية... ليست أمما بالمعنى الفعلي، حتى لو كان مألوفا وصفها بهذه الصفة أو التسمية، وحتى لو مثلت مستودعات حيوية للركائز الثقافية التي استخدمت في تشييد الهويات القومية الجديدة». ويضيف «ساند»: «فطالما كان القاسم المشترك للمجموعة البشرية قبل الحداثية يقتصر فقط على الدين (طقوس، عبادات، رموز عقيدة)؛ فإن المصطلحات المستخدمة - التي يصح تسميتهم بها – هي جماعة دينية/ أو طائفة دينية، أو حضارة دينية».

وقد شهد التاريخ ظهور واختفاء الكثير من هذه الجماعات، منها ما دام لفترات طويلة نسبيا، ولكن حتى بداية عصر القوميات، فإن معظم تلك الجماعات الدينية

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 56.

التي لم تتوفر فيها خصائص معينة تمُكنها من التحول إلى أمة، أو شعب فإنها غالبا ما انقرضت وتلاشت شيئا فشيئا، حتى اختفت تماما عن مسرح التاريخ.

أي أن عنصر الدين بمفرده لا يوفر القاعدة اللازمة لتشكل أمة أو شعب؛ فالدين الإسلامي وكذلك المسيحي وكل الأديان الأخرى تنتمي إليها أعداد كبيرة من الشعوب والإثنيات والأمم التي لا يمكن توحيدها في إطار شعب واحد. ولا يوجد في الديانة اليهودية ما يجعلها تتجاوز هذا القانون، أو ما يسمح لها بتحول أتباعها الذين ينتمون إلى أصول ومنابت مختلفة إلى شعب واحد منسجم.

وعلى هذا الأساس أرى أنه الأنسب تسمية الشعب اليهودي بالجماعة الدينية أو الجماعة اليهودية، وبناء عليه فإن من أعيد تجميعهم في القرن العشرين من أكثر من مائة دولة لم يكونوا يوما ما شعبا يهوديا، بل كانوا جماعات يهودية متناثرة تعيش أوضاعا مختلفة ومتباينة، والقسم الأعظم من هذه الجماعات آثر أن يبقى في موطنه الحقيقي، أي في البلد الذي عاش فيه أسلافهم، وصاروا هم مواطنين عاديين في تلك الدول، ولا يمكن النظر لتاريخ تلك الجماعات كتاريخ واحد، بل هو مجموعة تواريخ الشعوب التي عاشت بينها.

طبيعة وسمات الكيان الإسرائيلي

نظرا لصعوبة تعريف طبيعة الدولة الإسرائيلية، وتعريف الهوية اليهودية، وعدم القدرة على رسم حدود تلك الهوية، والتداخل الكبير فيها ما بين الديني والعلماني؛ فإن البعض اعتبرها دولة علمانية اشتهرت بكونها دولة دينية، في حين يرى البعض العكس تماما، ويفسرون ذلك بكونها استسلمت للتقاليد الدينية.

فمثلا: رفض «بن غوريون» (العلماني) وضع دستور للدولة، ومنذ بدايات تأسيسها تعهدت دولة إسرائيل بعدم السماح بالزواج المدني، وأبقت شؤون الزواج والطلاق حكرا على المحاكم الدينية، والتزمت «بتشدد» بعطلة يوم السبت، وحاربت فكرة الزواج المختلط، ومنحت المدارس الدينية امتيازات غير عادية. حتى أن ما تسمي نفسها الصهيونية الاشتراكية التي مثّلها حزب العمل (اليساري العلماني) أخذت تجند مبادئ الحاخامية الدينية كذريعة مريحة لتطبيق سياساتها العامة، بما يمكن وصفه استغلال ماكر للدين في تحقيق أهداف الصهيونية.

وفي نفس المسار الذي سلكته إسرائيل في تقوية عناصر ومكونات الحكم الديني الثيوقراطي اليميني، كانت أيضا تُقوّي عناصر العصرنة والليبرالية، بحيث يتلاقح المساران في نطاق «قومية يهودية عنصرية» ويفسر «ساند» عدم الفصل بين الديني والقومي بسبب الضعف البنيوي للقومية اليهودية وهشاشتها، حيث استعار الخطاب القومي من الخطاب الديني كل مفرداته ورموزه. ويضيف: «لا وجود لقومية يهودية بدون الغلاف الديني الذي يلفها، فالصهيونية المركزية الإثنية كانت بحاجة دوما للعكاز الديني لتعريفها».[1] ويمكن إضافة نقطة أخرى

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 368.

مهمة، وهي أن دولة إسرائيل تحكم توجهاتها وسياساتها العقيدة الصهيونية، وهي عقيدة (قومية يمينية متطرفة) قائمة على الاستعلاء والعنصرية والتوسع والاستيطان.

ولو سلطنا الضوء على الجذور التاريخية والأيديولوجية للحركة الصهيونية ورجعنا إلى نصوص التوراة والتلمود، حيث تستمد الصهوينية أيديولوجيتها، لوجدنا ما يؤكد هذا التوصيف للحركة الصهيونية؛ ولوجدنا العنصرية بأعلى أشكالها، حيث تعتبر التوراة أن كل بني البشر الآخرين (الأغيار) ليسوا مؤهلين للإنسانية؛ فالإنسان بالنسبة لهم هو اليهودي فقط، والبشر الآخرون هم مخلوقات أوجدها الله لخدمة اليهود أبناء الرب، ولا يمكن لهم حتى أن يحلموا بالانضمام إليهم ما دام أنهم لم يولدوا من أم يهودية، بل إن التوراة أرادت أن تحتكر الله لها فقط، حيث صار الله مملوكا لليهود دون غيرهم، ومكرِّساً نفسه لرعايتهم، بل منهمكا بحضوره الشخصي بينهم، إذا اقتضى الأمر ذلك.[1]

ثم سنجد في التوراة نصوصا تمجد القتلة وتدّعي حماية الله لهم وتأييده لهم، مثل «يوشع»، الذي أمسك اللهُ الشمسَ وأخّر غروبها، ليتمكن (يوشع) من إبادة سكان أريحا، وأيضا من تسمّيه التوراة «لامك» الذي قَتَلَ رجلا، وبالرغم من ذلك حماه الله وتعهد له أنَّ من يحاول قتله سيقتل الله مقابله سبعون رجلا، أي سبعون حياة مقابل حياة يهودي واحد! والصهيونية الحديثة رفعت هذه النسبة إلى مائة مقابل واحد، كما نرى في ممارساتها تجاه الفلسطينيين.

ومهما حاولت إسرائيل تجميل صورتها، فإنها – بسبب دورها الوظيفي الذي أقيمت من أجله – لا ترى نفسها إلا مجتمعا عسكريا، فإذا كانت لدول العالم جيوش تحميها، فإن إسرائيل بحد ذاتها هي دولة لحماية جيشها، بمعنى أن الجيش هو المكون المركزي الأساسي والجوهري للدولة الإسرائيلية، والمجتمع الإسرائيلي أيضا هو مجتمع عسكري، ليس بسبب سياسة التجنيد الإجباري وحسب، بل ولأن هذا المجتمع اعتاد أن يضبط إيقاع حياته على إيقاع طبول الجيش، وأن يلتزم بكل حرفية وانضباط بما يمليه عليه الجيش. وهذا ما دعا

1 يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، مصدر سبق ذكره. ص 59.

بالعديد من المراقبين النظر لإسرائيل على أنها «إسبارطة الجديدة». أي المجتمع الذي يرى مبرر وجوده في الحرب فقط، والمجتمع الذي يقيم وحدته المجتمعية على أساس معاداة الغير والشعور بالتهديد، وبالتالي ضرورة أن يظل يقظا متحفزا متفوقا، حتى لو أدى ذلك لتنازله عن حياته الطبيعية.

ولهذا السبب فإن السلام الحقيقي والشامل والعادل، هو الحالة الوحيدة القادرة على نزع الطبيعة الصهيونية العنصرية عن دولة إسرائيل، القائمة على الحرب والعدوان، بحيث يرى المجتمع الإسرائيلي نفسه مجتمعا طبيعيا عاديا، تطغى فيه التناقضات الاجتماعية على فكرة الشعور بالتهديد الخارجي، ويمكن له في هذه الحالة أن يلتحم بالمحيط الخارجي. لكن الحركة الصهيونية تدرك خطورة هذا التحول، لأنه سيبرز التناقضات الداخلية في المجتمع الإسرائيلي، مما يعني تفجرها على نحو لا تطيقه دولة تركيبتها القومية هشة وقلقة، ومن ناحية ثانية فإن الالتحام بالمحيط العربي سيؤدي على المدى البعيد إلى ذوبان الهوية الإسرائيلية، وغرقها في «البحر العربي».

ومن جهتها، فإن إسرائيل تُعرِّف نفسها بأنها دولة اليهود، أو دولة يهودية، الأمر الذي يجعل منها دولة دينية، وبالتالي فإن الروابط التي ستجمع بين مواطنيها هي فقط الروابط الدينية اليهودية، ولكن ماذا بشأن المسلمين والمسيحيين واللادينيين والعلمانيين وغيرهم (من سكان إسرائيل)! وكيف سيعرفون أنفسهم في إطار هذه الدولة! فعلى سبيل المثال، تصر دولة إسرائيل أن تضع في هوية المواطن في خانة «القومية» عبارة يهودي، أو عربي أو درزي .. وترفض تماما وضع عبارة «إسرائيلي»، كما لو أن دولة إسرائيل ترفض الاعتراف بالقومية الإسرائيلية![1]

ووفقا للقانون الإسرائيلي يعتبر الشخص يهوديا فقط إذا كانت أمه يهودية، أو جدته لأمه، أو جدة أمه يهودية الديانة، أو إذا تحول شخص ما لليهودية بأسلوب ترضى عنه السلطات الإسرائيلية. وطبعا هذا الأسلوب يبقى رهنا للمؤسسة الدينية، التي ليس من السهل أبدا تجاوز شروطها ومعاييرها، فمثلا على الأنثى

1 إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، ط1، 1995، بيروت. ص 16.

إذا رغبت بالتحول لليهودية أن تكشف عن جسدها عاريا في «حمام التطهير» أمام ثلاثة من رجال الدين.[1]

والمشكلة أن إسرائيل تنظر لنفسها على أنها دولة عصرية ديمقراطية؛ علما بأن أبسط بديهيات الدولة في العصر الحديث – حتى لو لم تكن ديمقراطية – هي ضمان حقوق المواطنَة. وهذه الحقوق غير متاحة بشكل عادل أمام جميع مواطني دولة إسرائيل، وبالذات أمام العرب الفلسطينيين، سكان البلاد الأصليين. وهذا يجعل من شعارات الديمقراطية ودولة المواطَنة مجرد شعارات جوفاء لا تجد لها تطبيقات حقيقية على الأرض.

وقد جاء في وثيقة الإستقلال وإعلان قيام دولة إسرائيل 1948: «تدأب دولة إسرائيل على ترقية البلاد لصالح سكانها جميعا، وتكون مستندة إلى دعائم الحرية والعدل والسلام، مستهدية بنبوءات أنبياء إسرائيل، تقيم المساواة التامة في الحقوق اجتماعيا وسياسيا بين جميع رعاياها دون تمييز من ناحية الدين والعرق والجنس، وتؤمِّن حرية العبادة والضمير واللغة والتربية والتعليم والثقافة».

ويمكن القول إنه ليس هناك من عمل أسهل من تفنيد هذه المزاعم، بمجرد زيارة قصيرة إلى إسرائيل، أو حتى سماع أي نشرة أخبار، ستجد كل الممارسات التي تتناقض تماما مع هذه الادعاءات. مثلا مصادرة الأراضي، تعطيل حق المواطنين العرب في الإقامة والسكن، قانون العودة العنصري، قانون أملاك الغائبين، تجاهل القرى العربية وتهميشها، تهويد الجليل والنقب والقدس، وحتى قتل المواطنين واعتقالهم.

وإذا ظلت الممارسات العنصرية بحق العرب – ولمدة طويلة – على شكل مخالفات صارخة، أو ممارسات للجيش، أو للمستوطنين، وكانت الحكومة الإسرائيلية تتنصل منها ببراعة، فإنها اليوم باتت تأخذ الشكل التشريعي والقانوني العلني، وخاصة في الكنيست، الذي أصدر وما زال يصدر القرارات العنصرية واحدا تلو الآخر. وهذا فضلا عن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان، وحُكم تلك

1 إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، نفس الصدر السابق، ص 13.

المناطق بقبضة حديدية تمارس من خلالها كل أشكال التنكيل والقمع، ومصادرة حق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره.

ووفقا للقانون الإسرائيلي، فإن أنظمة الصندوق القومي اليهودي تنكر حق الإقامة أو التجارة أو حتى العمل على غير اليهود، كما يحظر على العرب (من مواطني إسرائيل) استئجار أي أرض لأي غرض كان حتى ولو لفترة قصيرة.[1]

ومع ذلك، من الصعب القول إن إسرائيل ليست دولة ديمقراطية بالمطلق؛ ذلك لأنه في مناطق الحكم الإسرائيلية داخل الخط الأخضر يوجد ما يمكن وصفه بنظام ديمقراطي معين، حيث تمنح الحقوق المدنية، وتُصان حريات التعبير، وحرية تشكيل الأحزاب والتجمع والتظاهر، بالإضافة للانتخابات الحرة وتداول السلطة، ونظام قضائي قادر على سجن رئيس الدولة.. لكن غياب المساواة المدنية والسياسية بين المواطنين يضع الكثير من علامات الاستفهام حول نوعية هذه الديمقراطية.

فلا معنى للديمقراطية إذا لم تحقق المساواة، والمساواة التي نتحدث عنها لا تشمل فقط مساواة اليهود مع العرب، بل حتى المساواة بين اليهود أنفسهم؛ فالكثير من المراقبين ينتقدون غياب المساواة بين الشكناز والسفارديم، ومعاملة المهاجرين (الروس والفلاشا وغيرهم) كمواطنين درجة ثانية. أما الغياب الفاضح للمساواة فهو ضد السكان العرب الفلسطينيين، الذين يشكلون خُمس تعداد السكان، وهؤلاء وُلدوا داخل (إسرائيل)، وهم من ناحية رسمية يحصلون على مواطَنة كاملة، ولكن من ناحية عملية لا يحظون بأي اهتمام، وحقوقهم منتقصة، ويمارَس بحقهم تفرقة عنصرية، بل إن الدولة الإسرائيلية تعلن جهارا نهارا وبكل وضوح أنها ليست لهم، وإنما تعود لشعب آخر ما زالت غالبيته تعيش وراء البحار.

وعندما نادى العديد من المثقفين الفلسطينيين بضرورة نزع الطبيعة الصهيونية عن الدولة، وبأن تكون إسرائيل دولة لكل مواطنيها، دولة متعددة الثقافات تبلور هوية عليا مشتركة لا تمحو الهويات الأصلية للسكان (والمهاجرين) وتتجه نحو

1 إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، مصدر سبق ذكره. ص 13.

مستقبل يسوده التعايش بين الجميع دون عنصرية أو شوفينية، كان الرد على لسان تيارات يهودية مختلفة ومنها الدولة نفسها: بأن إسرائيل يجب أن تبقى دولة الشعب اليهودي المشتت، ولا يجوز أن تتحول إلى دولة لجميع مواطنيها.

وبهذا المعنى، فإنه عند توصيف طبيعة الدولة الإسرائيلية ونوعية ديمقراطيتها، من الصعب وضعها في أي خانة معروفة، أو تصنيفها ضمن أنواع الديمقراطيات المجربة في البلدان المختلفة؛ فمثلا هناك الديمقراطية الليبرالية، التي تمثل مجمل مجتمعها في ظل مساواة تامة وحقيقية بين كافة المواطنين دون النظر إلى أصولهم أو ارتباطاتهم الثقافية (بريطانيا مثالا)، وهناك الديمقراطية الجمهورية التي تشبه الليبرالية ولكنها تتدخل أكثر في البلورة الثقافية للمجموعات القومية، مع إبداء درجة عالية من التسامح والتساهل تجاه الهويات الثقافية الفرعية (فرنسا مثالا). وهناك الديمقراطية الاتحادية التي تعترف رسميا بالمجموعات الثقافية واللغوية، وتحرص على اتباع تمثيل نسبي متساوٍ وعادل فيما بينها، وقد ترعى حكما ذاتيا كاملا لكل مجموعة على حدة (سويسرا، كندا بلجيكا أمثلة عليها).

إسرائيل لا ينطبق عليها أي من الأمثلة السابقة، لذلك وصفها «ساند» وعرفها كإثنوقراطية يهودية ذات ملامح ليبرالية، فيقول: «إسرائيل ليست دولة مهمتها الرئيسة خدمة شعب مدني متساوٍ (في الحقوق والواجبات)، إنما خدمة شعب عرقي إثني بيولوجي ديني، وهمي تماما في الحقيقة ومن ناحية تاريخية، لكنه حيوي ويمارس الإقصاء والتمييز في حياته السياسية، فهذه الدولة رغم التوجهات الليبرالية والتعددية الظاهرة فيها، ترى أن من واجبها الاستمرار في عزل شعبها «العرقي» المختار، ليس فقط عن مواطنيها غير اليهود، ولا عن عمالها الأجانب الذين ولدوا فيها وحسب، وإنما أيضا عن سائر أمم وشعوب العالم».[1]

ومشكلة تحديد طبيعة الدولة الإسرائيلية تفاقمت أكثر بعد أن احتل الجيش الإسرائيلي الضفة الغربية وقطاع غزة في حزيران 1967، حيث وجدت إسرائيل نفسها مرغمة على مواجهة واقع جديد، ومرغمة على حل مأزقها التاريخي

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره, ص 389.

الناجم عنه، فإسرائيل أولاً وكما هو معروف لها أطماع توسعية، وهي ثانيا تدعي أنها دولة اليهود التي أقامها الرب على أرض الميعاد لشعب الله المختار، وأنها واحة الديموقراطية في صحراء التخلف العربي. إذن، ماذا ستفعل بالأراضي التي احتلتها؟ وكيف ستتعامل مع الملايين من البشر الذين يقطنون فوقها؟ فهؤلاء «السكان» سيشكلون لها معضلة كبرى.

كانت إسرائيل أمام خيارين إزاء الأرض وإزاء من أسمتهم سكان المناطق: إما ضم هذه الأرض بسكانها ودمجهم بالدولة واحتوائهم وسلخهم عن محيطهم العربي، وإما ضم الأرض، ولكن بعد تفريغها من السكان بشتى الوسائل. فإذا ضمتهم للدولة سيشكلون أغلبية، وبذلك تفقد إسرائيل طابعها الديني / القومي الصهيوني، ولا تعود دولة اليهود أحادية القومية التي وعدت بها الحركة الصهيونية يهود العالم، وبالتالي تنهار الدعاوى الدينية والمزاعم التاريخية التي استندت إليها الحركة الصهيونية في إقامة هذا الكيان. وإذا قمعتهم وصادرت حقوقهم المدنية لن تعود واحة الديموقراطية كما تطرح نفسها أمام العالم، وإذا شرعت بعمليات القتل والإبادة الجماعية والترحيل ستكون نموذجا أسوأ من نظام الأبارتهايد في جنوب إفريقيا، وهذا الأمر لا يحتمله حلفاؤها. وكلما تقدم الوقت تفاقمت المشكلة أكثر، خاصة مع تفاقم ما تسميه «خطر القنبلة الديموغرافية».

الأساطير المؤسسة للأيديولوجية الصهيونية

استندت الصهيونية في مزاعمها بحقها التاريخي في فلسطين، ولتبرير وجودها واحتلالها أرض فلسطين وطرد شعبها منها إلى الرواية التوراتية، مع فهم وتفسير أيديولوجي لها يقوم على الأساطير التالية:

- **أسطورة الأصل التاريخي**، من أجل إدعاء أصل تاريخي لليهود، بدأت التوراة قصتها بالعودة إلى ما أسمته «عصر الآباء»، مع أن علم الآثار أسقط وإلى غير رجعة هذه الرواية، وأثبت أن جميع الأنبياء والشخصيات الاعتبارية التاريخية الذين ورد ذكرهم في أسفار التوراة تحت مسمى عصر الآباء عاشوا وماتوا في العصر البرونزي الوسيط، أي قبل ظهور اليهودية بقرون. والزج بأسمائهم يأتي في سياق المحاولات الدؤوبة التي عمد إليها محررو التوراة، في محاولة منهم اختلاق أصول نبيلة لليهود، وابتكار تاريخ خاص بهم، ومن ثم إدماج تلك الشخصيات في هذا التاريخ لإعطاء مبررات إضافية لكيانهم، وإكسابه المصداقية والاحترام، وإضفاء صبغة من القداسة على تاريخهم وادعاء أسطورة الأرض الموعودة على لسانهم.
- **أسطورة عصر العبودية**، بعد أن ابتكرت أصولا تاريخية لِ»بني إسرائيل»، ادعت التوراة أن هؤلاء القوم عاشوا في مصر أربعة قرون متتالية، حافظوا خلالها على هويتهم المميزة، حتى جاء المخلّص «موسى» وفر بهم من مصر إلى سيناء، حسب قصة الخروج والتيه... إلى جانب النقد النصي للقصة؛ فإن الشواهد التاريخية والبيانات الأركيولوجية تنفي هذه الرواية في معظم أجزائها، ولا يوجد خارج النص التوراتي أي شاهد تاريخي يمكن أن يدعم هذه الرواية، أو يثبتها. فجميع المصادر المصرية لا تذكر شيئا عن وجود إسرائيليين في مصر طوال الفترة ما بين دخول أبناء يعقوب وميلاد النبي

موسى. ومن ناحية ثانية، فإن عائلة يعقوب التي أتت من فلسطين اندمجت في المجتمع المصري، وتكلمت لغتهم، وذابت في نسيجهم الاجتماعي، والتوراة تتجاهل تماما الحديث عن هذه الفترة، ولم تورد ما يفيد عن الأوضاع في مصر والأحداث التي جرت آنذاك، بحيث يمكن مقاطعتها مع ما نعرفه تاريخيا عن تلك الحقبة التاريخية.

أما قصة الخروج بالصيغة المذكورة فهي استحالة مطلقة؛ فالزمن المفترض لقصة الخروج هو نفس الزمن الذي شهد أوج قوة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، حيث كانت جميع بلاد الشام تحت القبضة الحديدية للفراعنة، والعدد الخيالي الذي ذكرته التوراة لبني إسرائيل في الخروج لا يمكن له أن يعبر البحر بين ليلة وضحاها دون أن يتمكن جنود الفرعون من اللحاق بهم، وحتى لو استطاعوا العبور والتخفي فلن يستطيعوا النجاة من قسوة صحراء سيناء، وحتى لو نجوا فإن وصولهم إلى فلسطين سيجعلهم تحت قبضة القوات المصرية الموجودة أصلا هناك، فهم تحت رحمتها وفي بيتها، ولن يسلموا من بطشها - إلا إذا كانوا أتباعا لها - والرأي الأرجح المبني على حقائق مادية هو أن هؤلاء الموسويين هم فصيل من الجيش المصري لهم دور خاص يتمثل بالاستيطان على الحدود الشرقية، لقمع حركات التمرد دائمة الوقوع في بلاد الشام ولإخضاع العصاة، خاصة في فلسطين. ولو أن قصة الخروج حدثت فعلا، لوجدنا لها ذكرا في السجلات المصرية القديمة، إذْ لا يمكن للمصريين أن يغفلوا عن توثيق حدث بهذه الضخامة؛ وهم الذين كتبوا على مسلاتهم جميع انتصاراتهم وحروبهم الكبيرة والصغيرة!

الهدف من القصة اختلاق نقطة مفصلية في التاريخ اليهودي بمسحة درامية، مع محاولة إضفاء شيء من القداسة عليها، وتصوير حادثة الخروج كلحظة انبعاث لشعب إسرائيل، وكسره لقيود العبودية..

- **أسطورة اقتحام كنعان**، تدعي التوراة أن الإسرائيليون واصلوا مسيرهم من سيناء إلى فلسطين، واقتحموها بناءً على أوامر الرب، وأبادوا شعبها، وهناك عاشوا فترة سميت عهد القضاة.. وطالما أن قصة الخروج والتيه أصلا قصة

خيالية، بالتالي فإن ما بني عليها لن يكون سوى مزيدا من الخيال، كما أن الشواهد الأركيولوجية من الفترة الانتقالية بين عصري البرونز والحديد تنفي رواية سفر القضاة وسفر يوشع واقتحام كنعان، ذلك لأن نتائج التنقيب الأثري في مواقع المدن التي يدعي النص التوراتي تدميرها كأريحا وعاي، تظهر عدم تطابق تاريخ تدمير تلك المدن مع التاريخ المزعوم في أسفار التوراة.

ونتائج المسح الأركيولوجي الشامل لمنطقة فلسطين، وتحديدا الهضاب المركزية التي قامت عليها فيما بعد مملكة إسرائيل وكذلك منطقة يهوذا، تنفي بشكل نهائي أي إمكانية لظهور مجموعة إثنية واحدة في تلك الفترة المفترضة لعصر القضاة حتى نهاية القرن العاشر قبل الميلاد، أو وفود مجموعة إثنية من الخارج أثرت في ثقافة المنطقة وتراثها، وجميع المواقع في فلسطين تظهر استمرارية ثقافية محلية غير منقطعة ولا تشوبها شائبة فيما بين عصري البرونز والحديد، ولا يوجد أي أثر على حلول أقوام جديدة جلبت معها تقاليد ثقافية مغايرة، فجميع القرى في ذلك العصر إنما هي كنعانية، وأنه حتى ذلك التاريخ لم تتوفر القاعدة السكانية اللازمة والأساس الاقتصادي لقيام مملكة قوية، فإضافة للفقر المدقع في منطقة السامرة فإن منطقة يهوذا كانت خالية من السكان تقريبا آنذاك، أما القدس فقد كانت مجرد بلدة متواضعة لا تصلح لأن تكون عاصمة مملكة قوية.

- **أسطورة المملكة الموحدة**، تدعي التوراة أنه بعد عصر القضاة قامت مملكة داود وسليمان في القدس، وتحديدا في القرن العاشر ق.م، وأن هذه المملكة مثلت العصر الذهبي للتاريخ اليهودي في فلسطين.. بينما نتائج المسح الأركيولوجي للمناطق الهضبية التي كانت نواة المملكة تنفي وجود قاعدة سكانية / اقتصادية في هذه المناطق خلال القرن العاشر ق.م تسمح بقيام مثل هذه المملكة، فمملكة داود وسليمان ليست مستبعدة تاريخيا فقط؛ إنما مستحيلة الوجود، ناهيك عن نتائج التنقيب الأثرى في القدس نفسها التي أكدت أن المدينة كانت حينها مجرد بلدة متواضعة، يضاف إلى هذا عدم العثور على أي حجر أو أثر يدل على قيام هذه المملكة في يوم من الأيام.

- **أسطورة العلاقة بمملكتي يهودا والسامرة،** تزعم الرواية التوراتية أنه بعد موت سليمان انقسمت المملكة الموحدة إلى دويلتين (يهودا والسامرة).. والحقيقة التاريخية أن دولة السامرة (إسرائيل) قامت لأول مرة في التاريخ عام 880 ق.م، أما دولة يهوذا فقد قامت 735 ق.م، أي بعد الزمن المفترض لقيام المملكة الموحدة بنحو قرنين، حين نضجت الظروف الذاتية اللازمة لقيامهما، كعودة المناخ المطري والنزوح الداخلي للقبائل باتجاه مناطق السامرة ويهوذا، واكتملت القاعدة الاقتصادية لهما، والظروف الموضوعية التي أنضجتها السياسة العليا للإمبراطورية الآشورية.

وهاتان الدويلتان (إسرائيل ويهوذا) إنما كانتا دويلتان فلسطينيتان محليتان، نشأتا في البيئة الكنعانية، وكانت لهجتهما هي الكنعانية، وتكتبان بالحروف الآرامية، وجميع آثارهما وفنونهما ومخلفاتهما إنما تعكس نمطا كنعانيا، وآلهتهما كنعانية، بما في ذلك يهوه، وطوال عمر هاتين الدولتين لم يكن أي أثر لأي معتقد توراتي أو ما يمكن تسميته ديانة يهودية، وهاتان الدويلتان لا يربط بينهما إلا أوهى الروابط، وقد عاصرتا بعضهما البعض لفترة قصيرة جدا من الزمن، إذ قامت يهوذا على أنقاض إسرائيل، ولم يسبق وجودهما أي مملكة موحدة، كما أنهما لا علاقة لهما بإسرائيل التوراتية، وكما نشأتا تباعا فقد دمرتا تباعا أيضاً، واختلفت مصائرهما التاريخية أيما اختلاف.

- **حيلة دمج التواريخ وخلطها ببعض،** حيث دمج محررو التوراة بين إبراهيم الذي ظهر للوجود في عصر البرونز الوسيط، وبين موسى الذي ظهر قبيل عصر الحديد الأول، أي بعده بنحو خمسة قرون، وبين مملكة إسرائيل التي أقيمت في العصر الحديدي الثاني، أي بعد موسى بنحو أربعة قرون، فضلا عن هذا الخلط التاريخي هنالك تجاهل تام لكافة التغيرات والتحولات العميقة والجذرية التي ألمت بالمنطقة وبنيتها السكانية وتركيبتها الإثنية، وللتغطية على هذا الخلل عمدوا إلى الخلط بين المصطلحات والمسميات التي لكل واحد منها معنى ومدلول مختلف ومستقل ويعبر عن مرحلة تاريخية معينة، أو عن قوم معينين، وهكذا صارت تلك المصطلحات تعطي نفس

الدلالة وتستخدم للتعريف على نفس الجماعة، وهذه المصطلحات هي (العبرانيون، بنو إسرائيل، الموسويون، اليهود). وحصيلة هذه العملية المعقدة من الجمع والتوليف والخلط تراث مركب مصطنع غير متناسق، لم يفلح في ردم الفجوات الزمنية الهائلة التي تفصل فيما بينها، ولم يقنعنا بالعلاقة التي تربط هؤلاء باليهود.

- **أسطورة أصول نشأة الديانة اليهودية**، تدعي الرواية التوراتية أن الديانة اليهودية بدأت في وقت مبكر زمن الآباء، ثم تبلورت على يد مؤسسها النبي موسى.. والحقيقة التاريخية أن اليهودية التوراتية نشأت في العهد الفارسي في بابل، واستُكملت في القدس على يد كهنة أورشليم، والتوراة البابلية كتبها البشر ولم تكن أبدا كتابا سماويا، وهذه الديانة لا تمت بأي صلة بديانة التوحيد التي جاء بها النبي موسى قبل هذا التاريخ بنحو ثمانية قرون من الزمان، والتي كانت امتدادا طبيعيا لدعوة الفرعون «أخناتون» للتوحيد، وقد نشأت في بيئة مصرية خالصة على يد نبي مصري، وكتبت تعاليمها بالحروف المصرية الهيروغليفية، ولم تكن حكرا لطائفة معينة دون أخرى، والألواح التي نزلت عليه لم تُحفظ، واختفت تماما ولا يوجد لها الآن أي أثر.. والذين اتبعوا موسى من العبيد والأحباش وبقايا الهكسوس وكل المستضعفين من شتى الأصول والمنابت، لم يشكلوا أمة أو شعبا أو ثقافة خاصة بهم، ولم ينسلخوا عن مجتمعهم الأم في مصر، وليس لهم أي علاقة تاريخية أو إثنية أو ثقافية بما يدعونه من ديانة يهودية نشأت بعدهم بقرون عديدة، في بيئة مختلفة تماما، ومكان لم يروه أبدا.

أما المجتمع اليهودي الذي نشأ في القدس؛ فكان مكونا من العائدين من بابل، إلى جانب شعوب أخرى فقدت ارتباطها بأوطانها الأصلية بعد مرور وقت طويل على اقتلاعها منها، وقبائل أخرى كانت تبحث عن حظوظ جديدة في المناطق التي تخطط الإمبراطورية الفارسية لإعادة تعميرها، فضلا عن القبائل التي كانت ما زالت تسكن فلسطين وتعاني من أوضاع اقتصادية ومعاشية مزرية ولا تمانع في العيش في ظروف أفضل، ومهما كان الشعب الذي نُقل

أو أُعيد إلى فلسطين قسرا أو طوعا، فهم بكل تأكيد لم يكونوا إسرائيليين (بالمعنى التوراتي) لا إثنيا ولا روحياً، ورغم ذلك أصبح الفُرس يعتبرونهم إسرائيليين، وأصبحوا هم يعتبرون أنفسهم سكان إسرائيل المفقودة منذ زمن والعائدين إلى أرض إسرائيل من منفى مرير، بعد أن خلصهم سيدهم ومنقذهم «كورش»، وهكذا بمساعدة الفرس تم تحديد الهدف: إعادة ديانة يهوه القديمة. وهذا الخليط البشري غير المتجانس إثنيا ولا حتى ثقافيا وجد نفسه أمام خيارين: إما القبول بشريعة الملك الفارسي والتكيف مع القوانين الجديدة، أو مواجهة أقصى العقوبات – كما ورد في رسالة «داريوس» إلى أهل أورشليم – ولا شك بأن المجتمع الأورشليمي الجديد قد أخذ بالخيار الأول.

- **أسطورة المنفى والشتات اليهودي،** تقوم فكرة ما يسمى بِ «الشتات اليهودي»، على أسطورة طرد الرومان لليهود سنة 70 م، بعد تدمير الهيكل.. فمن ناحية، فإن طرد «الشعب اليهودي» من وطنه لم يحدث أبداً، ومن ناحية ثانية فإن رواية الطرد والتشريد كانت ضرورية من أجل بناء ذاكرة للمدى البعيد، وُضع فيها شعب عرقي «متخيَّل» ومنفي، باعتباره استمرارا مباشرا للشعب التوراتي القديم... في حين أن اليهود لم يُطردوا أساسا من فلسطين، بل خرجوا منها طوعا، ولم يعودوا إليها بإرادتهم الحرة.[1] ودلالة على وهن العلاقة العضوية بين اليهود وأرض فلسطين فإن موضوع الهجرة إلى فلسطين بقي ولقرون عديدة خارج نطاق التفكير الجماعي لليهود ومقتصرا على المستوى الفردي فقط، على الرغم من أنها ظلت مفتوحة للحجيج ومتاحة للراغبين من اليهود للإقامة فيها طوال عهـد الدولة الإسلامية؛ إلا أن عدد اليهود المقيمين فيها عام 1880 بلغ 25 ألف فقط مقابل ملايين اليهود في العالم.
- **أسطورة وحدة الأصل،** الأغلبية الكبرى من يهود العالم في الوقت الحاضر، هم من أصل أوروبي شرقي (أي من العرق الآري)، وتحديداً من أصل خزري، وهذا يعني أن أجدادهم لم يعبروا نهر الأردن، بل عاشوا على ضفاف نهر

1 شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، مصدر سبق ذكره، ص 15.

الفولغا، ولم تطأ أقدامهم أرض كنعان، بل أرض القوقاز، وهم من حيث التركيب الوراثي يعودون إلى قبائل الهون والآوجور، وبالتالي لا صلة لهم بذرية إبراهيم وإسحق، وبالتالي فإن تعبير معاداة السامية سيكون خاليا من معناه.. وقضية أن أصول أغلبية اليهود تعود لقبائل الخزر تعني أن المزاعم الدينية والتاريخية لليهود في فلسطين هي أكبر خدعة في التاريخ.

- **أسطورة التاريخ المتصل**، بنت التوراة تاريخا متخيلا لليهود، بأسلوب السرد الملحمي الممتزج بالأسطورة، ووضعت اليهود في صدارة المشهد التاريخي، وفي متنه، كما لو أن تاريخ المنطقة هو تاريخ اليهود واليهودية، جاعلة ما حوله من أحداث ووقائع على الهامش، بحيث تم تصوير التاريخ اليهودي على أنه تاريخ متصل، لشعب مميز، تاريخ مليء بالمأساة والمعاناة والصبر والمثابرة على العودة والتعلق بالأرض.. وبتحليل معمق لهذه الرواية سنجد أنها قراءة أيديولوجية ذات أهداف سياسية، جعلت من التاريخ اليهودي أمرا لا علاقة له بالتاريخ الإنساني الدنيوي، بل فوق التاريخ، ولا تنطبق عليه القوانين الطبيعية التي حكمت مسار تواريخ الشعوب الأخرى. والحديث عن «التاريخ اليهودي المتصل» يفترض أن العنصر الأساسي الذي يحرك اليهودي ويشكّل شخصيته هو أساسا إيمانه بالدين اليهودي، وانتمائه للتراث اليهودي.. وهذا منافٍ للحقيقة، وفيه تقليل من إنسانية اليهودي؛ فاليهودي مثل أي إنسان آخر، ظاهرة مركبة تحركه عناصر متشابكة، وليس مجرد عنصر واحد».[1]

كما إن أعضاء الجماعات اليهودية ليس لهم ماض موحد؛ وقد انقطع وتشتت منذ أن خرجوا من فلسطين، فماضيهم في الأندلس، يختلف عن ماضي جماعة الفلاشاه، وماضي هذين الفريقين يختلف عن ماضي اليهود في روسيا أو فرنسا. واليوم، ليس لأعضاء الجماعات اليهودية حاضرا واحدا؛ فلكل جماعة يهودية مشكلاتها ونصيبها المختلف من الأفراح والأتراح. وتدل المؤشرات كافة على أن هذه الجماعات لن يكون لها مستقبل واحد.

- **أسطورة أرض إسرائيل وطن اليهود**، تزعم الصهيونية أن فلسطين كانت

1 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، ط1، 1999، الجزء الرابع، ص 19.

تسمى منذ القدم أرض إسرائيل، وهي موطن اليهود الذي تحن إليه قلوبهم.. وحول نشوء مصطلح «أرض إسرائيل»، يقول «ساند»: «في البداية كان اسم البلاد في التناخ[1] «كنعان»، وفي فترة «الهيكل الثاني» كان المصطلح الشامل هو «أرض يهودا»، ثم يظهر مصطلح «أرض إسرائيل» في المشناه، لكنه ليس مطابقا لبلاد الوعد الإلهي الذي مُنح لإبراهيم». و«أرض إسرائيل» كاسم ورقعة تظهر في التلمود بصيغ متعددة، وقد ظهر المصطلح بعد أن غيّرَ الرومان اسم يهودا إلى سورية - بلسطينا، وعندها بدأوا في التشديد على مصطلح «أرض إسرائيل». لكن، وفقا للتلمود فإن هذه منطقة تمتد جغرافياً من جنوب عكا إلى شمال عسقلان، ويظهر المصطلح كفريضة، أي أن «أرض إسرائيل» التلمودية ليست مصطلحا جيوسياسيا، وإنما هو مصطلح ثيوقراطي، يتطرّق إلى أرض مقدسة تسري على سكانها فرائض خاصة مرتبطة بالبلاد. وقلائل فقط مستعدون لأن يقرّوا بأن «أرض إسرائيل» في أسفار التناخ لم تشمل القدس والخليل وبيت لحم، وأن التناخ استخدم الاسم الفرعوني للمنطقة وهو «أرض كنعان؛ فجميع أسفار التناخ لم تعتبر فلسطين وطنا لبني إسرائيل، ولم تسمَّ باسمهم «أرض إسرائيل»، لأن المكان المقدس لا يتحول إلى وطن، حيث حيز السماء هو وطن جميع المؤمنين، والدين اليهودي والمتهودون لم يروا ضرورة في الهجرة إلى أرض التناخ، ولم تكن «أرض إسرائيل» في أي لحظة مركزية بالنسبة للشتات اليهودي؛ فقد رفضت اليهودية أن تكون مرتبطة بأي قطعة أرض، وكانت بهذا معادية للصهيونية التي عملت على صهينة اليهودية. ولم يتعطش اليهود للهجرة إلى فلسطين، ولا إلى حتى الحج إليها، وارتبطوا في البلدان التي ولدوا فيها، وكان السَّفر إلى «أرض إسرائيل» ممارسة هامشية للغاية في حياة الطوائف اليهودية، وأكبر دليل على ذلك استنكاف اليهود عن الذهاب إلى فلسطين رغم أنه لم تكن هناك صعوبات في ذهابهم وإقامتهم هناك». [2]

أما إسرائيل ككيان سياسي، فلا يوجد في جميع وثائق الشرق القديم أي ذِكر

1 التناخ هو العهد القديم من الكتاب المقدس، حسب تعبير الأوساط العلمية والنخب المثقفة اليهودية.
2 شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية – مدار، ط1، رام الله، 2013. ص 134.

لكيان سياسي اسمه إسرائيل قبل أواسط القرن التاسع ق.م، وبدأ هذا الاسم للظهور لأول مرة في السجلات العسكرية الآشورية للدلالة حصرا على دولة السامرة، وكذلك مملكة يهوذا لم يرد اسمها إلا في نهاية القرن الثامن ق.م، أي بعد أفول نجم إسرائيل، كما لا يوجد أي ذكر لهما بعد تدميرهما تباعا على يد الآشوريين والبابليين، إذ لم تقم لهما قائمة بعدها وتم ضمهما إلى أرشيف التاريخ.

- **أسطورة أن اليهود شعب..** تدعي الصهيونية أن اليهود شعب مستقل، له أصول نبيلة، وتاريخ متصل، ويتمتع بخصائص ومزايا منفردة.. وأن اليهودية ليست مجرد رابط ديني، بل هي هوية قومية وإثنية جامعة.. ما يهم هنا هو أن العديد من الباحثين عرّفوا تجمعات اليهود من خلال التحليلات التاريخية كطوائف دينية فقط، وليس كشعب واحد. باعتبار أن اليهود لم يكونوا أثنوساً مميزاً، ولا شعباً ميزاً لا يشبه الشعوب الأخرى.[1]

وحول هذا الموضوع كتب «شلومو ساند» بالاستناد إلى «رينان» و«كاوتسكي»: "لا يوجد مبرر للحديث عن وحدة إثنية لدى اليهود المعاصرين، أو عن وجود عرق يهودي تماماً، أو قومية يهودية، مثلما لا يمكن الحديث عن وحدة إثنية لدى المسيحيين أو المسلمين. نظرية العرق ميتة اجتماعية وليست حقيقة علمية، وقد قامت التربية الصهيونية بحشو أدمغة الأجيال المتعاقبة من التلاميذ الإسرائيليين بميتة تاريخ عضوي للشعب اليهودي، ابتداءً من التناخ، وحولت ذلك إلى معتقد غير قابل للنقاش، ولا يوجد دليل قاطع على أن اليهود هم شعب أو أمة، عدا عن وجودهم القديم في بقعة جغرافية، لا يوجد ما يسند استمرارية العرق اليهودي وخلوده، أو ماضٍ جماعي قومي، أو إثنوس. ولم يكن اليهود شعباً عرقياً ولا سلالة بيولوجية بكل المقاييس، اليهود طائفة دينية. على الضد من ذلك، قام باحثون ومفكرون مرتبطون بالمشروع الصهيوني بعملية تحويل جماعات دينية ظهرت وتأسست في مناطق مختلفة من العالم».[2]

1 شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية – مدار، ط1، رام الله، 2013. ص 180.
2 شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية – مدار، ط1، رام الله، 2013. ص 46.

- **أسطورة «نقاء الشعــب اليهودي عــرقيا»**، تزعم الصهيونية أن اليهود يمثلون قومية تنتمي لأصل عرقي واحد، حافظت على نقائه طوال القرون الماضية، حتى أن بعض الأكاديميين تحدثوا عن تشابه جينات اليهود، وعن تجانس بيولوجي بينهم كوجود بصمات أصابع يد خاصة باليهود، وأمراض خاصة بجميع اليهود، وحامض نووي خاص باليهود، ووصل بهم الأمر إلى إنشاء فرع «علم وراثة اليهود».. وهذا الادعاء ما هو إلا خدعة ابتكرتها الدعاية الصهيونية، ولا يمكن لها أن تصمد في وجه حقائق التاريخ، أو أبجديات المنطق وعلوم الاجتماع، أو حتى العلوم البيولوجية، فكيف لطائفة متعددة الأصول والمنابت أن تصبح فجأة ذات أصل نبيل؟ وكيف لها أن تحافظ على هذا النقاء في منطقة خبرت الفاتحين والغزاة حيث كانوا يتعاقبونها تباعا؟ وبالتالي ستتداخل البنى الاجتماعية وستذوب حدود الأعراق البيولوجية على مذبح حركة التاريخ التي تبقى دوما في دينامية لا تعرف التوقف.. والحقيقة أنه لا يوجد أي قاسم مشترك إثنوغرافي بين اليهود في أنحاء آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا، فقط يوجد ثقافة دينية. الأبحاث العلمية فندت كل تلك المعتقدات التي كانت لها وظيفة واحدة، هي الزعم بأن فلسطين التاريخية حق تاريخي موروث للشعب اليهودي، ولا شرعية لوجود الشعب الفلسطيني على أرضه، وليس له حق في وطنه فلسطين». [1]

- **أسطورة «شعــب الله المختار»**، تزعم التوراة أن الله اصطفى اليهود دون سائر البشر ليكونوا شعبه المختار، وجعل من بقية الناس مجرد أغيار، وظيفتهم خدمة اليهود.. وقد أوضحنا السياقات التاريخية التي دفعت محرري التوراة لإطلاق هذا الشعار وتثبيته على لسان أنبياء عصر الآباء، وهو شعار استعلائي عنصري، ينم عن عقلية متعصبة أنتجتها فئة منغلقة على ذاتها وضعت نفسها فوق باقي الأمم، والله سبحانه أسمى من أن ينحاز إلى عرق، أو أن يفضل ملة على أخرى، وقد قال في القرآن الكريم: «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

---

1 مهند عبد الحميد، اختراع شعب وتفكيك آخر، المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والداسات الإستراتيجية – مسارات، ط1، رام الله 2015، ص 45.

- **أسطورة أرض الميعاد،** وبحسب التوراة؛ فإن بني إسرائيل حصلوا على وعد إلهي بالأرض الموعودة، وقاموا بموجب أمر إلهي باحتلال أرض كنعان، وبممارسة تطهير عرقي شامل، ولم يستبقوا من الكنعانيين إلا مجموعات صغيرة من الحطابين والسقائين. ولا شك أن مثل هكذا وعد إلهي وتجسيده ينطوي على ظلم، بل على وحشية.. ما يؤكد أن هذا النص من من خيالات من كتبوه؛ إذ لا يمكن نسبُ مثل هذه الأفعال إلى أوامر الله ووعوده.. ومع ذلك، فإن ميثة الاستيطان الدموية، والتي فاخرت بها التوراة على إنها أولى عمليات الإبادة الجماعية في التاريخ لا أساس لها من الصحة، وقد هُزمت هذه الميثة بواسطة معارك علم الآثار الحديث، ورُفضت من قبل كل العقول البشرية التي تحترم الإنسان، بما في ذلك عقول تنتمي للطائفة اليهودية ولإسرائيل.[1] ووجود هذه القصة في التوراة لا تثبت أي حقيقة تاريخية، سوى العقلية الدموية لمحرري التوراة.

- **أسطورة معاداة السامية،** أما الكذبة الممجوجة التي سرعان ما تشهر الصهيوينة سيفها في وجه كل باحث عن الحقيقة أو شاهد للحق، والتي يسمونها «اللاسامية»، أو «يهودي كاره لنفسه» إذا كان الباحث يهوديا. فإنها لم تعد مقبولة، فإذا ما صح هذا التصنيف فالعرب هم أصل السامية، وهم ساميون قبل اليهود بالآف السنين، وبالتالي كيف لهم أن يعادوا عرقهم! واليوم في عصر العولمة وانفتاح الشعوب على بعضها، فإنه لمن العار أن تبقى هذه الكذبة تنطلي على عقول البعض، ونحن في مستهل الألفية الثالثة من عمر الحضارة الإنسانية.

- **أسطورة اضطهاد المسلمين لليهود،** حسب المزاعم اليهودية، فإن جيوش المسلمين حين فتحت البلاد في مستهل القرن السابع الميلادي قامت بطرد اليهود منها، والواقع أن اليهود استقبلوا المسلمين بالترحاب والحماس، وقدموا المساعدة للجيش المنتصر، وحتى أن أعداداً من اللاجئين اليهودائيين الذين هربوا سابقاً من ملاحقات البيزنطيين، عادوا مع الجيش المنتصر. وقد

1 مهند عبد الحميد، اختراع شعب وتفكيك آخر، مصدر سبق ذكره، ص 38.

تكيفت الجماعة اليهودية التي بقيت في فلسطين مع نتائج الفتح العربي الإسلامي للبلاد؛ حال كل الشعوب التي تتعرض للفتح، حيث تتكيف أكثريتها مع المنتصرين. فضلاً عن ذلك؛ فإن جيش المسلمين لم يستبدل شعباً بشعب، هناك من أسلم من اليهود، ومن بقي على دينه كان يدفع الجزية. وهنا يتضح أن وظيفة الزعم بأن الجيش الإسلامي قام بطرد اليهود، لا تخفى على أحد، وهي البحث عن مبرر لاحتلال فلسطين من ذراري المحتلين، وتقديم الاحتلال الكولونيالي الجديد باعتباره تحرراً من الاحتلال القديم. وبصورة أخرى، تقمص المحتل دور الضحية، مُسقطاً صفة المحتل عليها في حبكة فقيرة الخيال، تستند إلى وضع العقل جانباً.[1]

- **أسطورة أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض**، وهو إدعاء قام بالترويج له زعماء الحركة الصهيونية مثل "إسرائيل زانجويل"، و"ثيودور هرتزل"، بهدف إيجاد مبررات سياسية وأخلاقية لاحتلال فلسطين، بدعوى أنها فارغة من السكان! وبالرغم من اقتران الشعار بالصهيونية؛ إلا إن من صاغه كان رجل دين استعادي مسيحي، هو "أنتوني آشلي" عام 1843م. ويقصد به أن هناك (أرض بلا شعب) وهي أرض فلسطين ، يجب أن تعطى إلى (شعب بلا أرض) وهم اليهود.

ويذكر "يتسحاق بن تسفي" الرئيس الإسرائيلي الأسبق في كتابه "أرض اسرائيل وسكانها في العهد العثماني"، اعتمادا على تدقيق مستندات ضريبية من الأرشيف العثماني، واستنادا إلى السجل السكاني للسلطات العثمانية بين الأعوام 1525 – 1573، إن عدد سكان فلسطين في بداية العهد العثماني بلغ حوالي (300 ألف نسمة)، وحسب تقدير الدولة العثمانية، فإن عدد سكان فلسطين عام 1896 بلغ (640 ألف) نسمة، وارتفع عددهم إلى (689 ألف) نسمة عام 1919، وكانت نسبة اليهود 8% فقط من عدد السكان، وبسبب موجات الهجرة التي كانت بريطانيا تشجعها وصل عدد اليهود عام 1948 إلى (650 ألف) نسمة، بنسبة 31%، حيث كان عدد العرب الفلسطينين مليون

1 شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية – مدار، ط1، رام الله، 2013. ص 234.

ونصف مليون نسمة.

ومن البديهي أن هؤلاء الفلسطينيون عاشوا فوق أرضهم التاريخية منذ آلاف السنين، ولم يغادروها قط، إلا عام 1948، إثر النكبة، وهؤلاء بالطبع لم يأتوا من فراغ.. في حين أوضحنا السياقات التاريخية التي عاشتها الجماعات اليهودية في مختلف دول العالم، والسبب الذي دفع بعضهم للهجرة إلى فلسطين.

خلاصة

طالما أن التاريخ يكتبه الغزاة والمنتصرون؛ سيظل مليئاً بالكذب والتزييف، ولعل أكبر كذبة على مدار التاريخ تلك التي ابتدعتها الصهيونية عن تاريخ المنطقة، وادعت فيها وجود روابط تاريخية للشعب الإسرائيلي بفلسطين. حيث نجحت بتجنيد المؤرخين اللاهوتيين لتثبيت روايتها المزعومة؛ الأمر الذي مكّن المشروع الصهيوني أن يتحول إلى حقيقة واقعة، ما زلنا نعاني منها منذ أكثر من قرن، بل أن البشرية برمتها ستظل تعاني منها لسنوات طويلة قادمة ..

مختصر الكلام، أي اعتماد على التوراة في عملية التأريخ للمنطقة هو عمل عبثي لا طائل منه، ذلك لأن النص التوراتي بحد ذاته ليس نصاً تاريخيا بأي معيار، ولا يمكن له أن يكون كذلك، وهو مليء بالتناقضات والتعقيدات، والفجوات التي يصعب ردمها، والأحداث التي يتعذر التوفيق فيما بينها، والأساطير التي لا يصدقها عاقل، وعندما يحوي على بعض الأخبار التاريخية فإنه لا يضعها ضمن سياقها التاريخي الصحيح، ولا يعمد إلى فهمها من خلال الإطار العام للأحداث الجارية في المنطقة، بل يوردها بشكل إما غامض أو مقتضب ومن منظور أيديولوجي لاهوتي لا يرى في الحدث المرصود إلا من خلال ردة الفعل بين الإله وشعبه المختار.

والرواية التوراتية ما هي إلا قصة أصول مبتكرة لمجتمع جديد، بدين جديد، يحاول أن يثبت أقدميته وتجذره في المنطقة، وأن يقحم نفسه في صلب التاريخ، من خلال جمع وتصنيف وإعادة صياغة لتركة ثقافية شعبية متعددة النشأة والأصول، والإدعاء بأنها هي تاريخ هذه الجماعة، وإن الذين صاغوا هذه القصة بدعوى التأريخ لهذه الجماعة إنما كانوا يكتبون بتأثير أيديولوجيا ضيقة وبهدف محدد أبعـد ما يكون عن التأريخ الأمين، وهم مدفوعون بهاجس تراثي يتركز

حول إختلاق أصول وجذور لهذه الجماعة، وتبرير لوجودها المصطنع ورسم صورة معينة لمستقبلها، وقد استخدموا لهذه الغاية أسلوب الجمع التراثي، واقتطاف خبر من هنا وقصة من هناك، وتجميعها، بحيث تبدو للوهلة الأولى وكأن تسلسلا منطقيا يربطها، ولكن هذا الترابط سرعان ما يهوي ويتعرى أمام ضعفه، وفي نهاية هذه العملية ظهرت رواية خيالية ونوعا من القصص الشعبية والحكايا والأساطير، أحداثها لا تتقاطع مع التاريخ الفلسطيني، ولا مع تاريخ الشرق القديم، ولا تمت للحقيقة بصلة. علما أن بعض القصص التي وردت في التوراة من الممكن أن تكون قد حصلت فعلا، ولكنها حصلت في زمان آخر ومكان آخر، غير الذي ذكر في التوراة، ولا علاقة للتاريخ اليهودي به.

ولم تكن عملية تدوين التوراة مجرد تزوير للتاريخ، فإضافة إلى ذلك؛ فقد تضمنت التوراة والتلمود تعاليم وأوامر تنطوي على درجة عالية من العنصرية والعنف، ما يعني أن جذور العنف والعنصرية التي تمارسها دولة إسرائيل اليوم تعود إلى ذلك الزمن البعيد، وتنبع من تلك النصوص المشبعة بروح الاستعلاء والكراهية..

الكاتب الإسرائيلي اليساري «جدعون ليفي»، قال في خطاب له أمام تجمع اللوبي اليهودي الأمريكي: «إن المجتمع الإسرائيلي يحيط نفسه بدروع وحوائط مادية وذهنية تجعله ينظر لنفسه على أنه فوق الجميع، فجميع الإسرائيليين تقريبا يؤمنون بعمق أنهم شعب الله المختار، وبالتالي من حقهم أن يفعلوا ما يريدون، لأنهم يرون أنفسهم فوق القانون، وفوق ذلك يمارس المجتمع الإسرائيلي دور الضحية في حين أنه يحتل أرض الغير»، وأكد «ليفي» أن أخطر ما تمارسه إسرائيل هو تجريد الفلسطينيين من إنسانيتهم، قائلاً: «لو شقتت على جلد أي إسرائيلي ستجد تحتها تلك النزعة الوحشية في التعامل مع الفلسطينيين».[1]

أما «شلومو ساند» مؤلف كتاب «كيف لم أعد يهوديا»، فيصل إلى النتيجة التالية: «أرى من واجبي الأخلاقي الانفصال نهائياً عن اليهودية المتمركزة حول ذاتها،

---

1 خطاب ألقاه الصحافي الإسرائيلي جدعون ليفي أمام اللوبي اليهودي الأمريكي. https://www.youtube.com/watch?v=Ywxm2cVpd8o

عندما يصنفونني ضمن إثنوس خيالي، ويشملونني في نادٍ حصري، فإنني أطلب الانسحاب. إن العنصرية موجودة في كل مكان تقريباً، لكن في إسرائيل العنصرية بنيوية بروح القوانين، وتدرّس في جهاز التربية والتعليم، ومنتشرة في وسائل الإعلام، وتطبق على الفلسطينيين بشكل سافر، والأمر المروع أكثر أن العنصريين في إسرائيل لا يعرفون أنهم كذلك، ولا يشعرون بوجوب الاعتذار.1

وهكذا، وعلى قاعدة إنكار الفلسطيني، استمرت أيديولوجية التطهير العرقي وتحولت إلى ثقافة سائدة، ولم تتمكن المؤسسة ولا المجتمع الإسرائيلي في أحسن لحظاتهما انفتاحاً على حل سياسي مع الشعب الفلسطيني من تجاوز مبدأ «صعود طرف يعني سقوطاً للآخر، وانتصار طرف يعني هزيمة للآخر»، فقد تأسس وجود إسرائيل على نفي وجود الآخر، وظلت هذه المعادلة تتحكم في مواقفه ضمن متلازمة تقول إن الحضور والتطور الفلسطيني يشكل تهديداً وجودياً لإسرائيل. في حين حاول الشعب الفلسطيني في كل المراحل، بما في ذلك أثناء التطهير العرقي إيجاد مقاربة نفي النفي، أي القبول المتبادل، ولكنه لم يجد أي استجابة إسرائيلية. 2

وبالرغم من أن الكفاح المسلح كان هو النهج السائد للثورة الفلسطينية، وقد ظل محورا من محاور الفكر السياسي الفلسطيني، إلا أن ممارسته كانت أخلاقية تستهدف إحداث التغييرات السياسية على الأرض، والتي من شأنها تحقيق الأهداف الوطنية العليا للشعب الفلسطيني، ولم يكن قتالا طائفيا في يوم من الأيام، ومن هذا المنطلق فقد جرى التعامل مع مصير اليهود المقيمين في فلسطين بروح إنسانية تقدمية حضارية، كجزء من تصورها للحل النهائي للقضية الفلسطينية، وذلك من خلال حل الدولة الديمقراطية على كامل أرض فلسطين التي يتعايش فيها الكل بروح المواطنة، وتحت القانون ودون تمييز.

هذا الحل الإنساني العادل الذي يطرحه الفلسطينيون ويتعالون فيه على جراحهم وآلامهم التي ابتدأت مع المشروع الصهيوني ولم تتوقف لحظة واحدة، لا تجد له

---

1 مهند عبد الحميد، اختراع شعب وتفكيك آخر، مصدر سبق ذكره، ص 60.
2 مهند عبد الحميد، اختراع شعب وتفكيك آخر، مصدر سبق ذكره، ص 100.

مثيلا في الفكر السياسي لدى حركات التحرر في العالم، سوى في أدبيات حزب المؤتمر الوطني لجنوب إفريقيا، وتجد مقابل هذا الحل برنامجا إسرائيليا ينطوي على أعمال التشريد والإبادة الجماعية التي تصل أحيانا إلى مستوى التطهير العرقي، وكذلك الاستيلاء على أراضِ الآخرين والاعتقال والحصار والتجويع، والذي يمثل جوهر الفكر السياسي التوسعي للحركة الصهيونية الذي يتسم بالشوفينية والاستعلاء والعنصرية، والذي لا يرى أي إمكانية لنجاح مشروعه إلا بتصفية نقيضه المركزي المتمثل بالوجود الفلسطيني، مستندا في ذلك على أطروحات تاريخية هي أقرب للخيال.

فلسطين، هذه الأرض التي تقدسها كل الأديان، اختبرت طويلا الصراعات والحروب، ونزفت الكثير من دماء أبنائها الطيبين.. آن لها أن تجرب السلام، ولو لمرة واحدة.. السلام العادل والشامل ..

تم بحمـد الـله

المصادر:

1. الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق 1984 ج 1 ~ ج 4.
2. فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، دار علاء الدين، ط 1، دمشق، 1995.
3. فراس السواح، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين ط2، 1993 .
4. روجيه جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دار الغد العربي، ط 1 ، القاهرة 1996.
5. كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة د. سحر الهنيدي، عالم المعرفة، الكويت 1999.
6. توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح سوداح، بيسان للتوزيع، ط1، بيروت 1995 .
7. جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودي، الأهلية للتوزيع، ط 1، عمان 1998.
8. د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط 6، دمشق، 1984.
9. ميخائيل هرسيغور، موريس سترون، إسرائيل/ فلسطين الواقع وما وراء الأساطير، ترجمة سلمان ناطور، مشاعل للصحافة والدراسات، ط 1، رام الله 2000.
10. شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة سعيد عياش، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، رام الله، ط1، 2010.
11. د. محمد أمارة، اللغة والهوية في إسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، ط1، رام الله، 2002 .

12. إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، ط1، 1995، بيروت.

13. سيد القمني، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، مكتبة مدبولي الصغير، ط1، 1996، القاهرة.

14. د. شاكر مصطفى، القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، اتحاد الجامعات العربية، ج 1.

15. د. أحمد جميل عزم وآخرون، نجمة كنعان، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2011. إصدار جمعية البيارة الثقافية – فلسطين.

16. يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، ط3، 2009، القاهرة.

17. إسرائيل فنكلشتاين، نيل إشر سيلبرمان، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع، ط2، 2006، دمشق.

18. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1999.

19. سيغمون فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط4، 1986.

20. الهجرة اليهودية والمشروع الصهيوني، ندوة فكرية، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، عمان 1991 ط 1.

21. أحمد صدقي الدجاني، مجلة شؤون فلسطينية، إصدار مركز الأبحاث والدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد 76.

22. عبد الغني سلامه، مجلة فلسطينيات، مركز القدس للإعلام، العدد الخامس، شتاء 2008.

23. د. أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1987.

24. إبراهيم الشريقي، أورشليم وأرض كنعان، حوار مع أنبياء وملوك إسرائيل، الشرق الأوسط للطباعة، عمان 1985.

25. نجيب الأحمد، فلسطين تاريخا ونضالا، دار الجليل للطباعة والنشر، عمان، ط1، 1985.

26. محمد أديب العامري، عروبة فلسطين في التاريخ، المكتبة العصرية للنشر، بيروت، ط1ـ، 1972.

27. دوف شيناور، داني روبنشتاين، الصحافة الفلسطينية تحت الاحتلال، ترجمة كمال أبو سماحة، منشورات دار الكرمل – صامد، ط1، عمان 1988.

28. د. محمد علي حوات، الإعلام الصهيوني وأساليبه الدعائية، وأساليبه الدعائية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2006.

29. حسين قبلاوي، الإعلام في الإستراتيجية الصهيونية، صحيفة البعث السورية، 2003/3/8، المركز الفلسطيني للإعلام. http://www.palestine-info.info/arabic/terror/alfikr/elame.htm

30. مهند عبد الحميد، اختراع شعب وتفكيك آخر، المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والداسات الإستراتيجية - مسارات، ط1، رام الله 2015.

31. شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية – مدار، ط1، رام الله، 2013.

32. سيد القمني، إسرائيل التاريخ، التوراة، التضليل، دار قباء، ط1، القاهرة، 1998.